إي. إم. فورستر

# غرفة ذات إطلالة

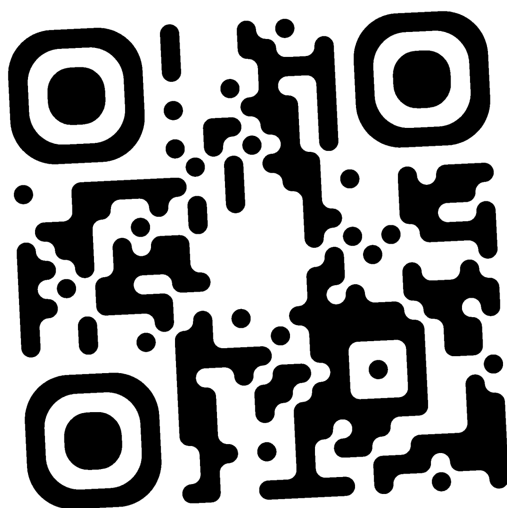
مكتبة

ترجمة: توفيق الأسدي

التكوين

# غرفة ذات إطلالة

لا توقف رحلة القراءة عند هذا
الكتاب سجل في مكتبة الآن
وانضم إلى أكبر موفر للجديد من الكتب



امسح الكود أو اضغط الصفحة اتبع الرابط

مكتبة
t.me/soramnqraa

**A Room with A View**
A Novel By:
E. M. Forster

**الطبعة الأولى 2019**



**هاتـــف: 00963 112236468**
**فاكـــس: 00963 112257677**
**ص. ب: 11418، دمشق ـ سوريا**
taakwen@yahoo.com

إي. إم. فورستر



# غرفة ذات إطلالة

رواية

ترجمة: توفيق الأسدي



# عن المؤلف

ولد إدوارد مورغان فورستر في لندن في اليوم الأول من عام 1879. وعندما بلغ سنتين من العمر توفي أبوه وتولت أمه تربيته، وكانت أمه ابنة أسرة فقيرة، والواقع أنه كان لها أثر عميق في حياته فقد عاش بصحبتها حتى وفاتها عام 1946 عندما كان في السابعة والستين من عمره. توفيت عمة أبيه ميريان ثورنتون عام 1887 عندما كان في الثامنة من عمره، وأوصت له بمبلغ ثمانية آلاف جنيه، وهو مبلغ استطاع فورستر أن يعيش على فوائده المصرفية دون الحاجة إلى العمل بأجر . وقال في مذكراته: لقد كانت عمتي ميريان هي وحدها التي جعلت من الممكن أن أتفرغ للكتابة.

وأرسل فورستر إلى مدرسة ابتدائية متواضعة في ايستبورن، ثم أرسل إلى مدرسة في تنبريدج، وفي هذه المدرسة شعر بكثير من التعاسة وبمقت للقيم التقليدية للمدارس الحكومية، ذلك أنه أعتقد أن هذه المدارس تضع قيودا صارمة علي خيال التلاميذ وعواطفهم، وصورّ تأثير هذه المدارس في حياة التلاميذ في روايته الثانية "أطول رحلة" وكتب يقول: إن هذه المدارس تنتج أجساماً سليمة وعقولاً متوسطة الجودة وقلوباً ضامرة.

وفي عام 1897 التحق بجامعة كمبردج، وارتبط في أذهان قرائه بمدينة كمبردج وجامعتها طيلة حياته. وفي الجامعة درس الآداب الكلاسيكية والتاريخ وعشق الأدب الحديث، كما مقت السلطة والتسلط. تأثر شأن كثير من مثقفي جيله بأفكار الفيلسوف الانجليزي

جورج إدوارد مور، الذي دافع في كتابه (مبادئ الأخلاق) 1903، عن قيم الفن والجمال والعلاقات الفردية. وبعد أن تخرج في جامعة كمبردج قضى عدة سنوات في أعمال متفرقة وكان كثير الأسفار، وفي عام 1906 عاد إلى بيت أمه في مقاطعة (سري) حيث صادق شاباً هندياً اسمه سيد مسعود، ودامت هذه الصداقة طيلة حياته.

وشرع فورستر في كتابة القصص القصيرة منذ بداية القرن، ونشر أولى رواياته بعنوان "حيث تخشى الملائكة أن تخطو" عام 1907 وقد استقى أحداثها من حياته الخاصة، ورواية "غرفة ذات إطلالة" في العام التالي. أما رواية "هواردز إند" فنشرها عام 1910. وبعد ذلك سافر إلى الهند مع عدد من أصدقائه، ومكنته هذه الرحلة من أن يصف المجتمع الانكليزي بما عليه من أنانية وضيق أفق في سياق أوسع. وفي هذه المرحلة كان فورستر من أبرز أعضاء جماعة بلومزبري، وكان يعرف كثيرا من أعضاء الجماعة من أيام دراسته في جامعة كمبردج؛ وكان أعضاء الجماعة من كبار المثقفين الذين آمنوا بالقيم الجمالية والعلاقات الإنسانية التي أبرزها فورستر: إن كتب هؤلاء المثقفين ومؤلفاتهم تشير إلى احترامهم العميق للفن. والواقع أنهم كانوا يعتقدون أنه لا يمكن الفصل بين الشكل والمضمون لأن الفنان لا يستطيع أن يعبر عن عواطفه وأفكاره تعبيراً وافياً إلا بشكل رفيع المستوى. ولم يكن لجماعة بلومزبري صفة رسمية، ووصفت الجماعة بأنها تمثل حركة فنية. وكان لأعضاء هذه الجماعة مواقف مشتركة منها التشكيك في المعتقدات الدينية والتفاعل مع الفن الحديث والتعاطف مع السياسة الليبرالية. واتخذ كثير من الأعضاء مواقف سلبية أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن فورستر خدم في الصليب الأحمر في الإسكندرية من عام 1915 إلى عام 1918 . قبل اندلاع الحرب كتب رواية في السر بعنوان "موريس" عبر فيها لأول

مرة عن شذوذه الجنسي، وأهدى نسخاً من هذه الرواية إلى أعضاء الجماعة وظن أنهم سيتفهمون طبيعته ويتعاطفون معه.

عاد فورستر إلى الهند عام 1921 ليعمل سكرتيراً لحاكم إحدى الولايات هناك، وصور بعض خبراته هذه المرة في كتاب رحلات بعنوان "هضبة ديفي" نشر عام 1953 . وفي أثناء إقامته في الهند عادت إليه فكرة كانت قد تولدت في ذهنه أثناء زيارته الأولى، وهي كتابة رواية تدور أحداثها في شبه الجزيرة الهندية وتعالج العلاقات بين الهنود والمستعمرين الانجليز. وشرع في كتابة الرواية فعلاً بعد عودته إلى إنكلترا. وتلقى كثيراً من التشجيع والمساعدة من فيرجينيا وولف وزوجها، ونشرت رواية "ممر إلى الهند" عام 1924 ولاقت رواجاً عظيماً.

ولم ينشر فورستر في الأعوام الستة والأربعين التي عاشها بعد عام 1924 روايات جديدة، ويعود أحد أسباب ذلك إلى الصعوبات إلى التي واجهها في التعبير الصريح عن قضايا تتعلق بالشذوذ. وواصل بعد عودته إلى إنكلترا الإقامة مع أمه، ولكنه كان يميل بين فترة وأخرى إلى الهرب من البيت، فاستأجر شقة في لندن حيث استقبل كتاباً وفنانين.

وإذا كان فورستر لم ينشر أية روايات بعد عام 1924 إلا أنه ازداد نشاطاً في الأوساط العامة التي اعتبرته رمزاً للضمير الحر. وفي عام 1927 ألقى العديد من المحاضرات في جامعة كمبردج وجمعت هذه المحاضرات في كتاب بعنوان "وجهات نظر في الرواية". وفي العام التالي انتخب رئيساً للمجلس الوطني للحريات المدنية. وتعالج مجموعتان من المقالات بعنوان "مهرجان أبينغر" 1936 و"تصفيق للديمقراطية" 1951 مواقف الكاتب الليبرالي من السياسة والفن.

هذا وقدم فورستر عدة برامج في هيئة الإذاعة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، وناقش في هذه البرامج طبيعة الحضارة الحديثة ومتطلباتها. وواصل الاهتمام بشؤون الهند وعاد إلى شبه الجزيرة الهندية عام 1945 وذلك قبل استقلالها بعامين. وفي عام 1946 توفيت أمه، فعاد إلى الإقامة في كمبردج وعاش حياة سعيدة يسودها الاطمئنان. وقد نال في آخر سنوات عمره كثيراً من التقدير، ففي عام 1969 حصل على وسام الاستحقاق، وبعد وفاته عام 1970 نشرت روايته "موريس" عام 1971.

وتبرز روايات فورستر أهمية العلاقات الطيبة بين الناس، وتشدد على ضرورة التسامح والنيات الحسنة، وتنتقد مادية الطبقة المتوسطة في المجتمع الانكليزي، وتقول إن للمادية أثراً مدمراً على الفرد وعلى المجتمع. وكان فورستر يؤمن بالفن كقيمة. قال في إحدى مقالاته: إن للفن قيمة ليس لأنه تعليمي (مع أنه قد يكون) وليس لأنه مسلّ (مع أنه قد يكون كذلك)، وليس لأن كل واحد منا يستمتع به (فليس الجميع يحب الفن)، وليس لأن الفن يتعامل مع الجمال؛ بل لأن للفن قيمة من حيث أنه يتعامل مع النظام ويخلق عوالم صغيرة فيها انسجام وتناغم في قلب هذا الكوكب الذي تعيث به الفوضى من كل ناحية.

يقول فورستر في هذه المحاضرات إن أهم ما يميز الرواية كفن أن الكاتب يستطيع فيها أن يتحدث عن شخصياته ومن خلالها، ويستطيع أن يفسح لنا المجال حتى نستمع إلى شخصياته عندما تتحدث إلى نفسها. إن الكاتب يعرف شخصياته من الداخل، ولذلك فإنه يستطيع أن يغوص في الشخصيات إلى أن يصل إلى

عقلها الباطن. ويقول فورستر إن الواحد منا لا يتحدث عن نفسه بصدق ولا حتى لنفسه . إننا نشعر بالسعادة أو التعاسة دون أن نستطيع أن نحدد الأسباب بدقة كافية. أما الروائي فإنه في وضع يمكّنه من الوصول إلى أعماق شخصياته ومن التعبير عن هذه الأعماق. ويقول الكاتب إن القراءة هي السبيل الوحيد للتعرف إلى مضمون الكتب.

* * *

# الجزء الأول

# الفصل [1]



## آل برتوليني

قالت الآنسة بارتلت: لا يحق للسنيورة أن تفعل ذلك، لا يحق لها إطلاقاً. لقد وعدت بإعطائنا غرفتين جنوبيتين بإطلالة والواحدة منهما إلى جانب الأخرى، ولكنها بدلاً عن ذلك تعطينا غرفتين شماليتين، فهاتان غرفتان شماليتان، تطلان على فناء، ومتباعدتان جداً. أوه، يا لوسي".

قالت لوسي التي كانت أكثر حزناً بكثير بسبب لهجة السنيورة غير المتوقعة [حين راحت تنطق بالإنكليزية]: "ولها لكنة حيّ الكوكني[1] أيضاً. ربما نحن في لندن". نظرت إلى صفين من الأشخاص الإنكليز الجالسين إلى المائدة؛ إلى صفّ زجاجات الماء البيضاء وزجاجات النبيذ الحمراء الذي كان يفصل بين هؤلاء الإنكليز؛ كما نظرت إلى صورتي الملكة الراحلة وأمير الشعراء الراحل اللتين كانتا معلقتين خلف الأشخاص الإنكليز والمؤطرتين بإطارين ثقيلين؛ وإلى إشعار الكنيسة الإنكليزية (القس كثبرت إيغر، إم.أ. أوكسون)، وكان الزينة الوحيدة الأخرى المعلقة على الحائط. "يا شارلوت، ألا تشعرين أننا ربما نكون في لندن؟ لا أستطيع أن أصدق إلا بصعوبة أن كل الأنواع الأخرى من الأشياء هي في الخارج بالضبط. أفترض أن هذا يعود إلى أننا مرهقتان جداً".

قالت الآنسة بارتلت وهي تضع شوكتها على المائدة: "لا بدّ وأن هذا اللحم قد استُعمل لطبخ الحساء".

---

(1) كوكني: حي معروف في لندن بأنه حي الفقراء. المترجم.

"لقد كنت تواقة جداً لمشاهدة الآرنو[1]. من المفروض أن الغرفتين اللتين وعدتنا السنيورة بهما في رسالتها تطلان على الآرنو. لم يكن من حق السنيورة أن تفعل ذلك إطلاقاً. أوه، يا للعار"!

استأنفت الآنسة بارتلت الكلام فقالت: "أي قرنة من غرفة يمكن أن تلائمني، ولكن يبدو أن الحرمان من الإطلالة شيء صعب الاحتمال فعلاً".

شعرت لوسي بأنها كانت تتصرف بأنانية. قالت: "شارلوت، ليس عليك أن تدلّليني: بالطبع عليك أن أيضاً أن تكون لك إطلالة على الآرنو. أعني ما أقول. الغرفة الفارغة الأولى في...".

قالت الآنسة بارتلت التي كان جزءاً من نفقات سفرتها مدفوعة من قبل والدة لوسي، وهي لفتة كرم كانت تشير إليها في مناسبات كثيرة ولكن بلباقة: "يجب أن تحصلي أنت عليها".

"أنا أصرّ على هذا. لن تسامحني أمك أبداً، يا لوسي".

علا صوت السيدتين، ولو أردنا الحقيقة، لقلنا إنهما كانا صوتين نكدين قليلاً. كانتا متعبتين، وتحت ستار الغيرية فقد راحتا تتجادلان. تبادل بعض جيرانهما النظرات، وانحنى أحدهم ـ واحد من الأشخاص قليلي التهذيب ممن يصادفهم المرء في الخارج فعلاً ـ إلى الأمام فوق المائدة وتدخل فعلاً في جدالهما. قال:

"لديّ إطلالة. لديّ إطلالة".

أجفلت الآنسة بارتلت. في العادة عندما تكونان في بنسيون، فإن الناس يتفحصونهما ليوم أو يومين قبل أن يبادروهما بالكلام، وغالباً لا تكتشفان أنهم "سيفعلون ذلك" إلا بعد أن يكونوا قد رحلوا. عرفت

(1) آرنو: نهر في مقاطعة توسكاني. المترجم.

أن المتطفل شخص قليل التهذيب حتى قبل أن تنظر إليه. كان رجلاً عجوزاً ثقيل البنية، بوجه وسيم حليق وعينين واسعتين. كان هناك شيء طفوليّ في تينك العينين، على الرغم من أنها كانت طفولية تتعلق بالشيخوخة. ما كان ذلك بالضبط؟ هذا أمر لم تتوقف الآنسة بارتلت لتفكر فيه، فقد انتقلت نظرتها إلى ملابسه. لم تجذبها تلك الملابس. ربما كان يحاول أن يصبح من معارفهما قبل أن تتعرفا إليه جيداً. لذا كست وجهها بتعبير ذاهل حين تحدث إليها؛ ثم قالت: "إطلالة؟ أوه، إطلالة! لكم هي الإطلالة ممتعة"!

قال الرجل العجوز: "هذا ابني، اسمه جورج. ولديه هو إطلالة أيضاً".

قالت الآنسة بارتلت وهي تكبح لوسي التي كانت على وشك أن تتكلم: "آه".

استأنف الرجل الكلام فقال: "ما أعنيه هو أنه باستطاعتكما أن تأخذا غرفتينا، ونأخذ نحن غرفتيكما. أي سنقوم بالتبادل".

صُدم السوّاح المنتمون إلى الطبقة الأعلى ممّا جرى، وتعاطفوا مع القادمتين الجديدتين. في ردها على ذلك، فتحت الآنسة بارتلت فمها إلى أقل حدّ ممكن، وقالت:

"شكراً جزيلاً حقاً؛ ولكنه مستحيل".

سأل الرجل العجوز وكلتا قبضتيه على المائدة: "لماذا؟".

"لأنه مستحيل بكل ما في الكلمة من معنى، وشكراً".

بدأت لوسي بالكلام فقالت: "كما ترى، فنحن لا نحبّ أن نأخذ...".

كبحتها ابنة عم أمها مجدداً.

ألح الرجل العجوز: "ولكن لم لا؟ تحب النساء الإطلالة على منظر جميل. أما الرجال فلا". ثم ضرب المائدة بكلتا قبضتيه كما قد يفعل طفل صغير، والتفت إلى ابنه، وقال: "يا جورج، أقنِعْهما".

قال الابن: "من الواضح جداً أن عليهما أخذ الغرفتين. ليس هناك أي شيء آخر يمكن قوله".

لم ينظر إلى السيدتين وهو يتكلم، ولكن طغى على صوته الارتباك والحزن. كما كانت لوسي مرتبكة أيضاً؛ ولكنها رأت أنهما كانتا عالقتين فيما يسمى بـ"مشهد علني محرج"، وانتابها شعور غريب بأنه كلما كان هذان السائحان قليلي التهذيب يتكلمان، كان الجدال يتسع ويتعمق حتى راح يتناول ليس الغرف والإطلالات، بل... حسناً، يتناول شيئاً مختلفاً تماماً، لم تكن قد ميزت وجوده من قبل. وهاهو الرجل العجوز يهاجم الآنسة بارتلت بعنف: لمَ لا نتبادل الغرفتين؟ ما الاعتراض المحتمل الذي لديها؟ يمكنهما أن يخرجا أمتعتهما في نصف ساعة.

كانت الآنسة بارتلت، رغم مهارتها في كياسة المحادثة، دون حول ولا قوة في وجود تلك الوحشية. كان من المستحيل إيقاف مثل هذا الشخص شديد الفظاظة جداً عند حده. احمر وجهها من الاستياء. نظرت من حولها كأنما لتقول: "هل أنتم جميعاً مثل هذا الرجل؟" وتبادلت معها النظر سيدتان عجوزان كانتا جالستين إلى المائدة أبعد قليلاً عنها، وهما تكتسيان بشالين كانا متدليين من فوق كرسييهما، وكأنهما تقولان بوضوح: "لسنا مثله. نحن دمثتان".

قالت للوسي: "تناولي عشاءك يا عزيزتي"، ثم بدأت تعبث مجدداً باللحم الذي انتقدته من قبل.

همهمت لوسي بأن هذين الشخصين الجالسين مقابلهما غريبا الأطوار جداً.

"تناولي عشاءك يا عزيزتي. هذا البنسيون فاشل. غداً سنجد غيره".

ما كادت تعلن هذا القرار الفظيع حتى تراجعت عنه. انفرجت الستائر التي في نهاية الغرفة، وكشفت عن قسيس بدين إنما جذاب الملامح، أسرع ليجلس إلى المائدة، وهو يعتذر ببشاشة عن تأخره. نهضت لوسي، التي لم تكن قد تعلمت اللباقة بعد، على الفور، وصاحت: "أوه، أوه! عجباً، إنه السيد بيب! أوه، لكم هذا جميل تماماً! أوه، يا شارلوت، علينا أن نتوقف الآن، مهما كانت الغرفتان غير ملائمتين. أوه"!

قالت الآنسة بارتلت ولكن بضبط أكبر للمشاعر: "كيف حالك يا مستر بيب؟ أتوقع أن تكون قد نسيتنا: الآنسة بارتلت والآنسة هنيتشيرتش اللتان كانتا في تنبريدج ويلز[1] حين قدمتَ المساعدة إلى قسّ كنيسة القديس بطرس في عيد الفصح ذاك الذي أتى مع برد قارص".

لم يتذكر القسيس، الذي كانت عليه سيماء من هو في عطلة، السيدتين بذلك الوضوح الذي تذكراتاه هما به. ولكنه تقدم إلى الأمام على نحو لطيف بما فيه الكفاية وتقبّل الكرسي الذي أشارت إليه لوسي.

قالت الفتاة التي كانت في حالة من السغب الروحي، وكانت سعيدة بمشاهدة حتى النادل لو سمحت لها ابنة عم أمها بذلك: "تصوروا فحسب كم هو العالم صغير. وأن يكون اسم الشارع هو (سمر) [الصيف] يجعل الأمر مضحكاً على نحو خاص".

قالت الآنسة بارتلت وهي توضح ما خفي من الأمور: "تعيش الآنسة هنيتشيرتش في أبرشية شارع سَمَرْ، وقد حدث أن حكت لي خلال حوارنا أنك قد قبلتَ للتو السكن.."..

---

(1) تنبريدج ويلز: بلدة في غرب مقاطعة كنت في إنكلترا. المترجم.

"لقد كتبت إليّ أمي عن هذا الأمر في الأسبوع الماضي. لم تكن تعلم أني أعرفك خلال زيارتي لتنبريدج ويلز؛ ولكني أجبتها برسالة على الفور وقلت لها: "السيد بيب...".

قال القس: "هذا صحيح تماماً. أنا سأنتقل إلى منزل السكن الخاص بالقسيس في شارع سمر في حزيران (يونيو) القادم. وأنا محظوظ لتعييني قساً في ذلك الحي الفاتن".

"أوه، لكم أنا سعيدة! اسم منزلنا (ذا ويندي كورنر) [الركن العاصف]".

انحنى السيد بيب.

"على العموم هناك أمي وأنا، وهناك أخي، رغم أننا لا نستطيع غالباً اصطحابه إلى الكنـ... فالكنيسة بعيدة جداً، كما أريد أن أقول".

"عزيزتي الغالية لوسي، فلتسمحي للسيد بيب أن يتناول وجبة غدائه".

"أنا أتناولها، شكراً، وأستمتع بها".

كان يفضل أن يحادث لوسي، فقد تذكر عزفها، وليس الآنسة بارتلت، التي ربما كانت تتذكر مواعظه. سأل الفتاة إن كانت تعرف فلورنسه جيداً، وقد عرف بعد تفاصيل كثيرة، أنه لم يسبق لها زيارتها من قبل. كان أمراً ممتعاً تقديم النصح لقادم جديد، وهو الخبير المتميز في هذا المجال.

أنهى نصيحته قائلاً: "إياك أن تفوتك الجولة في الريف. أول رحلة في عصر يوم جميل إلى (فيزوله) وفي أرجاء سيتينيانو، أو شيء من هذا القبيل".

صاح صوت من آخر المائدة: "كلا! يا سيد بيب أنت على خطأ. على سيدتيك أن تزورا براتو في أول عصر".

همست الآنسة بارتلت في أذن حفيدة عمها: "تبدو تلك السيدة شديدة الذكاء. نحن محظوظتان".

وبالفعل، فإن سيلاً كاملاً من المعلومات انهال عليهما. راح أشخاص يخبرونهما ما الذي عليهما زيارته وأين تتم رؤيته، وكيف يتم إيقاف الحافلات الكهربائية، وكيف يتم التخلص من الشحاذين، وكم يجب أن يُدفع مقابل الجلد المستخدم لتنشيف الحبر، وكم من الوقت سيستغرقه التآلف مع المكان. لقد قرر بنسيون برتوليني، بحماسة تقريباً، أنهما ستتآلفان معه. أنى كانتا تنظران كانت سيدات لطيفات تبتسمن لهما وتصحن عليهما. وقد تفوّق على كل الأصوات صوت السيدة الذكية التي راحت تصيح: "براتو! عليهما أن تذهبا إلى براتو. ذلك المكان خال تماماً من أي ميزات وعلى نحو جميل بحيث تعجز الكلمات عن وصفه. أحبه. أنا أستمتع بالتخلص من عوائق المسؤولية، كما تعرفون".

نظر الشاب المسمى "جورج" إلى السيدة الذكية، ثم عاد إلى طبقه بمزاجية. من الواضح أنه هو وأبوه لم يكونا من محبّي ذلك المكان. وجدت لوسي في وسط نجاحها الوقت الكافي لتتمنى لو كانا يحبانه. لم تشعر بالسرور لأن شخصاً ما تُرك مهملاً؛ وحين نهضت لتذهب، التفتت وحيّت الغريبين بانحناءة عصبية صغيرة.

لم يلاحظها الأب، ولكن الابن رد عليها، ليس بانحناءة أخرى، بل برفع حاجبيه والابتسام؛ بدا عليه أنه يبتسم عبر شيء ما.

أسرعت لتلحق بابنة عم أمها التي كان قد سبق لها واختفت عبر الستائر ـ ستائر كانت تصدم المرء في وجهه، وتبدو ثقيلة وكأنها ليست قماشاً فحسب. إلى الخلف منها كانت تقف السنيورة غير الجديرة بالثقة، وهي تحيّي ضيوفها بعبارة "مساء الخير"، يدعمها

"إنري" ابنها الصغير، و"فيكتوريير"[1] ابنتها. كانت تقدم مشهداً صغيراً لافتاً للنظر بهذه المحاولة لاستخدام لكنة الكوكني حتى تعبّر عن الكياسة واللطف الخاصتين بجنوب أوربا؛ وما كان أكثر مدعاة للاستغراب هو غرفة الجلوس التي حاولت بها منافسة الراحة المتينة التي تقدمها بنسيونات بلومزبري[2]. هل كانت هذه إيطالياً حقاً؟

كان قد سبق للآنسة بارتلت أن جلست على كنبة محشوة جيداً، ولها لون البندورة (الطماطم) وشكلها. كانت تحاور السيد بيب، وبينما كانت تتكلم، كان رأسها الطويل الضيق يتقدم ويتراجع، ببطء وانتظام، وكأنها تدرأ عائقاً غير مرئي. كانت تقول: "نحن ممتنتان جداً لك. الأمسية الأولى تعني الكثير. حين وصلتَ كنا ويا للغرابة في (ربع ساعة رديئة)". [قالتها بالفرنسية].

عبّر هو عن أسفه.

"هل تعرف يا ترى اسم الرجل العجوز الذي كان جالساً قبالتنا على العشاء؟".

"إمرسون".

"هل هو من أصدقائك؟".

"نحن على علاقة ودية... كما يحدث بين نزلاء البنسيونات".

"إذاً، لن أقول المزيد".

ضغط عليها قليلاً جداً فقالت المزيد:

"أنا الوصيفة المصاحبة لحفيدة عمي الشابة، وسيكون أمراً خطيراً أن أجعلها موضع منّة تجاه أشخاص لا نعرف عنهم شيئاً. كان أسلوبه لا يدعو للسرور نوعاً ما. آمل أني تصرفت على نحو جيد".

---

(1) أسلوب الكوكني في لفظ اسمي "هنري" و"فيكتوريا". المترجم.

(2) بلومزبيري: منطقة في مقاطعة لندن. المترجم.

قال: "لقد تصرفت على نحو طبيعي جداً". بدا وكأنه يتأمل، وبعد لحظات قليلة أضاف: "الأمر كله سيان. لا أظنّ أن أي ضرر كان سيحصل لو قبلتما عرضه".

"الضرر غير وارد طبعاً. ولكننا لم نستطع أن نكون مدينتين بمنّة ما".

"هو بالأحرى شخص عجيب". تردد مجدداً ثم قال بلطف: "أعتقد أنه ما كان سيستغلّ قبولكما لعرضه، ولا كان يتوقع منكما أن تبديا الامتنان. لديه فضيلة ـ إن كانت تلك فضيلة ـ ألا وهي التعبير بالضبط عما يعنيه. لديه غرفتان لا يجدهما قيّمتين، وهو يظن أنكما ستعتبرانهما كذلك. لم يكن يفكر في وضعكما تحت أي منّة، بل في أن يتصرف بكياسة. يصعب كثيراً ـ على الأقل أجده أنا صعباً ـ أن نفهم الناس الذين ينطقون بالحقيقة".

سرّت لوسي وقالت: "كنت آمل أن يكون شخصاً لطيف المعشر، وآمل دوماً أن يكون الناس لطيفي المعشر".

"أعتقد أنه لطيف ومتعب، وأنا أختلف عنه في كل ناحية ذات أهمية، وبالتالي فأنا أتوقع ـ وقد أقول إني آمل ـ أنك سوف تختلفين عنه أيضاً. ولكن هذا نمط من الناس يختلف الناس معه ولا يحزنون من أجله. حين جاء إلى هنا لأول مرة، أزعج الناس جداً. لم يكن يتحلى بأي لباقة أو بسلوك حسن. لا أعني بذلك أنه سيئ السلوك، كما أنه لا يبقي آراءه في صدره. كدنا نشكوه إلى سنيورتنا المثيرة للكآبة. ولكني سعيد أن أقول إننا فضلنا عدم فعل ذلك".

قالت الآنسة بارتلت: "هل يمكنني أن أستنتج أنه اشتراكي النزعة؟".

تقبل السيد بيب تلك الكلمة الملائمة ولكن ليس دون أن ترتعش شفتاه.

"وهل من المفترض أنه ربى ابنه ليكون اشتراكياً هو أيضاً؟".

"لا أعرف جورج إلا بالكاد، فهو لم يتعلم الكلام بعد. يبدو كمخلوق لطيف، وأعتقد أنه ذكي. بالطبع لديه سلوك أبيه ومن المحتمل جداً أن يكون هو أيضاً اشتراكياً".

قالت الآنسة بارتلت: "أوه، لقد جلبتَ الراحة إلى نفسي. إذاً، فأنت تظن أنه كان عليّ قبول عرضهما؟ أنت تشعر أني كنت ضيقة الأفق وشكاكة؟".

أجابها قائلاً: "ليس على الإطلاق. لم أقترح مثل هذا الرأي أبداً".

"ولكن، أليس عليّ أن أعتذر ـ على أي حال ـ عن فظاظتي الجلية؟".

أجاب ببعض الانزعاج أن هذا ليس ضرورياً، ثم نهض عن كرسيه ليذهب إلى غرفة التدخين.

قالت الآنسة بارتلت ما أن اختفى عن الأنظار: "هل كنتُ مملّة؟ لمَ لمْ تتكلمي يا لوسي؟ إنه يفضل من هم في سن الشباب. أنا على ثقة من ذلك. آمل حقاً أنني لم أحتكره . أملتُ أن تحوزي عليه طوال المساء، وخلال فترة العشاء كلها أيضاً".

صاحت لوسي: "إنه لطيف. تماماً كما أتذكره. يبدو عليه وكأنه يرى الصلاح في كل شخص. ليس هناك من يظنه قسيساً".

"يا لوسياي العزيزة".

"حسناً، أنت تعرفين ما أعنيه، وتعرفين كيف يضحك القساوسة عموماً. أما السيد بيب فيضحك كشخص عاديّ تماماً".

"يا لك من فتاة مضحكة! لكم تذكّرينني بأمك حقاً. أتساءل إن كانت ستوافق على السيد بيب".

"أنا واثقة أنها ستفعل ذلك؛ وكذلك سيفعل فريدي".

"أعتقد أن كل شخص في ويندي كورنر سيوافق عليه. إنه العالَم الذي يتبع آخر ابتكارات الموضة. أنا معتادة على تنبريدج ويلز حيث نكون كلنا متخلفين عن هذه الأزمان وفي حالة يأس".

قالت لوسي بقنوط: "أجل".

كان هناك جو من الاستنكار في الجو، ولكن هل كان الاستنكار ضدها، أو هو ضد السيد بيب، أو ضد العالَم الموافق لآخر موضة في ويندي كورنر، أو العالَم الضيق في تنبريدج ويلز؟ لم تكن هي قادرة على اتخاذ قرار. حاولت أن تجد مكانه، ولكنها أخطأت كعادتها. أنكرت الآنسة بارتلت بجد أنها تستنكر أي شخص، وأضافت: "أخشى أنك تجدينني رفيقة مثيرة للكآبة".

وفكرت الفتاة مرة أخرى: "لا شك أني كنت أنانية أو عديمة اللطف. عليّ أن أكون أكثر حذراً. الأمر لا بد أن يكون رهيباً بالنسبة إلى شارلوت، كونها فقيرة".

لحسن الحظ، فإن واحدة من السيدات العجائز ضئيلات القامة، واللواتي كنّ منذ بعض الوقت يبتسمن برقة، اقتربت وسألت إن كان يُسمح لها أن تجلس حيث كان يجلس السيد بيب. مُنح الإذن لها، فبدأت تثرثر بلطف عن إيطاليا، وعن مغامرة القدوم إلى هذا المكان، والتحسّن في صحة شقيقتها، وضرورة إغلاق نوافذ غرفة النوم ليلاً، وإفراغ كامل لزجاجات المياه في الصباح. كانت تعالج هذه المواضيع على نحو ملائم، وكانت ربما أكثر جدارة بالاهتمام من الحوار السامي حول "الكويلف والغيبيلين"[1] الذي كان يدور بعنف عند الجانب

---

(1) الحزبان السياسيان الأكبر في إيطاليا في العصر الوسيط. المترجم.

الآخر من الغرفة. كانت كارثة حقيقية، وليس مجرد حادث، أمسيتها تلك في مدينة البندقية، حين وجدت في غرفة نومها شيئاً ما أسوأ من البراغيث، ولكن شيئاً ما بعينه قد يكون أفضل من شيء ما آخر.

"ولكنك هنا آمنة وكأنك في إنكلترا. السنيورة برتوليني إنكليزية جداً".

قالت لوسي المسكينة: "ولكن لغرفتينا رائحة كريهة. نحن نخاف من الذهاب إلى السرير".

"آه، إذاً تفرجا على الباحة"! تنهدت. "لو أن السيد إمرسون كان أكثر لباقة! كنا آسفتين جداً من أجلكما خلال وجبة العشاء".

"أعتقد أنه كان ينوي التصرف بلطف".

قالت الآنسة بارتلت: "لا شك في ذلك. كان السيد بيب يؤنبني قبل قليل بسبب طبيعتي الشكاكة. طبعاً، كنت أتحفّظ نيابة عن حفيدة عمي".

قالت السيدة العجوز ضئيلة القوام: "طبعاً". ثم همهمتا بأن المرء لا يمكنه إلا أن يكون شديد الحرص مع فتاة يافعة".

حاولت لوسي أن تبدو خجولة، ولكنها لم تستطع أن تغالب الشعور بأنها شديدة الحماقة. لم يكن هناك من يعاملها بحرص في البيت؛ أو، وعلى أي حال، أنها لم تلاحظ ذلك.

"فيما يخص السيد إمرسون العجوز... لا أعرف بالكاد ما أقول. كلا، هو ليس لبقاً، ولكن هل لاحظت يا ترى أن هناك أناساً يفعلون أشياء شديدة الفظاظة، ولكنها في الوقت نفسه جميلة؟".

قالت الآنسة بارتلت وقد أربكتها الكلمة: "أليس الجمال واللباقة الشيء نفسه؟".

قالت الأخرى بيأس: "هكذا يمكن للمرء أن يظن، ولكن الأمور صعبة جداً، كما أعتقد أحياناً".

لم تكمل حديثها لأن السيد بيب عاد للظهور، وهو يبدو شديد السرور.

صاح: "يا آنسة بارتلت، الأمر على ما يرام فيما يخص الغرف. أنا سعيد جداً. كان السيد إمرسون يتحدث عن ذلك في غرفة التدخين، وبما أنه يعرف ما فعلتُه، فقد شجعتُه على تقديم عرضه مرة أخرى. لقد طلب مني أن أخرج لأسألك. سيكون هو في منتهى السرور.

صاحت لوسي مخاطبة ابنة عم أمها: "أوه شارلوت، يجب أن نحصل على الغرفتين الآن. الرجل العجوز لطيف وطيب جداً".

لم تنبس الآنسة بارتلت ببنت شفة.

قال السيد بيب بعد توقف قصير: "أخشى أني كنت فضولياً. عليّ أن أعتذر بسبب تطفلي".

التفت ليمضي وهو غاضب جداً. لم تكن الآنسة بارتلت قد أجابت حتى الآن فقالت: "رغباتي الشخصية يا لوسي العزيزة غير هامة بالمقارنة مع رغباتك. سيكون أمراً غير وديّ فعلاً أن أمنعك من فعل ما تحبين في فلورنسه، وأنا التي لم تحضر إلى هنا إلا عبر كرمك. إن أردت مني أن أطرد هذين السيدين من غرفتيهما، فسأفعل ذلك. هل لك إذاً يا سيد بيب أن تتلطف وتقول للسيد إمرسون إني أقبل عرضه الكريم ثم أن تطلب منه مقابلتي حتى أشكره شخصياً؟".

كانت صوتها قد ارتفعت نبرته وهي تتكلم. وقد سمعها جميع من كان في غرفة الجلوس، بل وأخرست أولئك الذين كانوا يناقشون مسألة الغويلف والغيبيلين. انحنى القسيس ـ وهو يلعن في نفسه الجنس الأنثوي ـ وغادر حاملاً رسالتها.

"تذكري يا لوسي أني وحدي من تورطت في هذا الأمر. لا أرغب في أن تأتي الموافقة منك. اسمحي لي بذلك في كل الأحوال".

عاد السيد بيب، وهو يقول بعصبية نوعاً ما:

"السيد إمرسون مشغول، ولكن هناك ابنه بدلاً عنه".

حدق الشاب في النسوة الثلاث، اللواتي شعرن أنهن جالسات على أرض الغرفة حيث كانت كراسيهن شديدة الانخفاض.

قال: "أبي في حمّامه، لذلك لا يمكنكما شكره شخصياً. ولكن أي رسالة منكما تقدمانها إليّ سأوصلها إليه حالما يخرج".

لم تكن الآنسة بارتلت مستعدة لقصة الحمّام. كانت كياستها الناقدة قد خسرت المواجهة. لقد حقق السيد إمرسون الشاب انتصاراً مميزاً طرب له السيد بيب كما طربت لوسي له في سرها.

قالت الآنسة بارتلت ما أن غادر السيد إمرسون: "يا للشاب المسكين! لكم هو غاضب من أبيه فيما يخص الغرفتين"! هذا كل ما يستطيع فعله ليبقى مهذباً".

قال السيد بيب: "خلال نصف ساعة ستكون غرفتاكما جاهزتين". وبينما راح ينظر بتأملّ نوعاً ما إلى لوسي وقريبتها، مضى هو إلى غرفته ليكتب يومياته الفلسفية.

"يا إلهي"! هكذا تنهدت السيدة العجوز ضئيلة القوام وارتجفت وكأن كل رياح السماء قد دخلت الشقة". لا يدرك السادة أحياناً..". تلاشى صوتها، ولكن الآنسة بارتلت بدت وكأنها فهمتها؛ فجرى حوار لعب فيه السادة الذين لا يدركون الدور الرئيسي. أما لوسي التي لم تدرك أيضاً، فقد ألجئت إلى الأدب. تناولت كتاب "الدليل إلى الشمال الإيطالي" لبايدكر[1]، والتزمت بحفظ أهم التواريخ في تاريخ فلورنسه، فقد كانت مصممة على إمتاع نفسها في صباح اليوم التالي.

---

(1) كارل بايديكر: ناشر ألماني اشتهر بطبع الكتب الخاصة بالسياحة. المترجم.

وهكذا مرّت النصف ساعة ببطء إنما على نحو مفيد، وأخيراً نهضت الآنسة بارتلت مع تنهيدة، وقالت:

"أعتقد أنه يمكن لي أن أغامر الآن. كلا يا لوسي، لا تتحركي. سأشرف أنا على الانتقال".

قالت لوسي: "هذا دأبك أن تفعلي كل شيء".

"طبعاً يا عزيزتي. هذا شأني".

"ولكني أود مساعدتك".

"كلا يا عزيزتي".

هكذا هي حيوية شارلوت! وغيريتها! وقد كانت على هذه الشاكلة طوال حياتها، ولكنها كانت تتجاوز بالفعل قدراتها في هذه الجولة السياحية في إيطاليا. هكذا شعرت لوسي أو جهدت لتشعر بذلك. ومع ذلك... كانت فيها روح متمردة راحت تتساءل ما إذا كان من شأن ذلك القبول أن يكون أكثر رهافة وأكثر جمالاً. على أي حال، فقد دخلت غرفتها دون أي شعور بالسرور.

قالت الآنسة بارتلت: "أريد أن أشرح السبب في أن أخذت الغرفة الأكبر. من الطبيعي من غير ريب أن أعطيك إياها، ولكن حدث أني عرفت أنها كانت للشاب، وكنت متأكدة من أن أمك ما كانت لتحبّ ذلك".

ذهلت لوسي.

"إن كنت ستقبلين بمنّة ما، فالأجدر أن تحمليها تجاه أبيه وليس تجاهه هو. أنا امرأة عركتها الحياة، بأسلوبي الصغير، وأعرف إلى أين تسير الأمور. وعلى أي حال، فالسيد بيب كفيل نوعاً ما على أنهما لن يستغلا هذا الأمر".

قالت لوسي: "أمي ما كانت لتكترث، وأنا على ثقة من ذلك". ولكنها أحست بوجود قضايا أهم لم تكن في الحسبان.

تنهدت الآنسة بارتلت فحسب، ثم ضمتها في عناق حمائي وهي تتمنى لها ليلة طيبة. وقد أحست لوسي بوجود شيء غامض، وحين وصلت إلى غرفتها، فتحت النافذة وتنفست الهواء الليلي الصافي، وهي تفكر بالرجل العجوز اللطيف الذي مكنها من أن ترى الأنوار وهي تتراقص على نهر الأرنو وأشجار السرو في شارع سان مينياتو، وسفوح جبال الأبينين، سوداء أمام القمر البازغ.

أما الآنسة بارتلت في غرفتها فقد أحكمت إغلاق مصاريع النافذة وأقفلت الباب ثم جالت في الشقة لترى إلى أين تؤدي الخزانة وما إذا كانت هناك أي أجباب أو مداخل سرية. وعندها شاهدت صفحة من الورق ملصقة على المغسلة، وقد رسمت عليها علامة استفهام ضخمة. ولا شيء آخر.

فكرت: "ما معنى هذا؟" ثم فحصتها بعناية على نور الشمعة. في البداية بدت دون معنى، ثم أصبحت تحمل تهديداً ما، بغيضة، ومنذرة بالشر. تملكها دافع بأن تمزقها، ولكن لحسن الحظ تذكرت أنه لا يحق لها ذلك، فلا بد أنها ملكٌ للسيد إمرسون الشاب. لذلك، فكّتها بعناية ووضعتها بين ورقتي نشاف لتحافظ عليها نظيفة من أجله. ثم أكملت تفتيشها للغرفة، وتنهدت بتثاقل وفقاً لعادتها، ومضت إلى الفراش.

* * *

الفصل [2]

# في سانتا كروتشه بدون بايدكر

كان الاستيقاظ في فلورنسه أمراً يبعث السرور في النفس، فأن تفتح عينيك على غرفة فارغة ونيّرة بأرضية من البلاط الأحمر تبدو نظيفة رغم أنها ليست كذلك: وبسقف مطلي برسوم لحيوانات خرافية نصفها عقاب ونصفها أسد بلون قرنفلي وأدوات من ماركة أرومينى الرياضية الزرقاء في غابة من آلات الكمان والمزامير. كما كان أمراً يدعو إلى السرور أيضاً أن تفتح النوافذ على اتساعها وأن توجع أصابعك بمرابطها غير المألوفة، وأن تطلّ منها في نور الشمس على جبال وأشجار وكنائس جميلة مقابلك؛ وإلى الأسفل مباشرة نهر الأرنو وهو يقرقر على جسر الطريق.

بعد النهر كان رجال يعملون بمجارف ومناخل على الشاطئ الأمامي الرملي، وكان على النهر زورق، وهو يستخدم أيضاً بكدّ واجتهاد، لغرض مجهول. مرّ ترام كهربائي مندفعاً من تحت النافذة. لم يكن فيه أحد، باستثناء سائح واحد، ولكن أرصفته كانت تطفح بالإيطاليين الذين يفضلون الوقوف. حاول أطفال التعلق من الخلف، ولكن الجابي، دون نية شريرة، كان يبصق في وجوههم حتى يرحلوا. ثم ظهر جنود ـ رجال وسيمون وضئيلو القامات ـ يحمل كل واحد منهم حقيبة ظهر مغطاة بفرو رثّ، ويرتدي معطفاً خيط في الأصل لجندي أكبر حجماً. إلى جانبهم كان يسير الضباط، وهم يبدون حمقى وشرسين، وأمامهم كان يسير صبيان صغار وهم يتشقلبون في وقت واحد مع عزف موسيقى الفرقة. علق الترام بين صفوف الجند،

فراح يتحرك نحو الأمام متألماً، وكأنه يسروعة ضمن حشد من النمل. سقط أحد الصبية الصغار أرضاً، وخرجت بعض العجول البيضاء من تحت قوس. وبالفعل، لولا النصيحة الطيبة من رجل عجوز كان يبيع خطافات الأزرار، لبقي الطريق مشغولاً.

قد تمرّ ساعة ثمينة من الزمن عبثاً على مثل هذه التفاهات المشابهة، والمسافر قد يذهب إلى إيطاليا لدراسة القيم التي تكاد تكون ثلاثية الأبعاد لرسوم جوتو[1]، أو فساد البابوية، وقد يعود وهو لا يتذكر أي شيء سوى السماء الزرقاء والرجال والنساء الذين يعيشون تحتها. لذا كان أمراً جيداً أيضاً أن تقرع الآنسة بارتلت الباب وتدخل، وبعد أن علّقت على ترك لوسي للباب غير مقفل وعلى أنها أطلّت من النافذة قبل أن ترتدي كامل ملابسها، فقد حثّتها على الإسراع أو أنهما ستفوتان أفضل شيء في اليوم كله. حين أصبحت لوسي جاهزة، كان قد سبق لابنة عم أمها أن تناولت وجبة الإفطار، وكانت تصغي إلى السيدة الذكية بين كسرات الخبز.

ثم انتهى الأمر بحوار ليس خارج الخطوط غير المألوفة، فقد كانت الآنسة بارتلت ـ على أي حال ـ متعبة قليلاً، وفكرت في أنه يجدر بهما أن تنفقا الصباح بترتيب أمورهما؛ ما لم تكن لوسي تود الخروج حتماً؟ تفضل لوسي الخروج حيث أن هذا كان يومها الأول في فلورنسه، ولكن يمكنها طبعاً أن تذهب لوحدها. ما كانت الآنسة بارتلت لتسمح بهذا. بالطبع سترافق لوسي أنى ذهبت. أوه، بالتأكيد لا. ستتوقف لوسي مع ابنة عم أمها. أو، كلا! لا يمكن لهذا أن ينفع! أوه، أجل!

في هذه اللحظة، تدخلت السيدة الذكية.

---

(1) جوتو: رسام إيطالي (1270-1337). المترجم.

"إن كانت السيدة غروندي هي التي تسبب لكما المشاكل، فأنا أؤكد لكما أنكما يمكن أن تهملا تلك المرأة الطيبة. فبما أن الآنسة هنيتشيرتش إنكليزية، فهي ستكون في أمان كامل. الإيطاليون يفهمون. هناك صديقة عزيزة عليّ، الكونتيسة بارونتشيلي، لديها ابنتان، وحين لا تستطيع أن ترسل خادمة إلى المدرسة لمرافقتهما، فهي تسمح لهما بالذهاب وهما ترتديان قبعة بحار بدلاً عن ذلك. سيظن الجميع أنهما إنكليزيتان، كما تريان، خاصة إن كان شعرهما مشدوداً بإحكام إلى الخلف".

لم تقتنع الآنسة بارتلت بسلامة ابنتي الكونتيسة بارونتشيلي. كانت مصممة على اصطحاب لوسي، فرأسها لا يؤلمها كثيراً. عندها قالت السيدة الذكية إنها ستنفق صباحاً أطول في سانتا كروتشه، وإذا أتت لوسي أيضاً ستكون مسرورة.

"سأصطحبك عبر درب خلفي قذر وعزيز، يا آنسة هنيتيرتش، وإذا جلبتِ لي الحظ، فسنقوم بمغامرة".

قالت لوسي إن هذا في منتهى اللطف، وفتحت على الفور كتاب بايدكر لترى أين تقع سانتا كروتشه.

"كلا، كلا، يا آنسة لوسي! آمل أننا سرعان ما سنحررك من بيدكر. إنه لا يلمس إلا سطح الأشياء فحسب. أما إيطاليا الحقيقية فلا يمكن إيجادها إلا بالمراقبة المترعة بالصبر".

بدا هذا مثيراً جداً للاهتمام، وأسرعت لوسي في تناول إفطارها، وانطلقت مع صديقتها الجديدة بروح معنوية عالية. هاهي إيطاليا تأتي أخيراً. لقد اختفت السنيورة ولكنتها الكوكني كحلم بائس.

كانت الآنسة لاڤيش ـ فهذا هو اسم السيدة الذكية ـ قد التفّت إلى اليمين على امتداد نهر الأرنو المشمس. لكم كان الطقس دافئاً وممتعاً! ولكن كانت هناك ريح حادة على امتداد الشوارع الجانبية

تقطع كالسكين، أليس كذلك؟ جسر "بونته ألّه غراتسي" مثير للاهتمام على نحو خاص وقد ذكره دانتي. قرية "سان ميناياتو"... جميلة ومثيرة للاهتمام بالقدر نفسه. الصليب الذي قبّل قاتلاً ... كانت الآنسة هنيتشيرتش تتذكر الحكاية. الرجال الذين على النهر كانوا يصطادون السمك. (هذا غير صحيح، ولكن هكذا تقول أكثر الأخبار). ثم انطلقت الآنسة لاڤيش لتمرّ من تحت قوس العجول البيضاء، وتوقفت، وصاحت:

"رائحة! رائحة فلورنسية حقيقية! لكل مدينة رائحتها كما أود أن أقول لك".

قالت لوسي التي ورثت عن أمها كرهاً للقذارة: "هل هي رائحة طيبة؟".

كان الجواب: "لا يأتي المرء إلى إيطاليا من أجل الأشياء النيّقة، بل يأتي من أجل الحياة. "بوون جيورنو! [صباح الخير] بوون جيورنو"! وهي تنحني يميناً ويساراً. "انظري إلى عربة النبيذ الفاتنة تلك! كيف يحدق السائق إلينا يا عزيزتي، روح بسيطة"!

هكذا تقدمت الآنسة لاڤيش عبر شوارع مدينة فلورنسه، قصيرة ومتململة ولعوب كهُريرة، وإن فاتها التمتع برشاقة الهريرة. كانت تلك متعة للفتاة أن تحظى برفيقة شديدة الذكاء والمرح؛ وبعباءة عسكرية زرقاء، كالتي يرتديها الضباط الطليان، مما جعل جو الاحتفالية يزداد أكثر.

"بوون جيورنو! خذي كلمة امرأة عجوز يا آنسة لوسي. لن تندمي على القليل من اللباقة تجاه من هم أدنى منك مرتبة. هذه هي الديمقراطية الحقيقية. ورغم أني راديكالية بالفعل أيضاً. حسناً، والآن لا بدّ أنك مصدومة".

صاحت لوسي: "بالفعل لستُ كذلك. نحن راديكاليون أيضاً وحقيقيون جداً. كان أبي يصوّت دائماً لصالح غلادستون، حتى تصرف بتلك الطريقة الرهيبة تجاه مسألة أيرلندا".

"فهمت ذلك. فهمته. والآن أصبحتم في صفوف العدو".

"أوه، من فضلك...! لو كان أبي حياً فأنا واثقة من أنه سيصوت للراديكاليين مجدداً بعد أن حُلت مشكلة أيرلندا. وعلى أي حال، فإن الزجاج فوق بابنا الأمامي قد كُسر في الانتخابات الأخيرة، وكان فريدي واثقاً من أن (المحافظين) هم من كسروه. ولكن أمي تقول إن هذا هراء، فقد كسره رجل مشرد".

"يا له من أمر معيب! أهي منطقة صناعية على ما أفترض؟".

"كلا ... في تلال سَري[1]. حوالي خمسة أميال من دوركينغ، وتطل على الويلد[2]".

بدت الآنسة لافيش مهتمة وأبطأت في سيرها.

"يا له من حيّ مبهج؛ أعرفه جيداً جداً. إنه مليء بألطف الناس. هل تعرفين السير هاري أوتواي... وهو راديكالي جداً؟".

"أعرفه جيداً جداً وبالفعل".

"والسيدة بترويرث العجوز، المحبة للإنسانية والخيرة؟".

"عجباً، إنها تستأجر حقلاً يخصنا! لكم هذا مثير للضحك"!

نظرت الآنسة لافيش إلى الشريط الضيق للسماء وهمهمت:

"أوه، لديكم عقارات في سَري؟".

---

(1) سَري: مقاطعة في الجنوب الشرقي من إنكلترا. المترجم.

(2) ويلد: مقاطعة في الجنوب الشرقي من إنكلترا. المترجم.

قالت لوسي التي خشيت من أن تُعتبر متكبّرة: "لا شيء يستحق الذكر. مجرد ثلاثين أكراً ... وكلها عبارة عن حديقة، وكلها باتجاه سفح التلة، وبعض الحقول".

لم تشعر الآنسة لاڤيش بالاشمئزاز وقالت إن هذا هو بحجم ضيعة خالتها في سافولك. كانت إيطاليا قد تراجعت. حاولتا تذكر كنية الليدي لويزا ... التي كانت قد اشترت منزلاً قرب شارع سمر في العام الماضي، ولكنها لم تحبه وكان هذا أمراً غريباً منها. وعندما تذكرت الآنسة لاڤيش الاسم قطعت الحوار وصاحت:

"فليباركنا الله! فيباركنا وينقذنا! لقد أضعنا الطريق".

لا شك أنهما قد أنفقتا الكثير من الوقت في الوصول إلى كنيسة سانتا كروتشه، التي كان برجها مرئياً بوضوح من نافذة سُلّم النُزل. ولكن الآنسة لاڤيش كانت قد قالت الكثير حول معرفتها بفلورنسه عن ظهر قلب حتى تبعتها لوسي دون أن تشعر بأي ريبة.

"لقد ضعنا! لقد ضعنا! يا عزيزتي الآنسة لوسي، خلال هجومنا السياسي اللاذع، التففنا في اتجاه خاطئ. لكم سيضحك علينا أولئك المحافظون الرهيبون! ما الذي سنفعله؟ أنثيان وحيدتان في مدينة مجهولة. والآن، هذا ما أسميه بالمغامرة".

اقترحت لوسي التي أرادت أن ترى سانتا كروتشه، كحل ممكن، أن تسألا عن الطريق إليها.

"أوه، ولكن هذه كلام شخص جبان! وكلا، أنت لن، ولن ولن تنظري في كتاب بايدكر. أعطني إياه. لن أدعك تحملينه. ما سنفعله ببساطة هو أن نسير بلا هدف".

وهكذا تجولتا دون هدف عبر سلسلة من تلك الشوارع البنية ـ الرمادية اللون التي لا هي ملائمة ولا ذات منظر جميل، والتي

تكثر في القسم الشرقي من المدينة. سرعان ما فقدت لوسي اهتمامها باستياء الليدي لويزا، وأصبحت مستاءة هي أيضاً. وللحظة فاتنة عادت إيطاليا إلى الظهور مجدداً. وقفت في ساحة أنونتسياتا وشاهدت في الطين النضيج الأحمر الذي تصنع منه التماثيل أولئك الأطفال المقدسين الذين لا يمكن لأي نسخة مقلَّدة منهم أن تفقدهم روعتهم. كانوا يقفون هناك، بأوصالهم اللامعة يبرزون للعيان من ثياب الإحسان وأذرعتهم البيضاء القوية ممتدة أمام دوائر السماء. فكرت لوسي في أنه لم يسبق لها أن رأت ما هو أجمل من هذا؛ ولكن الآنسة لاڤيش جرّتها إلى الأمام بصرخة رعب وهي تصرح بأنهما أصبحتا بعيدتين عن طريقهما الصحيح مسافة ميل على الأقل.

كان موعد الإفطار القارّي قد اقترب، أو انتهى، واشترت السيدتان فطيرتي كستناء ساخنتين من دكان صغير، لأن الفطيرة بدت نموذجية جداً. ولكن مذاقها كان فيه شيء من مذاق الورق الذي لفّت به وشيء من مذاق زيت الشَعر، وشيء من المجهول العظيم. ولكنها منحتهما القوة للانطلاق نحو ساحة عامة أخرى، كبيرة ومغبرة، والتي برزت من جانبها الأبعد واجهة سوداء وبيضاء قبيحة على نحو يفوق الحدّ. تحدثت الآنسة لاڤيش عنها باستثارة. كانت تلك هي سانتا كروتشه. لقد انتهت المغامرة.

"توقفي لبرهة. دعي هذين الشخصين يمران، أو أني سأحادثهما. أكره حقاً الحديث التقليدي. كريهان! سيدخلان إلى الكنيسة هما أيضاً. أوه، يا للبريطانيين خارج الوطن"!

"لقد جلسنا مقابلهما خلال وجبة العشاء في الليلة الماضية. وقد منحانا غرفتيهما. كانا لطيفين جداً".

ضحكت الآنسة لافيش قائلة: "انظري إلى شكليهما! إنهما يمشيان عبر إيطاليا كزوج من البقر. أنا سيئة السلوك جداً، ولكني أتمنى أن أنظم امتحاناً على الورق في ميناء دوفر، وأن أرفض مغادرة كل سائح لا يستطيع النجاح في الامتحان".

"ما الذي ستسألينا عنه؟".

وضعت الآنسة لافيش يديها بلطف على ذراع لوسي، كأنما لتقترح أنها ستنال العلامة الكاملة في كل الأحوال. بهذا المزاج المستثار وصلتا إلى درج الكنيسة العظيمة، وكانتا على وشك الدخول حين صاءت الآنسة لافيش ورفعت ذراعيها عالياً وصاحت:

"هاهو مرجعي الخاص باللغة والعادات المحلية! عليّ أن أكلمه"!

وخلال لحظة كانت قد قطعت الساحة وعباءتها العسكرية تخفق مع الريح، ولم تخفف السرعة حتى لحقت برجل عجوز ذي لحية بيضاء وقرصته من ذراعه مازحة.

انتظرت لوسي حوالي العشر دقائق. ثم بدأت تشعر بالتعب. راح الشحاذون يزعجونها، ودخل الغبار عينيها، وتذكرت أنه على الفتاة الشابة ألا تتسكع في الأماكن العامة. نزلت إلى الساحة العامة بقصد الانضمام ثانية إلى الآنسة لافيش التي كانت أصيلة جداً تقريباً. ولكن حدث في تلك اللحظة أن الآنسة لافيش ومرجعها بالعادات المحلية تحركا أيضاً واختفيا في شارع خلفي، وهما يقومان بإيماءات كبيرة بأيديهما.

اندفعت دموع السخط إلى عيني لوسي... وذلك إلى حد ما بسبب نبذها من قبل الآنسة لافيش، وأيضاً بسبب أنها أخذت منها كتاب بايدكر. كيف ستجد طريقها في سانتا كروتشه؟ لقد فسد أول أيامها في فلورنسه وربما لن تعود إليها مرة أخرى. قبل دقائق قليلة كانت تتحلى

بروح معنوية عالية وتتكلم كامرأة مثقفة، وتكاد تقنع نفسها بأنها مترعة بالأصالة. والآن هاهي تدخل إلى الكنيسة وهي تشعر بالكآبة والخزي، وهي ما عادت تتذكر إن كانت الفرنسيسكانيون أم الدومينيكانيون هم من بنوا الكنيسة.

طبعاً، لا بدّ وأنه بناء رائع. ولكنه أشبه بحظيرة! وكم هو بارد! طبعاً كان يضم في أرجائه رسوماً جصية لجوتو، وهي التي كانت قادرة، أمام قيمه اللمسية بأن تشعر بما هو متميّز. ولكن من سيخبرها أين هي؟ راحت تتجول في المكان بازدراء، دون رغبة في أن تشعر بالحماسة تجاه أعمال لم تكن نسبتها إلى الفنانين الذي أبدعوها أكيدة وكذلك تاريخها. لم يكن هناك حتى أي شخص لينبئها أي واحد من تلك الألواح الجنائزية التي كانت تبلّط صحن الكنيسة هو الجميل حقاً، أي ذاك الذي مدحه السيد رسكين[1] بقوة.

ثم عملت الفتنة القاتلة لإيطاليا عملها في لوسي. وبدلاً عن اكتساب المعلومات، بدأت تشعر بأنها سعيدة. حاولت بجهد أن تفك رموز اللافتات الإيطالية ـ اللافتة التي تمنع الناس من إدخال الكلاب إلى الكنيسة ـ واللافتة التي رجت الناس، من أجل الدواعي الصحية، واحتراماً للصرح المقدس الذي يجدون أنفسهم فيه، ألا يبصقوا. راقبت السياح؛ كانت أنوفهم حمراء بلون غلاف كتب بايديكر التي يحملونها. كانت سانتا كروتشه باردة جداً. ثم شاهدت المصير الرهيب الذي حلّ بثلاثة بابويين (كاثوليكيين): طفلان من الذكور وطفلة أنثى بدؤوا سيرتهم في هذا المجال بأن غمر الواحد منهم الآخر بـ "الماء المقدس"، ثم انطلقوا نحو النصب التذكاري لميكيافيلّي، والماء ينقط منهم، إنما وقد تقدّسوا. ساروا باتجاهه ببطء شديد ومن مسافات

---

(1) رسكين: شاعر وناقد فني إنكليزي (1819-1900). المترجم.

بعيدة، فلمسوا الحجر بأصابعهم، وبمناديلهم، وبرؤوسهم، ثم تراجعوا. ما كان مغزى ذلك؟ ثم كرروا هذا العمل مرات ومرات. عندها أدركت لوسي أنهم ظنوا خطأ بأن ميكيافيلي هو أحد القديسين، وبالاحتكاك المتواصل بنصبه التذكاري فقد كانوا يأملون في اكتساب الفضيلة. وجاءهم العقاب سريعاً. تعثر الطفل الذكر الأصغر سناً فوق أحد الألواح الجنائزية التي أُعجب بها كثيراً السيد رسكين، وعلقت قدمه بملامح وجه الأسقف الهاجع. وكونها بروتستانتية حقاً، فإن لوسي اندفعت إلى الأمام بسرعة لإنقاذه إلا أنها تأخرت. لقد سقط الطفل بقوة فوق أصابع قدمي الأسقف المنتصبة نحو الأعلى.

"يا للأسقف البغيض"! هكذا صاح السيد إمرسون العجوز، الذي كان قد اندفع أيضاً إلى الأمام. "قاسي القلب في حياته وقاسي القلب في موته. اخرج إلى الشمس، أيها الصبي الصغير، وقبّل يدك باتجاه الشمس، فهناك يجب أن تكون. يا له من أسقف متعصّب"!

صرخ الطفل بجنون لدى سماعه هذه الكلمات وباتجاه هؤلاء الأشخاص الرهيبين الذين حملوه ونفضوا عنه الغبار وفركوا له رضوضه وقالوا له إن عليه ألا يكون مؤمناً بالخرافات.

قال السيد إمرسون للوسي: "انظري إليه! هاهي ورطة أمامنا: طفل مصاب وبردان وخائف! ولكن ما الذي يمكنك توقعه من كنيسة غير هذا؟".

أصبحت ساقا الطفل أشبه بشمع ذائب. كلما حاول السيد إمرسون ولوسي أن يجعلا ساقيه تنتصبان كانتا تنهاران مع الصراخ. ولحسن الحظ فإن سيدة إيطالية، كانت تؤدي صلاتها، جاءت لنجدتهم. وبفضيلة غامضة ما، لا يتمتع بها سوى الأمهات، فقد جعلت العمود الفقري للطفل الصغير يتقسّى وبثت القوة في ركبتيه. وقف على قدميه، وهو ما يزال يبربر من الاستثارة، وسار مبتعداً.

قال السيد إمرسون: "أنت امرأة ماهرة. لقد أنجزت أكثر مما أنجزت جميع الآثار المقدسة في العالم. لا أنتمي إلى عقيدتك، ولكني أؤمن حقاً بأولئك الذين يدخلون السعادة إلى قلوب الناس. لا يوجد نظام في الكون.."..

توقف عن الكلام لدقيقة.

قالت السيدة الإيطالية: "لا شيء". ثم عادت إلى صلاتها.

اقترحت لوسي: "لا أظن أنها تفهم الإنكليزية".

في مزاجها الذي شعرت معه أنها معاقبة، فهي لم تعد تشعر بالازدراء تجاه السيدين إمرسون. كانت مصممة على أن تكون لبقة معهما، وجميلة وليست رقيقة بالأحرى، وأن تمحو إن أمكن تهذيب الآنسة بارتلت بأن تشير بلطف إلى أن الغرفتين كانتا جيدتين.

كان جواب السيد إمرسون هو: "تلك المرأة تفهم كل شيء. ولكن ما الذي تفعلينه هنا؟ هل تزورين هذه الكنيسة؟ هل انتهيت من زيارتها؟".

صاحت لوسي وهي تتذكر الظلم الواقع بها: "كلا. لقد جئت إلى هنا مع الآنسة لاڤيش، وهي التي كانت تشرح كل شيء. وعند الباب تماماً ـ هذا أمر سيئ جداً ـ هربت هي بكل بساطة. وبعد أن انتظرتها لفترة طويلة، كان عليّ أن أدخل وحدي".

قال السيد إمرسون: "ولم لا؟".

قال الابن وهو يخاطب السيدة الشابة لأول مرة: "أجل، لم لا تدخلين وحدك؟".

"ولكن الآنسة لاڤيش أخذت مني حتى كتاب بايدكر".

قال السيد إمرسون: "بايدكر؟ أنا سعيد أنك تكترثين ببايدكر، بفقدان بايديكر. هذا شيء يستحق الاهتمام".

أصيبت لوسي بالحيرة. ومن جديد أدركت فكرة جديدة ما، ولم تكن واثقة إن كانت ستفيدها.

قال الابن: "إن لم يكن لديك بايدكر، فالأجدر بك أن تنضمي إلينا".

"شكراً جزيلاً جداً، ولكني لا أستطيع التفكير في هذا. آمل ألا تظنّا أني جئت إلى هنا لأنضم إليكما. لقد جئت لمساعدة الطفل، ولأشكركما أيضاً على منحنا غرفتيكما في الليلة الماضية بكل كرم ولطف. آمل ألا تكونا قد واجهتما أي انزعاج".

قال الرجل العجوز بلطف: "يا عزيزتي، أعتقد أنك تكررين ما قد سمعتِ الأشخاص الأكبر سناً يقولونه. أنت تتظاهرين بأنك حساسة جداً، ولكنك لست كذلك في الواقع. توقفي عن أن تكوني باعثة على التعب والملل. وبدلاً عن ذلك أن تحكي لي ما هو الجزء من الكنيسة الذي تريدين أن تريه. وإن اصطحابك إليه سيكون مدعاة لسرور عظيم".

حسناً، كان هذا وقحاً إلى حد بغيض، وكان ينبغي عليها أن تتصرف بغضب شديد. ولكن من الصعب أحياناً أن يفقد المرء أعصابه كما قد يكون من الصعب أحياناً ألاّ يفقدها. لم تستطع لوسي أن تصاب بالغضب. كان السيد إمرسون عجوزاً، ولا شك أن على فتاة شابة أن تتصرف بلباقة مع شخص مثله. ومن ناحية أخرى، كان ابنه شاباً، وأحست أن على الفتاة أن تشعر بالإهانة لو صدرت عنه، أو في كل الأحوال أن تشعر بالإهانة قبل أن يشعر هو بها. وقد حدقت إليه هو قبل أن تجيب.

"لست شديدة الحساسية على ما آمل. ما أريد أن أراه هو أعمال جوتو، لو تلطفت وقلت لي أين أجدها".

أومأ الابن برأسه. وقاد الطريق بمظهر يدل على الرضا الرزين نحو "مصلّى بيروتسي". كانت تبدو عليه سيماء المدرس. أحست كأنها طفلة في المدرسة أجابت على السؤال على النحو الصحيح.

كان قد سبق للمصلى وامتلأ بالمصلين الورعين، وعلا من بينهم صوت المحاضِر الذي يوجههم فيما يخص كيفية تعبّد جوتو، ليس بالتقييم اللمسي فحسب، بل بمعايير الروح.

كان يقول: "تذكروا الحقائق حول كنيسة سانتا كروتشه هذه. كيف شُيدت بالإيمان الذي كان في أقصى درجات العصور الوسطى حماسة دينية، وقبل أن تظهر أي وصمة من وصمات عصر النهضة. لاحظوا كيف أن جوتو في أعماله الجصية ـ والتي فسدت الآن ويا للأسى ـ بترميمها، لا تكترث بأشراك التشريح والمنظور. هل يمكن لأي شيء أن يكون أكثر جلالاً ومثيراً للحزن وجميلاً وصادقاً؟ لكم هو قليل ما تستفيده المعرفة من المهارة التقنية من رجل يحسّ بصدق"!

صاح السيد إمرسون بصوت عال جداً لا يتناسب مع وجوده في كنيسة: "كلا! لا تتذكّروا أي كلام من هذا النوع! شُيّدت بالإيمان حقاً! هذا يعني ببساطة أن العمال لم يتلقوا أجورهم على النحو الصحيح. أما يخص اللوحات الجصية، فأنا لا أرى فيها أي صدق! انظروا إلى ذاك الرجل البدين في ثيابه الزرقاء! لا بدّ أن وزنه في مثل وزني، ولكنه يطير في السماء كبالون مترع بالهواء"!

كان يشير إلى اللوحة الجصية المسماة "صعود القديس يوحنا". في الداخل، تلعثم صوت المحاضر كما هو متوقع. تململ الحضور بقلق، وكذلك فعلت لوسي. كانت على ثقة من أن عليها ألا تكون في صحبة هذين الرجلين ولكنهما كانا قد سبق وألقيا بسحرهما عليها. كانا في منتهى الجدية والغرابة حتى أنها لم تستطع أن تتذكر كيف تتصرف.

"هيا، هل حصل ذلك أو لم يحصل؟ نعم أم لا؟".

أجاب جورج: "لقد حصل على هذا النحو، هذا إن كان قد حصل فعلاً. أنا أفضل بالأحرى أن أصعد إلى السماء بنفسي لا أن يتم دفعي من قبل الملائكة الصغار. ولو وصلت إلى هناك، لأحببت أن يطلّ أصدقائي منها، كما يحدث هنا (في هذه اللوحات)".

قال أبوه: "لن تصعد إلى هناك أبداً. أنت وأنا يا ابني العزيز سنضطجع في سلام في الأرض التي حملتنا، وسوف تختفي أسماؤنا وتبقى أعمالنا وهذا أكيد".

"لا يمكن لبعض الناس إلاّ أن يروا القبر الفارغ، وليس القديس، كائناً من كان صاعداً إلى السماء. لقد حدث ذلك فعلاً، هذا إن كان قد حدث على الإطلاق".

قال صوت بارد: "عفواً، المصلى أصغر من أن يتسع لمجموعتين من الأشخاص. لم يعد ممكناً لنا أن نزعجكم أكثر من ذلك".

كان المحاضر قسيساً، ولا بدّ أن جمهوره هم من رعيته، فقد كانوا يحملون كتب الصلاة وكتب الدليل في أيديهم. خرجوا من المصلى في رتل واحد وفي صمت، ومن بينهم كانت السيدتان العجوزان من بنسيون برتوليني: الآنسة تيريزا والآنسة كاثرين آلان.

صاح السيد إمرسون: "توقفوا! هناك حيز كاف لنا جميعاً. توقفوا"!

اختفى الموكب دون كلمة واحدة. سرعان ما سُمع صوت المحاضر من المصلى التالي، وهو يصف حياة القديس فرنسيس.

"جورج، أعتقد حقاً أن ذلك القسيس هو راعي أبرشية بريكستون".

دخل جورج إلى المصلى التالي ثم عاد وهو يقول: "ربما يكون هو. لا أستطيع التذكر".

"إذاً، يجدر بي أن أحادثه وأذكّره بنفسي. إن اسمه هو السيد إيغر. لم رحل؟ هل تكلمنا بصوت مرتفع جداً؟ لكم هذا مغيظ! سأذهب وأقول له إننا آسفون. ألا يجدر بي ذلك؟ عندها قد يعود إلى هنا على الأرجح".

قال جورج: "لن يعود".

ولكن السيد إمرسون، النادم والبائس، هرع ليعتذر للقسيس كثبرت إيغر. أما لوسي، التي كانت منهمكة في تأمّل وعاء للمناولة، فقد تمكنت من سماع المحاضرة وهي تُقاطع مجدداً، وصوت الرجل العجوز القلق والعدواني، والردود الجافة المقتضبة والمستاءة لخصمه. أما الابن الذي كان يعامل كل حدث صغير مؤسف على أنه مأساة، فقد كان يصغي أيضاً.

أنبأها قائلاً: "لدى أبي هذا التأثير على كل شخص تقريباً. سيحاول أن يكون ودّياً".

قالت وهي تبتسم بعصبية: "آمل أن نحاول جميعنا ذلك".

"لأننا نظن أنه يحسّن شخصياتنا. ولكنه ودّي مع الناس لأنه يحبهم، وهم يكتشفونه، ويشعرون بالاستياء، أو بالخوف".

قالت لوسي على الرغم من أنها كانت متعاطفة في قلبها: "لكم هذا تصرف أحمق من قبلهم. أعتقد أنه عمل طيب يتم بلباقة.."..

"لباقة"!

رفع رأسه باستياء. من الواضح أنها أعطت الردّ الخطأ. راقبت هذا المخلوق الفريد وهو يذرع المصلى جيئة وذهاباً. بالنسبة إلى شاب في مقتبل العمر، كان وجهه صارماً وقاسياً حين تسقط الظلال عليه. تحت الظلال، كان وجهه ينطق فجأة بالرقة. شاهدته مرة أخرى في

روما، على سقف "مصلّى السيستين"[1]، وهو يرفع حِملاً من جوز البلوط. ورغم أنه موفور الصحة وعضلاته بارزة، إلا أنه كان يوحي لها بإحساس من الرمادية، بمأساة لا يمكن أن تجد حلاً في الليل. سرعان ما تلاشى هذا الإحساس؛ لم يكن من عادتها أن تفكر بشيء دقيق إلى هذا الحد. وبما أن هذا الإحساس وُلد من صمت ومن عاطفة مجهولة، فقد تلاشى حين عاد السيد إمرسون، واستطاعت أن تدخل مجدداً إلى عالم الحديث السريع، الذي كان مألوفاً لديها هو وحده.

سأله ابنه بهدوء: "هل زجروك؟".

"ولكننا أفسدنا متعة أناس كثيرين لا أعرف كم عددهم. لن يعودوا".

"... مترع بالتعاطف الفطري... سرعة في إدراك الطيبة في الآخرين... رؤية الأخوّة في الإنسان..". شذرات من المحاضرة حول القديس فرنسيس كانت تأتي وهي تطفو من حول الجدار الفاصل.

قال للوسي: "دعينا لا نفسد يومك أنت أيضاً. هل رأيت قبور أولئك القديسين؟".

قالت لوسي: "أجل. إنها رائعة. هل تعرف أي واحد منها هو الذي أطراه رسكين؟".

لم يكن يعرف، واقترح أن يحاولوا حزر ذلك. ولكن جورج، وكان في ذلك مدعاة لشعورها بالراحة، رفض أن يتحرك، وراحت هي والرجل العجوز يتجولان ليس دون استمتاع في أرجاء سانتا كروتشه، التي على الرغم من أنها كانت أشبه بحظيرة، إلا أنها تضم الكثير من الأشياء الجميلة بين جدرانها. كما كان فيها شحاذون يتوجب تجنبهم، ودلاّلون يتوجب تفاديهم والهروب منهم خلف

---

(1) مصلى في الفاتيكان خاص بالبابا. المترجم.

الأعمدة، وسيدة عجوز مع كلبها، وقسيس يشق طريقه بتواضع نحو قدّاسه عبر مجموعة من السياح. ولكن السيد إمرسون لم يكن يبذل سوى نصف اهتمام. كان يراقب المحاضِر الذي كان يعتقد أنه أفسد نجاحه، ثم راح يراقب ابنه بقلق.

قال بلهجة مرتبكة: "لماذا ينظر إلى تلك اللوحة الجصية؟ لم أرَ فيها أي شيء؟".

أجابت: "أحب عمل جوتو. إنه لأمر رائع ما يقال عن قيم أعماله اللمسية. هذا على الرغم من أني أحب إلى حد أكبر تلك الأشياء مثل أطفال ديلا روبيا"[1]".

"عليك أن تفعلي ذلك، فالطفل يساوي دزينة من القديسين. كما أن طفلي يساوي الفردوس كله، ولكن ما أراه هو أنه يعيش في الجحيم".

شعرت لوسي مجدداً بأن هذا كلام غريب.

كرر هو القول: "في الجحيم. إنه حزين".

قالت لوسي: "أوه، يا إلهي"!

"كيف يمكنه أن يكون حزيناً وهو قويّ وحيّ؟ ما الذي يمكن للمرء أن يعطيه أكثر من ذلك؟ وفكّري بالطريقة التي تربى بها... حراً من كل الخرافة والجهل اللذين يؤديان بالناس إلى أن يكرهوا واحدهم الآخر باسم الرب. وبتثقيف كهذا ظننت أنه سيكبر ليصبح من السعداء".

لم تكن هي عالمة باللاهوت إطلاقاً، ولكنها أحست أن هذا رجل شديد الحمق، ومارق إلى حد كبير. كما شعرت أن أمها قد لا تحب أن تراها تحاور شخصاً كهذا، وأن شارلوت تلك ستعترض على نحو أقوى.

---

(1) ديلا روبيا: نحات فلورنسي (1400-1482). المترجم.

سألها: "ما الذي علينا فعله من أجله؟ هو يأتي إلى إيطاليا في عطلته ويتصرف على هذه الشاكلة، كالطفل الصغير الذي يجب أن يلعب والذي يؤذي نفسه فيتعثر بالقبور ويقع. إيه؟ ما الذي قلته؟".

لم تكن لوسي قد قدمت أي اقتراحات؟ وفجأة قال:

"هيا، لا تكوني غبية في هذا الخصوص. لا أطلب منك أن تقعي في حبّ ابني، ولكني أظن أنه يجدر بك أن تحاولي فهمه. سنّك أقرب إلى سنّه، ولو تركت لنفسك الحرية، فأنا على ثقة من أنك تتحلّين بالوعي والحساسية المطلوبين. يمكنك أن تساعديني على الأرجح. لم يعرف ابني سوى عدد قليل من النساء، وأنت لديك الوقت الكافي. ولكن امنحي نفسك الحرية. أنت تميلين إلى أن تكوني مشوشة الأفكار، إن كنت سأحكم على ذلك مما حدث في الليلة الماضية. امنحي نفسك الحرية. اخرجي من أعماق تلك الأفكار التي لا تفهمينها، وانشريها تحت نور الشمس واعرفي كنهها. لو فهمتِ جورج فربما ستعرفين كيف ستفهمين نفسك. سيكون الأمر مفيداً لكما كليكما".

تجاه هذا الخطاب العجيب لم يكن لدى لوسي أي جواب.

"أنا أعرف فقط ما هي مشكلته، ولكني لا أعرف سببها".

سألت لوسي بخوف وهي تتوقع حكاية مروعة ما: "وما هي؟".

"إنها تلك المشكلة القديمة، فالأمور لا تتفق مع بعضها البعض".

"أية أمور؟".

"أمور الكون. هذا صحيح تماماً. إنها لا تتفق".

"أوه يا سيد إمرسون، ما الذي تعنيه حقاً؟".

وبصوته العادي راح يلقي عليها شعراً حتى أنها ما كادت، تدرك أنه يفعل ذلك:

**"من البعيد، من المساء والصباح،**

**وأنت أيتها السماء ذات الرياح الاثنتي عشرة،**

**مادة الحياة التي ستحبكني،**

**قد عصفت إلى هنا: هاأنذا**"[1].

"نعرف هذا كلانا، جورج وأنا، ولكن لماذا يصاب بالاكتئاب؟ نعرف أننا أتينا من الرياح، وأننا سنعود إليها، وان الحياة كلها، على الأرجح، مجرد عقدة، كتلة متشابكة الخيوط، لطخة في السلاسة الأبدية. ولكن لم يكون على هذا أن يجعلنا تعيسين؟ هيا بنا بالأحرى نحبّ واحدنا الآخر ونعمل ونحتفل. أنا لا أؤمن بأسى العالم".

وافقته الآنسة هنيتشيرتش على رأيه.

"إذاً، اجعلي ابني يفكر كما أفكر أنا. اجعليه يدرك أنه إلى جانب الـ(لماذا) الأبدية هناك (نعم)... (نعم) مؤقتة، إن أحببتِ، ولكنها (نعم)".

وفجأة ضحكت؛ لا بد وأن يضحك المرء بكل تأكيد. هذا شاب حزين لأن الكون لا تتفق أموره بعضها مع بعض، ولأن الحياة كتلة متشابكة الخيوط، أو ريح، أو شيء ما.

صاحت: "أنا آسفة جداً. ستظن أني عديمة الشعور، ولكن... ولكن..". ثم أصبحت رصينة. قالت: "أوه، ولكن ابنك في حاجة إلى أن يمارس عملاً ما. أليست لديه هواية ما؟ عجباً، أنا مثلاً لديّ دواع للقلق، ولكني أستطيع عموماً نسيانها على البيانو: جمع الطوابع أفاد أخي جيداً وإلى حد كبير. ربما تشعره إيطاليا بالملل. عليك أن تجرّب جبال الألب أو البحيرات".

---

(1) من قصيدة للشاعر الإنكليزي إدوارد هاوسمان (1859-1936). المترجم.

طغى الحزن على وجه الرجل العجوز، ولمسها بلطف بيده. لم يزعجها ذلك. ظنت أن نصيحتها قد أثّرت فيه، وأنه كان يشكرها عليها. وبالفعل ما عاد هو يسبب لها أي إحساس بالخوف إطلاقاُ. كانت تعتبره شخصاً لطيفاً، إنما ساذج تماماً. وقد تضخمت مشاعرها روحياً كما كانت قد تضخمت قبل ساعة جمالياً، وذلك قبل أن تفقد كتاب بايدكر خاصتها. بدا جورج العزيز، وهو يمشي الآن بخطوات واسعة باتجاههما فوق بلاطات الأضرحة، مثيراً للشفقة ومضحكاً. اقترب منهما ووجهه في الظل. قال:

"الآنسة بارتلت".

قالت لوسي وهي تنهار فجأة ثم تسترد أنفاسها مجدداً، وهي ترى حياتها كلها ضمن منظور جديد: "يا إلهي الطيب! أين؟ أين؟".

"في صحن الكنيسة".

"أرى ذلك. الآنستان العجوزان المثيرتان للشائعات من آل آلان، لا بد وأنهما..". ثم كبحت نفسها...

انفجر السيد إمرسون قائلاً: "يا للفتاة المسكينة! يا للفتاة المسكينة"!

لم تستطع أن تدع هذا الكلام يمرّ دون تعليق، فقد كان هذا شعورها بالضبط في تلك اللحظة.

"يا للفتاة المسكينة؟ لا أستطيع فهم مغزى هذه الملاحظة. أعتقد أني فتاة محظوظة جداً، كما أؤكد لك. أنا سعيدة تماماً، كما أني أقضي وقتاً رائعاً. أرجو ألا تضيع وقتك في الحداد عليّ. هناك أسى كاف في العالم، أليس كذلك، دون محاولة اختراعه. وداعاً. شكراً جزيلاً لكما على اللطف الذي أبديتماه. آه، أجل. هاهي ابنة العمّ قادمة.صباح ممتع لكما! سانتا كروتشه كنيسة رائعة.

ثم التحقت بابنة عم أمها.

* * *

## الفصل [3]

# موسيقى، بنفسج، والحرف S

لقد حدث أن لوسي، التي وجدت أن الحياة اليومية فوضوية بالأحرى، قد ولجت عالماً أكثر صلابة حين رفعت غطاء البيانو. ما عادت في حينه لتكون مراعية لمشاعر الآخرين أو تعاملهم بتنازل؛ كما أنها لم تعد متمردة ولا أَمَة. لا تنتمي مملكة الموسيقى إلى هذا العالم؛ فهي ستقبل أولئك الذين رفضتهم التربية الجيدة والذكاء والثقافة، وذلك على نحو مشابه. يبدأ الشخص العادي بالعزف، وينطلق نحو جنة الخلد دون جهد، بينما نتطلع نحن إلى الأعلى، ونتعجب كيف فاتنا، ونفكر في كيفية قيامنا بعبادته وحبه، لو أنه يترجم رؤاه فحسب إلى كلمات بشرية، وتجاربه إلى أفعال بشرية. ربما هو لا يستطيع، أو هو يستطيع في حالات نادرة جداً. لم يسبق للوسي أن فعلت ذلك إطلاقاً.

لم تكن هي بالعازفة المذهلة؛ ولم يكن أداؤها أشبه بعقود من اللؤلؤ، ولم تكن تضرب على الوتر الصحيح أكثر مما هو ملائم لسنها ووضعها. كما أنها لم تكن شابة عاطفية، تؤدي الدور على نحو شديد التراجيدية في مساء صيفي والنافذة مشرعة. كانت العاطفة موجودة، ولكن ما كان يمكن تصنيفها بسهولة؛ كانت تنزلق ما بين الحب والكره والحسد؛ بمعنى أنها كانت عظيمة، فقد كانت تحب أن تلعب إلى جانب "الفوز". الفوز بماذا أو على ماذا... هذا أكثر مما تستطيع أن تخبرنا به كلمات الحياة اليومية. ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أن بعض سوناتات بيتهوفن قد جرى تأليفها على نحو تراجيدي؛ ومع

ذلك، فهي تستطيع أن تنتصر أو تصاب باليأس حسب ما يقرره العازف. وكانت لوسي قد قررت أن عليها أن تنتصر.

لقد أتاح لها عصر يوم شديد المطر في بنسيون برتوليني أن تفعل الشيء الذي كانت تحبه بالفعل، فبعد الغداء فتحت البيانو الصغير المغطى بستارة. تريث القليل من الأشخاص من حولها وامتدحوا عزفها، ولكنهم حين وجدوا أنها لم تردّ، تفرقوا متجهين إلى غرفهم ليكتبوا يومياتهم أو يناموا. لم يلاحظ السيد إمرسون الذي كان يبحث عن ابنه، ولا الآنسة بارتلت التي كانت تبحث عن الآنسة لاڤيش، ولا الآنسة لاڤيش التي تبحث عن علبة سجائرها. وشأنها شأن كل عازف أصيل، فقد كانت ثملة من مجرد الشعور بالأنغام: كانت تلك أنامل تداعب أناملها هي؛ وباللمس، وليس بالصوت وحده، كانت تلبّي رغبتها.

راح السيد بيب، الجالس دون أن يلحظه أحد في النافذة، يتأمل في هذا العنصر اللا منطقي في الآنسة هنيتشيرتش، وتذكر تلك المناسبة في تنبريدج ويلز حين اكتشفه. كانت في إحدى تلك الحفلات الترفيهية حيث ترفّه الطبقات العليا تلك الأدنى. كانت المقاعد ملأى بجمهور من الأشخاص المحترمين، والسيدات والسادة من الأبرشية، تحت رعاية قسّهم، غنّوا أو رتّلوا أو قلّدوا فتح غطاء زجاجة الشمبانيا. بين البنود الموعودة كان "عزف للآنسة هنيتشيرتش على البيانو لمقطوعات من بيتهوفن". وكان السيد بيب يتساءل ما إذا كانت ستعزف "أديلايدا" أو مارش "آثار أثينا"، حين كان هدوءه قد قوطع بفواصل Opus III. كان في حالة من الترقب القلق خلال المقدمة، إذ لا يعرف المرء ما ينتويه العازف حتى يتسارع الإيقاع. ومع هدير الموضوعة الافتتاحية عرف أن الأمور كانت ستسير على نحو رائع. وفي الأنغام المتآلفة التي

تعلن الوصول إلى الختام سمع ضربات المطرقة تعلن النصر. كان سعيداً أنها لم تعزف سوى الحركة الأولى، لأنه ما كان ليعير أي اهتمام إلى التعقيدات الملتوية لمقياس تسعة ـ ستة عشر. صفق الجمهور مع الاحترام دون شك. كان السيد بيب هو الذي بدأ يدوس الأرض بقوة، وكان هذا كل ما يمكن للمرء أن يفعله.

سأل القس فيما بعد: "من هذه الفتاة؟".

"إنها من قريبات واحدة من بنات رعيتي. لا أعتبر اختيارها لتلك المقطوعة الموسيقية ناجحاً. بيتهوفن في العادة بسيط ومباشر جداً في تأثيره حتى أنه من الحماقة المطلقة اختيار شيء كهذا مما يثير الاضطراب بين أمور أخرى".

"قدمني إليها".

"ستسرّ كثيراً بذلك. هي والآنسة بارتلت تمدحان كثيراً موعظتك".

حين تم تقديمه إليها فهم السبب، فالآنسة هنيتشيرتش بعد أن نزلت عن كرسي الموسيقى كانت مجرد فتاة ذات شعر داكن وكثيف ووجه جميل جداً وشاحب بملامح ناقصة الكمال. كانت تحب الذهاب إلى الحفلات الموسيقية، وتحب الوقوف إلى جانب ابنة عم أمها، وتحب القهوة المثلجة والناطف. لم يكن يشك في أنها كانت تحب مواعظه هي أيضاً. ولكنه قبل أن يغادر تنبريدج ويلز تقدم بملاحظة إلى القس، والتي أبلغها للوسي الآن حين أغلقت غطاء البيانو الصغير وتحركت في مزاج حالم باتجاهه.

"لو أن الآنسة هنيتشيرتش ستعيش كما تعزف، فسيكون الأمر مثيراً جداً... بالنسبة إلينا وإليها أيضاً".

عادت لوسي على الفور إلى الحياة اليومية.

"أوه، يا له من أمر مضحك! لقد قال أحدهم للتو مثل هـذا الكـلام لأمي، وقالت إنها تثق في أنه لن يكون عليّ أن أعيش كثنائي غنائي".

"ألا تحب السيدة هنيتشيرتش الموسيقى؟".

"إنها لا تهتم بها. ولكنها لا تحب أن يصاب المرء بالإثارة تجـاه أي شيء. إنها تظن أني ما أزال حمقاء في هذا الخـصوص. إنهـا تعتقـد... أني لا أستطيع تدبير أموري. في إحدى المـرات، كمـا تعـرف، قلـت إني أحب عزفي أكثر من أي عزف آخر. وهي لم تـستطع نـسيان ذلـك قط. طبعاً، أنا لم أقصد أني أعزف جيداً؛ بل قصدت فحسب."..

قال وهو يتعجب من أنها أزعجت نفسها بتفسير المسألة: "طبعاً".

قالت لوسي وكأنهـا تحـاول التعمـيم نوعـاً مـا: "الموسـيقى..". لم تـستطع إكمـال كلامهـا، ونظـرت إلى الخـارج، إلى ايطاليـا، تحـت المطر. كانت حياة الجنوب كلها غير منتظمـة، والأمـة الأكثـر جمـالاً ولباقة في أوربا قـد تحولـت إلى كتـل مـن الملابـس عديمـة الـشكل. اكتست الشوارع والنهر بلون أصفر قذر، والجسر أصبح رمادي اللـون واكتست الجبال بلون أرجواني وسخ. في مكان مـا مـن طياتهـا كانـت تختبئ الآنسة لاڤيش والآنسة بارتلت اللتان اختارتا هذا العـصر لزيـارة "تورّه ديل غالّو"[1].

قال السيد بيب: "ماذا عن الموسيقى؟".

كان جواب لوسي: "شارلوت المسكينة ستتبلل حتى العظام".

كانت تلك الحملة نموذجية فيما يخص الآنسة بارتلت التي سـتعود وهي بردانة ومتعبة وجائعة وملائكية مع تنورة تالفـة، وكتـاب بايـدكر وقد تحول إلى عجينة، وسعال مدغـدغ في حنجرتهـا. في يـوم آخـر،

---

(1) بناء أثري في فلورنسه في جبل يطل على المدينة. المترجم.

حين كان العالم كله يغنّي والهواء يتغلغل إلى الفم كالنبيذ، فإنها رفضت أن تتحرك بعيداً عن غرفة الجلوس، وقالت إنها امرأة عجوز، وليسن رفيقة ملائمة لفتاة قوية.

"لقد ضللت الآنسة لاڤيش ابنة عم أمكً. إنها تأمل في أن تجد إيطاليا الحقيقية تحت المطر، على ما أعتقد".

همهمت لوسي: "الآنسة لاڤيش أصيلة جداً". كانت تلك هي الملاحظة المألوفة، الإنجاز السامي لبنسيون برتوليني على سبيل التعريف. كانت الآنسة لاڤيش أصيلة جداً. وكان للسيد بيب شكوكه، ولكنها كانت تُختزل إلى محدودية كهنوتية. ولهذا السبب ولغيره، فقد صمت.

استأنفت لوسي الكلام بلهجة من أصيبت بالرعب: "هل صحيح أن الآنسة لاڤيش تؤلف كتاباً؟".

"هذا ما يقولونه بكل تأكيد".

"وما موضوعه؟".

أجاب السيد بيب: "سيكون رواية عن إيطاليا الحديثة. دعيني أحيلك حول هذا الأمر إلى الآنسة كاثرين ألان التي تستخدم الكلمات على نحو مثير للإعجاب أكثر من أي شخص آخر أعرفه".

"أتمنى أن تخبرني الآنسة لاڤيش بنفسها. لقد بدأنا نصبح صديقتين حقيقيتين. ولكني لا أظن أنه كان ينبغي عليها أن تهرب مع كتاب بايدكر خاصتي في ذلك الصباح في سانتا كروتشه. لقد انزعجت شارلوت كثيراً حين وجدتني وحيدة عملياً، لذلك لم أستطع سوى أن أكون حانقة قليلاً على الآنسة لاڤيش".

"لقد تم إصلاح الأمر من قبل هاتين السيدتين، على أي حال".

كان مهتماً في الصداقة المفاجئة التي جرت بين امرأتين مختلفتين كل ذلك الاختلاف، أي الآنسة بارتلت والآنسة لاڤيش. كانتا في صحبة إحداهما الأخرى على الدوام، بينما أصبحت لوسي هي الثالثة المهملة. كان يعتقد أنه يفهم الآنسة لاڤيش، ولكن الآنسة بارتلت قد تكشف عن أعماق مجهولة من الغرابة، وإن ليس من المعنى على الأرجح. هل كانت إيطاليا تحرفها عن مسار دورها كوصيفة مرافقة متزمتة الذي حدده هو لها في تنبريدج ويلز؟ لقد أحبّ ـ طوال حياته ـ دراسة النساء العذروات: لقد كنّ من اختصاصه، وكانت مهنته قد زودته بفرص وافرة لهذا العمل. كانت الفتيات من أمثال لوسي تفتن الناظر إليهنّ، ولكن السيد بيب، ولأسباب عميقة بالأحرى، كان فاتر المشاعر نوعاً ما في موقفه من الجنس الآخر، ويفضل أن يكون مهتماً به وليس بالأحرى مسحوراً به.

قالت لوسي للمرة الثالثة إن شارلوت المسكينة ستكون قد ابتلّت تماماً بالمطر. كان نهر الأرنو قد بدأ يفيض ويغسل آثار العربات الصغيرة فوق الطفّ. ولكن في الجهة الجنوبية الغربية، كان قد ظهر سديم باهت بلون أصفر مما كان يعني أن الطقس سيتحسن إن لم يكن يعني أن طقساً أسوأ قادم لا محالة. فتحت النافذة للتأكد فدخلت هبة هواء باردة إلى الغرفة مما جعل الآنسة آلان تصرخ بحزن.

"أوه يا عزيزتي الآنسة هنيتشيرتش، ستصابين بالزكام! وهاهو السيد بيب هنا أيضاً. من كان سيحزر أن هذه إيطاليا؟ هاهي شقيقتي تحرس صفيحة الماء الساخن: لا وسائل للراحة ولا احتياطات ملائمة". انسلّت نحوها وجلست، وهي تشعر بالخجل كما كان دأبها دائماً لدى دخولها إلى غرفة فيها رجل واحد أو رجل وامرأة واحدة.

"كنت أصغي إلى عزفك الجميل يا آنسة هنيتشيرتش على الرغم من أني كنت في غرفتي والباب مغلق. الأبواب مغلقة، وهذا ضروري جداً. وكل شخص يصاب بالعدوى من الآخر".

أجابت لوسي على النحو الملائم. لم يتمكن السيد بيب من أن يحكي للسيدتين عن مغامرته في "مودينا"، حيث اقتحمت الخادمة الحمام وهو يستحم، وراحت تصيح بالإيطالية: "لا تفعل شيئاً يا سيدي". وقد اقتنع بأن يقول فحسب: "أوافقك الرأي يا آنسة آلان. الإيطاليون شعب كريه جداً. وهم يتطفلون على المرء في كل مكان ويرون كل شيء، كما ويعرفون ما نريده قبل أن نعرفه نحن أنفسنا. نحن تحت رحمتهم. إنهم يقرؤون أفكارنا ويتنبئون برغباتنا: من الحوذي حتى نصل إلى ... جوتو، كلهم يقلّبوننا ويمشّطوننا وأنا أكره ذلك. ومع ذلك فهم في دواخلهم ... لكم هم سطحيون! ليس لديهم أي مفهوم يتعلق بالحياة الفكرية. لكم كانت السيدة برتوليني على حق حين صاحت قائلة وهي تخاطبني في ذلك اليوم وبلهجة الكوكني: "هاي ياسيد بيب، لو أنك كنت تعرف ما أعانيه في تعليم الأطفال! ما كنت لأترك فيكتوريي الصغيرة تتلقى العلم من إيطالي جاهل لا يستطيع أن يشرح أي شيء"!

لم تفهم الآنسة آلان جيداً ما قاله، ولكنها استطاعت أن تتبين أنه تم الهزء بها بأسلوب مقبول. كانت شقيقتها قد خاب أملها من السيد بيب، بعد أن توقعت حصول أمور أفضل من قسيس أصلع الرأس وله شارب خدّي خمريّ اللون. وبالفعل، من كان يتوقع أن التسامح والتعاطف وحس الفكاهة ستكون من خصال هذا الشكل الذي يوحي بأنه لشخص محارب؟

في وسط قناعتها تابعت الانسلال، وأخيراً انكشف السبب. من الكرسي الذي كان تحتها أخرجت علبة سجائر معدنية رمادية اللون كتب عليها بلون أخضر الحرفين الأولين من اسم شخص ما: إ. ل.

قال القسيس: "هذه تخص الآنسة لاڤيش. إنها إنسانة طيبة، لاڤيش تلك، ولكني أتمنى لو أنها تبدأ باستعمال الغليون".

قالت الآنسة آلان وهي في مزاج يتراوح بين الرعب والمرح: "أوه يا سيد بيب. بالفعل أظنّ أن تدخينها السجائر أمر رهيب، ولكن ليس الأمر رهيباً إلى الحد الذي تفترضه أنت. لقد اعتادت عليه من شدة اليأس بعد أن ضاع عمل حياتها في انهيار أرضي. لا شكّ أن هذا يجعل تصرفها أكثر قابلية للعذر".

سألت لوسي: "ما الأمر؟".

استند السيد بيب إلى الخلف برضا، بينما راحت الآنسة آلان تقول:

"كانت تلك رواية... وأعتقد، كما استطعت أن أستنتج أنها لم تكن رواية جيدة جداً. الأمر يدعو إلى الحزن الشديد حين يسيء الناس ذوو القدرات استخدام هذه القدرات، وعليّ أن أقول إنهم يفعلون ذلك على الدوام تقريباً. وعلى أي حال، لقد تركت هي الرواية، وقد انتهت من كتابتها تقريباً، في "كهف المحنة الاصطناعي" في فندق بوتشيني في مالفي حين ذهبت لتشتري بعض الحبر. قالت:(هل لي أن أحصل على بعض الحبر من فضلكم؟) ولكنكما تعرفان الإيطاليين وما هم عليه. في هذه الأثناء سقط الكهف الاصطناعي على الشاطئ هادراً، وما يثير الحزن إلى أبعد حد هو أنها لم تستطع أن تتذكر ما كتبته. وقعت المسكينة بعد ذلك فريسة المرض الشديد؛ وبالتالي فقد أغواها تدخين السجائر. هذا سرّ كبير، ولكن يسرني أن أقول إنها بصدد كتابة رواية جديدة. لقد حكت لتيريزا والآنسة بول في ذلك اليوم أنها قد استحوذت على اللون المحلي تماماً... وهذه الرواية ستكون عن إيطاليا المعاصرة. أما تلك الأخرى فكانت تاريخية...

ولكنها لم تستطع الشروع فيها حتى تكوّنت لديها فكرة ما. في البداية جربت مدينة بيروجيا من أجل الإلهام، ثم جاءت إلى هنا... وهذا أمر لا يجب أن يعرف به أحد. وهي في مزاج مرح الآن فيما يخص كل شيء. لا أستطيع أن أغالب التفكير بأن هناك شيئاً ما نعجب به في كل شخص، حتى لو كنا لا نستحسنه".

كانت الآنسة آلان من النوع المحب للإحسان دائماً، وذلك على الرغم من أن ذلك كان معاكساً لأحكامها المبنية على العقل. كان نوع من الشجا الرقيق يعطّر ملاحظاتها غير المترابطة، مما يمنحها جمالاً غير متوقع، كما في الغابات الخريفية الذاوية التي تفوح منها أحياناً روائح تذكّر بالربيع. شعرتْ أنها قدمت الكثير من التنازلات واعتذرت بسرعة عن تسامحها.

"على أي حال، فهي إلى حد ما... لا أحب أن أقول إنها تفتقر إلى الأنوثة إلى حد كبير. ولكنها تصرفت على نحو شديد الغرابة حين وصل إمرسون وابنه".

ابتسم السيد بيب حين انخرطت الآنسة آلان في سرد نادرة لن تتمكن من إنهائها في حضور جنتلمان.

"لا أعرف يا آنسة هنيتشيرتش إن كنت قد لاحظت أن الآنسة بول، تلك السيدة التي لها الكثير من الشعر الأصفر، تشرب الليمونادة. السيد إمرسون العجوز ذاك يعبر عن الأمور على نحو غريب جداً.."..

انهار فكّها. صمتت. أما السيد بيب الذي كانت مصادره الاجتماعية دون حدود، فقد خرج ليطلب بعض الشاي، واستأنفت هي الكلام مخاطبة لوسي في همس سريع:

"المعدة. لقد حذّر الآنسة بول فيما يخص معدتها... الحموضة، كما سمّاها... وقد يكون قصد أن يكون لطيفاً. وكما قالت تيريزا عن

حق، لم تكن تلك تثير الضحك. ولكن المسألة هي أن الآنسة لاڤيش كانت (منجذبة) إيجابياً لأنه ذكر S ، وقالت إنها تحب الحديث البسيط، والالتقاء بأشخاص يحملون درجات مختلفة من الفكر. لقد ظنتهما من التجار الجوالين، وهاتان هما الكلمتان اللتان استخدمتهما.. وخلال فترة العشاء كلها، كانت تحاول أن تبرهن أن إنكلترا، بلدنا العظيم والمحبوب، يعتمد على التجارة ولا شيء آخر. لقد انزعجت تيريزا كثيراً، وغادرت المائدة قبل وصول طبق الجبن، قائلة وهي تغادر: (إليك يا آنسة لاڤيش شخصاً يستطيع أن يخطّئك على نحو أفضل مني)؛ ثم أشارت إلى تلك الصورة الجميلة للورد تنيسون[1]. ثم قالت الآنسة لاڤيش: (عجباً، الفيكتوريون الأوائل). تصوري فحسب! الفيكتوريون الأوائل! لقد غادرت شقيقتي، وشعرت بأني مضطرة إلى الكلام. قلت: (يا آنسة لاڤيش، أنا فيكتورية من الأوائل؛ على الأقل لن أسمح بسماع أي نقد لملكتنا العزيزة.) كان كلامها رهيباً. لقد ذكّرتها كيف أن الملكة ذهبت إلى أيرلندا وهي التي لم تكن تريد الذهاب إلى هناك، وعليّ أن أقول إنها ذهلت ولم تجبْ. ولكن لسوء الحظ، سمع السيد إمرسون هذا الجزء من الحوار، وقال بصوته العميق: (هذا صحيح! هذا صحيح! أنا أحترم تلك المرأة بسبب زيارتها لأيرلندا). أنا أروي المسائل على نحو رديء جداً، ولكنك ترين أي ورطة كنا فيها في ذلك الحين، وكل ذلك لأن S ذُكر في البداية. ولكن لم يكن هذا كل ما في الأمر. بعد العشاء، جاءت الآنسة لاڤيش إليّ فعلاً وقالت: (يا آنسة آلان، أنا سأدخل إلى غرفة التدخين لأتحدث إلى ذينك الرجلين اللطيفين. تعالي أنت أيضاً). لا حاجة إلى القول إني رفضت مثل تلك الدعوة غير الملائمة، وقد

(1) شاعر إنكليزي (1809-1892) أمير شعراء بريطانيا في القرن التاسع عشر. المترجم.

تمتعت هي بتلك الوقاحة التي جعلتها تقول لي إن ذلك كان من شأنه أن يوسّع من مدى أفكاري؛ كما قالت إن لديها أربعة أشقاء، ثلاثة منهم من خريجي الجامعات، باستثناء واحد هو في الجيش، وهم يحرصون على الحديث إلى التجار الجوالين".

قال السيد بيب الذي عاد: "اسمحا لي أن أنهي هذه الحكاية. حاولت الآنسة لاڤيش مع الآنسة بول ومعي ومع كل شخص آخر، وأخيراً قالت:(سأذهب وحدي.) وقد مضت إلى هناك. بعد خمس دقائق عادت باحتشام وهي تحمل لوحاً مغطى بقماش صوفي أخضر وبدأت تلعبٍ لعبة الصبر".

سألت لوسي: "ما الذي جرى؟".

"لا أحد يعرف، ولن يعرف أحد أبداً. لن تجرؤ الآنسة لاڤيش على أن تحكي عما جرى، ولا يجد السيد إمرسون أن الأمر يستحق أن يُحكى".

"يا سيد بيب... هل السيد إمرسون العجوز لطيف أو غير لطيف؟ أود كثيراً معرفة ذلك".

ضحك السيد بيب واقترح أن عليها أن تقرر ذلك بنفسها.

"كلا، ولكن الأمر صعب جداً. أحياناً هو شديد الحماقة، وعندها لا يهمني أمره. يا آنسة آلان، ما رأيك؟ هل هو لطيف؟".

هزت السيدة العجوز ضئيلة الحجم رأسها، وتنهدت على نحو لا يوحي بالموافقة. أما السيد بيب الذي كان الحوار يسلّيه، فقد حثّها قائلاً:

"أعتبر انك مضطرة إلى تصنيفه على أنه لطيف يا آنسة آلان، بعد مسألة البنفسج تلك".

"البنفسج؟ يا إلهي! من حكى لك عن البنفسج؟ كيف تشيع هنا مثل هذه الأمور بهذه السهولة؟ البنسيون مكان حزين فيما يخص الإشاعات. كلا، لا أستطيع أن أنسى كيف تصرفا خلال محاضرة السيد إيغر في سانتا كروتشه. أوه، يا للآنسة هنيتشيرتش المسكينة! لقد كان الأمر سيئاً جداً! كلا، لقد غيرت رأيي تماماً. أنا لا أحبّ السيدين إمرسون. هما ليسا لطيفين".

ابتسم السيد بيب بلا مبالاة. لقد بذل جهداً كريماً حتى يقدم السيدين إمرسون إلى جماعة بنسيون برتوليني، ولكن جهوده راحت أدراج الرياح. كان الشخص الوحيد تقريباً الذي ما يزال ودوداً معهما. كانت الآنسة لاڤيش، التي تمثّل الفكر، معادية لهما بإصرار. وهاهما الآن الآنستان آلان اللتان كانتا تؤيدان التربية الصالحة، وقد أيدتاها فيما يخص رأيها. أما الآنسة بارتلت، التي تتألم تحت ثقل التزاماتها، فلن تكون مهذبة إلا بالكاد. أما حالة لوسي فهي مختلفة. لقد روت له بأسلوب غير واضح مغامراتها في سانتا كروتشه، وقد استنتج أن الرجلين قد تقدما بمجاملة عجيبة وربما تكون مدبّرة ومتفقاً عليها ليجعلاها تنضم إلى صفهما، ولكي يجعلاها ترى العالم من وجهة نظرهما الغريبة، وأن يثيرا اهتمامها بأحزانهما ومسراتهما. كان هذا أمراً يدل على وقاحة. لم يكن هو راغباً في أن تتبنى قضيتهما فتاة في مقتبل العمر: كان يفضل بالأحرى أن يفشلا في خطتهما. وعلى أي حال، لم يكن يعرف أي شيء عنهما، كما أن متع البنسيون وأحزانه أمور واهية، بينما ستكون لوسي إحدى رعايا أبرشيته.

وأخيراً قالت لوسي التي كانت تراقب الطقس إنها تظن أن السيدين إمرسون لطيفان؛ رغم أنها لم تعد تراهما الآن. حتى كرسييهما على مائدة العشاء قد أزيلا من مكانهما.

قالت السيدة العجوز ضئيلة الحجم متسائلة: "ولكن ألا يحاولان دائماً أن يكمنا لك حتى تذهبي معهما يا عزيزتي؟".

"مرة واحدة فحسب. لم يعجب ذلك شارلوت، وقالت شيئاً ما... بلطف كبير، طبعاً".

"إنها على حق تماماً. فهما لا يفهمان أساليبنا. عليهما أن يجدا من هو في مستواهما".

شعر السيد بيب أنهما قد فشلا بالأحرى. لقد تخليا عن محاولتهما ـ لو كانت تلك محاولة منهما ـ لغزو المجتمع، والآن هاهو الأب وقد أصبح صامتاً بقدر الابن تقريباً. وقد تساءل إن لم يكن سيخطط ليوم جيد لهذين الشخصين قبل أن يغادرا: ربما مهمة ما مع لوسي تحت رعاية جيدة لتكون لطيفة معهما. كان من دواعي سرور السيد بيب أن يزود الناس بذكريات سعيدة.

اقترب حلول المساء وهم يتبادلون الحديث. أصبح الجو أكثر إشراقاً، والألوان على الأشجار والهضاب نقية، وفقد نهر الأرنو صلابته الموحلة وبدأ يومض. ظهرت بعض الخطوط القليلة من اللون الأخضر المائل إلى الزرقة بين الغيوم، والقليل من البقع من النور المائي فوق الأرض، ثم التمعت الواجهة التي يقطر منها الماء لكنيسة سان مينياتو تحت نور الشمس الغاربة.

قالت الآنسة آلان بصوت يدل على شعور بالفرج: "تأخر الوقت فلم يعد هناك مجال للخروج. جميع معارض الفن قد أغلقت أبوابها".

قالت لوسي: "أعتقد أني سأخرج. سأقوم بجولة حول المدينة بالترام الدائري، وذلك على المصطبة قرب السائق".

بدت علائم الجدّ على رفيقيها. غامر السيد بيب الذي شعر بأنه مسؤول عنها في غياب الآنسة بارتلت فقال:

"أتمنى لو أستطيع ذلك. لسوء الحظ لديّ رسائل أخطّها. إن كنت تريدين الخروج وحدك، أليس من الأفضل لك السير على قدميك؟".

قالت الآنسة آلان: "أنت تعرفين الإيطاليين يا عزيزتي".

"ربما أقابل شخصاً يفهمني تماماً".

ولكنهما كانا ما يزالان في وضعية تدلّ على الرفض، وهكذا تجاوبت مع طلب السيد بيب وقالت إنها ستذهب لتتمشى قليلاً ضمن الشوارع التي يرتادها السواح عادة.

قال السيد بيب وهو والآنسة آلان يراقبانها من النافذة: "ما كان عليها أن تخرج إطلاقاً. وهي تعرف ذلك. أظن أن الكثير من بيتهوفن هو السبب".

* * *

# الفصل الرابع

كان السيد بيب على حق. لم تكن لوسي تعرف رغباتها بوضوح شديد إلا بعد عزفها للموسيقى. لم تعجب حقاً بظرف القسيس ولا بثرثرة الآنسة آلان. كان الحوار مرهقاً وكانت تريد شيئاً كبيراً ما، واعتقدت أنه سيأتي على مصطبة الترام الكهربائي الذي تجتاحه الريح.

عليها أن تحاول فعل هذا. كان هذا مما لا يليق بالسيدات. لماذا؟ لم كانت معظم الأشياء الكبيرة مما لا يليق بالسيدات؟ شرحت لها شارلوت السبب ذات مرة. لم يكن الأمر وما فيه أن السيدات أدنى درجة من الرجال، ولكن أنهن مختلفات. كانت مهمتهن هي إلهام الآخرين حتى يقوموا بالإنجازات وليس أن يقمن هن بالإنجازات بأنفسهن. على نحو ما، وبواسطة اللباقة والسمعة الطاهرة، يمكن للسيدة أن تنجز الكثير. ولكن لو أنها اندفعت نحو خوض الأعمال الصعبة بنفسها فسوف يتم نقدها أولاً ثم تُحتقر ثانية، ثم يتم تجاهلها أخيراً. وقد نُظمت قصائد شعرية لتوضيح هذه المسألة.

هناك الكثير مما هو خالد في هذه السيدة من العصر الوسيط. لقد رحلت التنّينات وكذلك الفرسان، ولكن هذه السيدة ما تزال متلبثة بيننا. لقد حكمت الكثير من القلاع الفيكتورية المبكرة، وكانت "ملكة" في الكثير من الأغاني الفيكتورية المبكرة. إنه لأمر طيب أن نحميها في فترات العمل، وطيب أن نمجّدها حين تطبخ عشاء طيباً. ولكن يا للأسف! فالمخلوقة أصبحت منحطة. كما تنبع من قلبها رغبات غريبة

أيضاً. وهي مغرمة أيضاً بالرياح القوية والبانورامات الواسعة والامتدادات الخضراء للبحر. لقد تركت علامتها على مملكة هذا العالم، فلكم أصبح مترعاً بالثروة والجمال والحرب... قشرة لامعة بُنيت من حول النيران المركزية المدوّمة نحو السماء المتراجعة. والرجال الذين يصرحون بأنها تلهمهم ليفعلوا ذلك، يتحركون بمرح فوق السطح وهم يمارسون اللقاءات الممتعة مع رجال آخرين، سعداء، ليس لأنهم ذكور، ولكن لأنهم أحياء. وقبل نهاية المشهد الاستعراضي فإنها تحب أن تُسقط اللقب الجليل أي "المرأة الخالدة"، وتذهب إلى هناك بشخصها المؤقت.

لا تمثل لوسي السيدة القروسطية التي كانت مثالاً تؤمر هي بالأحرى بأن تتمثّل به حين تشعر بالجدية. كما لم تكن تتحلى بأي نظام للتمرّد. هنا وهناك كان قيد ما يزعجها على نحو خاص، وكانت تتجاوزه، وربما تأسف لأنها فعلت ذلك. في عصر هذا اليوم كانت ضجرة على نحو غريب. كانت تحب بالفعل أن تقوم بشيء ما لا يوافق عليه من يتمنون لها الحظ الجيد. وبما أنها لن تذهب لتركب الترام الكهربائي، فقد ذهبت إلى دكان "أليماري".

هناك اشترت صورة لوحة بوتيتشيللي المسماة "مولد فينوس". كانت فينوس المثيرة للشفقة قد أفسدت اللوحة التي كانت خلاف ذلك رائعة جداً، وكانت قد أقنعتها الآنسة بارتلت بألا تشتريها سابقاً. (تعني طبعاً المثيرة للشفقة في الفن العارية). ولوحة "العاصفة" لجيورجيونه، وأضافت إليها "إيدولينو"[1] وبعض اللوحات الجصية لكنيسة البابا في روما والأبوكسيومينوس[2]. أحست أنها أكثر هدوءاً

---

(1) تمثال لشاب عار. المترجم.

(2) تمثال إغريقي تقليدي لشخص يقوم بعملية الكشط. المترجم.

بقليل عندئذ، واشترت صورة للوحة "التتويج" لفرا أنجلينو" و"صعود القديس يوحنا" لجوتو، وبعض صور لأطفال "ديلا روبيا" ومادونات "غيدوريني": فقد كان ذوقها كاثوليكياً، وكانت تعجب على نحو غير نقدي بكل اسم مشهور.

ولكن على الرغم من أنها أنفقت سبع ليرات، فإن أبواب الحرية بدت وكأنها كانت ما تزال مغلقة. كانت واعية بعدم رضاها؛ ولقد كان أمراً جديداً عليها أن تكون واعية بذلك. فكرت: "العالم مليء بكل تأكيد بأشياء جميلة، وأتمنى لو أستطيع أن أجدها". لم يكن مفاجئاً أن السيدة هنيتشيرتش كانت تعارض الموسيقى، وتصرح بأنها كانت تترك ابنتها دائماً وهي نكدة وغير عملية وحساسة.

فكرت وهي تدخل "ساحة السيدة" وتنظر دون اهتمام إلى روائعها التي أصبحت مألوفة لها الآن: "لا يحدث لي أي شيء". كانت الساحة العظيمة في الظل؛ فنور الشمس لم يعد يصلها فقد تأخر الوقت على ذلك. كان "نبتون" قد أصبح غير ذي مغزى في الغسق، نصف إله ونصف شبح، وراحت نافورته ترش على نحو حالم الرجال والساتيرات[1] الذين راحوا يتسكعون معاً ببطء على حافتها. بدا مبنى "لوغيا" كمدخل إلى كهف، حيث كانت تقطن الكثير من الآلهة القابعين في الظل ولكنهم خالدون، ويتطلعون إلى وصول ورحيل البشر. كانت تلك ساعة اللا واقع... الساعة التي تكون فيها الأشياء غير المألوفة حقيقية. وربما يفكر شخص أكبر سناً، في مثل تلك الساعة وذلك المكان، أن ما يجري له كافٍ بحد ذاته ويبقى قانعاً. ولكن لوسي أرادت المزيد.

---

(1) ساتير: إله الغابات. المترجم.

ثبّتت عينيها بحزن على برج القصر الذي كان يبرز من العتمة كعمود من الذهب المخشّن. بدا وكأنه لم يعد مدعواً من قبل الأرض، وإنما أصبح كنزاً لا يمكن الحصول عليه وهو ينبض في السماء الهادئة. سمّرها التماعه في مكانها، وهو ما يزال يرقص أمام عينيها. حين وجهتهما إلى الأرض، ثم بدأت تمشي نحو البنسيون.

ثم حدث شيء ما فعلاً.

كان هناك شابان إيطاليان عند اللوغيا يتشاجران حول ديْن ما. صرخا: "خمس ليرات، خمس ليرات"! ثم تجادلا بعد أن ضرب احدهما الآخر في صدره بخفة. عبس هذا، ثم انحنى نحو لوسي بنظرة اهتمام، وكأن لديه رسالة هامة يوصلها لها. فتح شفتيه ليسلم الرسالة، وخرج دفقٌ أحمر من بينهما ثم سال على ذقنه غير الحليقة.

كان هذا كل ما جرى. تجمعت جمهرة من الناس فجأة من خلال الغسق. سترت الجمهرة هذا الرجل غير العادي عن نظرها وحملته إلى النافورة. وقد حدث بالصدفة أن كان السيد جورج إمرسون على بعد خطوات قليلة، وراح ينظر إليها عبر البقعة التي كان الرجل فيها. لكم هذا عجيب! عبر شيء ما. حتى حين لمحتْهُ فإنه أعتم، حتى القصر نفسه أعتم أيضاً، ثم تأرجح من فوقها وسقط عليها بنعومة وببطء ودون ضجيج، وسقطت السماء معه.

فكرت: "أوه، ما الذي جرى لي؟".

همهمت: "أوه، ما الذي جرى لي؟" وفتحت عينيها.

كان جورج إمرسون ما يزال ينظر إليها ولكن ليس عبر أي شيء. كانت تتذمّر من الملل، وانظروا! لقد طُعن رجل وها هو آخر يمسك بها بين ذراعيه.

كانا جالسين على درج في "ممر أوفيتسي المقنطر". لا بدّ وأنه حملها إلى هنا. نهض حين تكلمت، وبدأ ينفض الغبار عن ركبتيه. كررت كلامها:

"أوه، ما الذي جرى لي؟".



"لقد أغمي عليك".

"أنا... أنا آسفة جداً".

"كيف أنتِ الآن؟".

"في حال حسنة تماماً.."، ثم بدأت تومئ برأسها وتبتسم. مدّ يده لينهضها. تظاهرت بأنها لم ترها. كانت هناك صرخات تأتي من موضع النافورة... لم تتوقف هذه الصرخات... كانت ترنّ فارغة. بدا العالم كله شاحباً وفارغاً من معناه الأصلي.

"لكم كنت لطيفاً تجاهي! ربما كنت سأؤذي نفسي بسقوطي أرضاً. ولكني في حال حسنة الآن. أستطيع الذهاب وحدي. شكراً".

كانت يده ما تزال ممدودة.

صاحت: "أوه، صوري"!

"أي صور؟".

"لقد اشتريت بعض الصور من دكان أليناري. لا بدّ أني أسقطتها هناك في الساحة". نظرت إليه بحذر. "هل لك أن تقدم لي معروفاً آخر فتحضرها لي؟".

أضاف معروفاً آخر، وما أن عاد إليها حتى نهضت لوسي بمكر امرأة مجنونة وتسللت على امتداد الممر المقنطر باتجاه نهر الأرنو.

"يا آنسة هنتشيرتش".

توقفت وقد وضعت يدها على قلبها.

"اجلسي بهدوء. لستِ في حال ملائمة بحيث تذهبين وحدك إلى البيت".

"أجل، أنا في حال جيدة. شكراً جزيلاً".

"كلا. لست كذلك. كنت ستذهبين دون مراوغة لو كنت كذلك".

"ولكن عليّ بالأحرى..".

"إذاً، لن أحضر لك صورك".

"أفضّل أن أكون وحدي".

قال بإلحاح: "الرجل قد مات... لقد مات على الأرجح. اجلسي بهدوء حتى تكوني قد استرحتِ". شعرت هي بالحيرة وأطاعته".ولا تتحركي حتى أعود".

شاهدت عن بعد مخلوقات بقلنسوات سوداء كما قد يظهر لنا في الحلم. كان برج القصر قد فقد انعكاس شمس النهار الآفلة وألحق نفسه بالأرض. كيف ستتحدث هي إلى السيد إمرسون حين يعود من الساحة التي لفّتها الظلال؟ ومن جديد عادت إليها "الفكرة": "أوه، ما الذي جرى لي؟" ... ظنت أنها قد اجتازت ـ وكذلك الرجل المحتضر ـ حدوداً روحية ما.

عاد إليها، وتحدثت هي عن جريمة القتل. ومن العجيب إلى حد كاف أن الموضوع كان سهلاً. تحدثت عن الشخصية الإيطالية، وأصبحت ثرثارة تقريباً فيما يخص الحادثة التي جعلتها تفقد وعيها قبل خمس دقائق. وبما أنها قوية الجسد، فقد تغلبت سريعاً على الرعب الذي انتابها من مشاهدة الدم. نهضت دون مساندته، ورغم أنه كانت هناك في داخلها أجنحة ترفرف، إلا أنها سارت بثبات كاف نحو

نهر الأرنو. وهناك، أشار إليهما حوذي إحدى العربات، ولكنهما رفضا الركوب.

"وحاول القاتل أن يقبّله، كما تقول... لكم هم عجيبون هؤلاء الإيطاليون! ... ثم سلّم نفسه إلى الشرطة! كان السيد بيب يقول إن الإيطاليين يعرفون كل شيء. ولكنني أظن أنهم طفوليون بالأحرى. حين كنا في (بيتّي) البارحة أنا وابنة عم أمي... ما هذا؟".

كان قد ألقى بشيء ما في النهر.

"ما الذي ألقيت؟"

قال بنزق: "أشياء لم أكن أريدها".

"يا سيد إمرسون"!

"حسناً؟"

"أين الصور؟"

صمت ولم يجب.

"أعتقد أنك رميت بصوري".

صاح: ""لم أعرف ما أفعله بها". ثم أصبح صوته صوت صبي قلق. ولأول مرة شعرت أن قلبها يميل إليه. "كانت مغطاة بالدم. عجباً! أنا سعيد لأني أخبرتك. طوال حديثنا كنت أتساءل عما سأفعله بها". أشار إلى النهر. "لقد ضاعت في تيار النهر". كان النهر يدوّم تحت الجسر. "لقد فكرت بالأمر جيداً، وقد يكون الأمر شديد الحماقة، فقد بدا لي أنه من الأفضل أن تذهب إلى البحر... لا أعرف. ربما أعني أنها أخافتني". ثم تحول الصبي إلى رجل. "لقد حدث شيء هائل، وعليّ أن أواجهه دون أن أتشوش. وليس الأمر بالضبط أن رجلاً قد مات".

كان هناك شيء ما حذر لوسي بأن عليها أن توقفه عن الكلام.

كرر كلامه: "لقد حدث، وأنوي أن أكتشف ما هو".

"يا سيد إمرسون..".

التفت إليها وهو مقطب الجبين، وكأنها قاطعته في مسألة هامة.

"أريد أن أطلب منك شيئاً ما قبل أن ندخل".

كانا قريبين من البنسيون. توقفت هي واستندت بمرفقيها على حاجز الجسر. وفعل هو الشيء نفسه. يكون هناك أحياناً سحر في تماثل الوضعية. وهذا واحد من الأمور التي توحي لنا بالصداقة الأبدية. حركت مرفقيها قبل أن تقول:

"لقد تصرفتُ على نحو مثير للضحك".

كان هو يتابع أفكاره الخاصة.

"لم يسبق لي أن شعرت بالخجل من نفسي خلال حياتي. لا أستطيع أن أفكر فيما جرى لي".

قال: "وأنا كدت أفقد الوعي أيضاً". ولكنها شعرت أن موقفها قد أزعجه.

"حسناً، أنا أدين لك بألف اعتذار".

"أوه، حسناً".

"وهذا... هذا هو الأمر الحقيقي... أنت تعرف كيف يتبادل الأشخاص الحمقى الإشاعات... وخاصة السيدات. أظن أنك تفهم ما أعنيه".

"أظن أني لا أفهم".

"أعني هل لك ألا تذكر هنا الأمر الذي حصل لأي شخص، أعني سلوكي الأحمق؟".

"سلوكك؟ أوه، أجل... حسناً... حسناً".

"شكراً جزيلاً. وهل لك أن..".

لم تستطع أن تطلب المزيد. كان النهر يتدفق تحتهما، وهو بلون أسود تقريباً مع الليل الذي كان قد بدأ يحلّ. لقد ألقى بصورها فيه، ثم قال لها السبب. وقد صُدمت لأنه بدا أمراً مستحيلاً البحث عن الفروسية في مثل هذا الرجل. لن يؤذيها بالإشاعة التافهة. كان شخصاً يمكن الثقة فيه وذكياً ولطيفاً، وربما يقدرها تقديراً عالياً. ولكنه كان يفتقر إلى الفروسية. كانت أفكاره، شأن سلوكه، من النوع الذي لا يمكن تعديله بالترويع. كان أمراً لا طائل منه أن يُقال له: "هل لك أن..". ثم أن نأمل بأن يكمل هو الجملة بنفسه متجنباً بعينيه عريها هي شأن ذلك الفارس في تلك الصورة الجميلة. كانت بين ذراعيه، وتذكّر هو ذلك، كما تذكر الدم على الصور التي اشترتها من دكان أليناري. لم يكن الأمر بالضبط أن رجلاً قد مات؛ لقد حدث شيء ما لهذين الشخصين الحيّين: لقد وصلا إلى وضع تعبّر فيه الشخصية عن نفسها، وحيث تبدأ "الطفولة" باقتحام الممرات الملتوية لـ "الشباب".

كررت القول: "حسناً، شكراً جزيلاً. لكم تجري هذه الحوادث بسرعة، ثم يعود المرء إلى حياته القديمة"!

"أنا لا أعود".

جعلها القلق تسأله عن السبب.

وكان جوابه محيراً: "ربما سأرغب في أن أحيا".

"ولكن لماذا يا سيد إمرسون؟ ما الذي تعنيه؟"

"أقول إني أريد أن أحيا".

اتكأت بمرفقيها على الحاجز، وراحت تتأمل نهر الأرنو الذي كـان هديره يوحي لأذنيها ببعض الاتساق غير المتوقع في اللحن.

* * *

# الفصل [5]

## احتمالات نزهة سارة

كان بين الأقوال الشائعة في الأسرة عبارة "لا يمكنك أبداً أن تعرف أين ستلتفت شارلوت بارتلت". كانت لطيفة ومعقولة تماماً فيما يخص مغامرة لوسي، ووجدت تقريرها المختصر ملائماً تماماً، ووجهت الامتنان والثناء الملائمين إلى السيد جورج إمرسون. وكانت هي قد خاضت أيضاً مغامرة مع الآنسة لاڤيش. لقد تم إيقافهما عند "داتسيو" وهما عائدتان، وحاول الموظفون الرسميون الشبان هناك، والذين بدوا وقحين ومتبطلين، أن يفتشوا في حقيبتيهما بحثاً عن طعام. وكان من المحتمل أن يتحول الأمر إلى شيء مزعج، ولكن لحسن الحظ كانت الآنسة لاڤيش نداً لهم.

وسواء كانت النتيجة حسنة أم لا، إلا أن لوسي تُركت وحيدة في مواجهة مشاكلها. فلم يشاهدها أحد من أصدقائها لا في الساحة ولا عند الجسر لاحقاً. أما السيد بيب فقد شاهد عينيها المروعتين عند وجبة العشاء، وكرر لنفسه مجدداً عبارة: "الكثير من بيتهوڤن هو السبب". ولكنه افترض فحسب أنها كانت جاهزة لمغامرة ما، وليس أنها قد خاضتها بالفعل. وقد أحزنتها هذه العزلة. فقد اعتادت أن ترى أفكارها وقد أكدها أشخاص آخرون أو عارضوها على أي حال. كان أمراً كريهاً جداً ألا تعرف إن كانت أفكارها صحيحة أو خاطئة.

مع وجبة الإفطار في صباح اليوم التالي، اتخذت قراراً حاسماً. كانت هناك خطتان عليها اختيار إحداهما. كان السيد بيب ينوي أن يتمشى إلى "توره ديل غالو" مع السيدين إمرسون وبعض السيدات

الأمريكيات. هل ترغب الآنسة بارتلت والآنسة هنيتشيرتش بالانضمام إلى المجموعة؟ اعتذرت شارلوت عن نفسها، فقد سبق أن كانت هناك في عصر اليوم الماضي وتحت وابل من المطر. ولكنها تظن أنها فكرة مثيرة للإعجاب بالنسبة إلى لوسي التي كانت تكره التسوّق وصرف العملات وإحضار الرسائل والواجبات المتعبة الأخرى... وكلها كان على الآنسة بارتلت القيام بها هذا الصباح، ويمكنها أن تنجزها وحدها.

صاحت الفتاة بحماسة حقيقية: "كلا يا شارلوت. هذا لطف كبير من السيد بيب، ولكني سأذهب معك بكل تأكيد. أفضّل ذلك إلى حد كبير".

قالت الآنسة بارتلت: "حسناً يا عزيزتي"، وقد توردت وجنتاها من السرور، مما تسبب في تضرج وجنتي لوسي من الخجل. لكم تتصرف هي بتلك الطريقة الكريهة تجاه شارلوت، كما تصرفت الآن، وكما تتصرف دائماً! ولكن عليها في الوقت الحاضر أن تغيّر ذلك. ستكون لطيفة معها بالفعل طوال فترة الصباح.

شبكت ذراعها بذراع ابنة عم أمها، مع تورد خفيف في وجنتيها من السرور، انطلقتا تسيران على امتداد نهر الأرنو. كان النهر كالليث في قوته في ذلك الصباح. ألحّت الآنسة بارتلت على الاتكاء على الحاجز لتتفرج عليه. ثم تلفظت بملاحظتها المعتادة، ألا وهي:

"لكم أتمنى لو كان فريدي وأمك معنا ليريا هذا هما أيضاً"!

تململت لوسي. كان أمراً باعثاً على الضجر والتعب من شارلوت أن تتوقف في ذلك المكان بالضبط.

"انظري يا لوسيا! أوه، أنت تراقبين مجموعة توره ديل غالو. كنت أخشى أن تندمي على اختيارك".

ورغم أن اختيارها كان جدياً إلا أنها لم تندم. كان يوم البارحة سوء تفاهم ولخبطة من النوع الغريب والشاذ، ذلك النوع من الأمور التي لا يستطيع أحد أن يكتبه بسهولة على الورق... ولكن كان لديها إحساس بأن شارلوت وتسوّقها كانا أفضل من صحبة جورج إمرسون وقمة توره ديل غالو. وبما أنها لم تكن قادرة على فكّ العقدة المتشابكة، فعليها أن تحرص على ألاّ تدخل فيها مرة أخرى. كانت قادرة على الاحتجاج بصدق على تلميحات الآنسة بارتلت.

ولكن على الرغم من أنها تجنبت الممثّل الرئيسي، إلا أن عناصر جهاز المشهد المسرحي بقيت لسوء الحظ، فقد قادتها شارلوت، بتواطؤ من القدر، من شاطئ النهر إلى "ساحة السيدة". لم تستطع أن تصدق أن الأحجار واللوغيا والنافورة وبرج القصر ستكون لها مثل هذه الأهمية. ولبرهة من الزمن، فهمت طبيعة الأشباح.

كان الموقع الذي جرت فيه الجريمة بالضبط مشغولاً ليس من قبل شبح بل من قبل الآنسة لافيش التي كانت تحمل جريدة الصباح في يدها. لوّحت لهما بنشاط. كانت الفاجعة الرهيبة التي وقعت في اليوم السابق قد منحتها فكرة ظنت أنها صالحة لتكون موضوعاً لكتاب.

قالت الآنسة بارتلت: "أوه، دعيني أهنئك! بعد اليأس الذي انتابك البارحة! يا له من أمر مترع بالحظ"!

"أوه، يا آنسة هنيتشيرتش، تعالي إلى هنا! أنا محظوظة. والآن ستحكي لي كل شيء رأيتِه منذ البداية وحتى النهاية حتماً".

نكشت لوسي الأرض بحذائها.

"ولكن ربما تفضلين عدم فعل ذلك على الأصحّ".

"أنا آسفة. لو استطعت تدبير أمورك بدون ذلك، فأنا أفضّل ألا أفعل ذلك".

تبادلت السيدتان الأكبر سناً النظرات، ليس استنكاراً، حيث أنه لأمر ملائم أن يكون لفتاة شابة مشاعر عميقة.

قالت الآنسة لاڤيش: "أنا هي التي يجب أن تكون آسفة. نحن الممتهنين للأدب مخلوقات وقحة. أعتقد انه لا يوجد سرّ في قلوب البشر لا نحاول أن نسبر غوره".

سارت بمرح إلى النافورة ثم عادت، وبعدها قامت ببعض الحسابات في الواقعية. ثم قالت إنها في الساحة منذ الثامنة صباحاً. وهي تقوم بجمع المواد. وكان كثير منها غير ملائم، ولكن بالطبع على المرء دائماً أن يتكيّف. لقد تشاجر الرجلان على ورقة نقدية من فئة الخمسة فرنكات. وعليها أن تستبدل بالورقة النقدية من فئة الخمسة فرنكات شابة ما، وهذا من شأنه أن يجعل المأساة أكثر حدة، وفي الوقت نفسه سيزودها بعقدة ممتازة للرواية.

سألت الآنسة بارتلت: "وما سيكون اسم البطلة؟".

قالت الآنسة لاڤيش... وكان اسمها إلينور: "ليونورا".

"آمل حقاً أن تكون مهذبة".

لن يتم تجاهل هذه الرغبة.

"وما هي العقدة؟".

الحب وجريمة القتل والخطف والثأر، هذه هي العقدة. كان هذا ما توصلت إليه بينما كانت النافورة ترشّ الساتيرات تحت نور شمس الصباح.

لن يتم تجاهل هذه الرغبة.

"وما هي العقدة؟".

الحب وجريمة القتل والخطف والثأر، هذه هي العقدة. كان هذا ما توصلت إليه بينما كانت النافورة ترشّ الساتيرات تحت نور شمس الصباح.

ختمت الآنسة لاڤيش كلامها قائلة: "آمل أنكما ستعذرانني على إملالكما على هذا النحو. من المغري جداً الكلام مع أشخاص متعاطفين فعلاً. بالطبع هذه هي الخطوط الرئيسية المجردة جداً. سيكون هناك الكثير من اللون المحلي ووصف فلورنسه والحيّ السكني، كما سأقدم بعض الشخصيات التي تتمتع بروح الفكاهة. ثم اسمحا لي أن أحذركما على نحو واضح: أنوي ألاّ أكون رحيمة بالسائح البريطاني".

صاحت الآنسة بارتلت: "أوه، يا لك من امرأة شريرة! أنا على ثقة من أنك تعنين السيدين إمرسون".

ابتسمت الآنسة لاڤيش ابتسامة ميكياڤلية.

"أعترف أني في إيطاليا لا أتعاطف مع مواطني بلدي. إن من يجذبني هم الإيطاليون المهمَلون، والذين سأصوّر حياتهم بقدر ما أستطيع، فأنا أكرر وألح، واعتقدت دائماً وما زلت أعتقد وعلى أقوى نحو ممكن، بأن المأساة ـ كتلك التي حصلت البارحة ـ ليست أقل مأساوية لأنها جرت ضمن حياة متواضعة".

كان هناك صمت ملائم حين توقفت الآنسة لاڤيش عن الكلام. ثم تمنت لها لوسي وابنة عم أمها النجاح في جهودها، وسارتا كلتاهما ببطء عبر الساحة مبتعدتين عن الآنسة لاڤيش.

قالت الآنسة بارتلت: "إنها لمثال في رأيي للمرأة الذكية فعلاً. وقد أحسست أن ملاحظتها الأخيرة صحيحة على نحو خاص. لا شك أنها ستكون رواية محزنة جداً".

وافقتها لوسي على هذا. في الوقت الحالي كان هدفها الأساسي ألا تكون شخصيتها جزءاً من الرواية. كانت قدراتها على الإدراك في ذلك الصباح حادة على نحو عجيب، واعتقدت أن الآنسة لاڤيش كانت تختبرها كفتاة ساذجة.

استأنفت الآنسة بارتلت الكلام: "إنها متحررة، ولكن بأفضل معنى لهذه الكلمة. لن يُصدم منها إلا من هم سطحيون. لقد تحدثنا مطولاً البارحة، وهي تؤمن بالعدالة والحقيقة ومصلحة البشر. كما قالت لي أيضاً إنها تؤمن بأن مصير المرأة سيكون عظيماً... السيد إيغر! عجباً، لكم هذا لطيف! يا لها من مفاجأة"!

قال القس بلطف: "آه، ليس بالنسبة إليّ، فقد كنت أراقبك أنت والآنسة هنيتشيرتش منذ فترة من الزمن ليست بالقصيرة".

"كنا نتحادث مع الآنسة لاڤيش".

تقطّب جبينه.

"هذا ما رأيتُه. هل كنتما تفعلان ذلك حقاً؟ (ثم قال بالإيطالية): **إرحل من هنا. أنا مشغول**". كانت هذه العبارة موجهة إلى بائع صور بانورامية كان قد بدأ يقترب منهم وعلى وجهه ابتسامة دمثة. "أنا على وشك التجرؤ بتقديم اقتراح. هل لك وللآنسة هنيتشرتش أن تنضما إليّ في رحلة بالعربة في أحد أيام هذا الأسبوع... رحلة في الجبال؟ قد نصعد عن طريق (فيزوله) ونعود عن طريق (ستيتيانو). وهناك مكان على تلك الطريق حيث سنهبط من العربة وتكون لنا ساعة من التجول على منحدر الجبل. إن منظر فلورنسه من هناك كأجمل ما يكون... أفضل بكثير من المنظر المبتذل الذي نراه من فيزوله. إنه المنظر الذي يغرم أليسيو بلدوڤينيتي[1] بإظهاره في لوحاته. ولذلك

---

(1) رسام إيطالي (1425-1499). المترجم.

الرجل حس محدد بالمناظر الطبيعية. بالتحديد. ولكن من الذي ينظر إليها اليوم؟ آه، **العالم يقسو علينا إلى حد كبير**[1]".

لم تكن الآنسة بارتلت قد سمعت بأليسيو بلدوڤينيتي"، ولكنها عرفت أن السيد إيغر لم يكن قساً من النوع العادي. كان عضواً في "المستعمرة السكنية" التي اتخذت من فلورنسه موطناً لها. كان يعرف الأشخاص الذين لا يتجولون أبداً وهم يحملون كتاب بايدكر معهم، والذين تعلموا أن ينالوا قيلولة بعد وجبة الغداء، والذين يذهبون في رحلات بالعربات لم يسمع بها سياح البنسيونات قط، ويطّلعون بواسطة النفوذ الشخصي على معارض فنية مغلقة أمامهم. كانوا يعيشون في عزلة مرهفة، البعض في شقق مفروشة وآخرون في ڤيلات تعود إلى عصر النهضة على منحدر جبل فيزول؛ يقرؤون ويكتبون ويدرسون ويتبادلون الآراء، وبذلك يحصلون على تلك المعرفة الحميمة (أو الفهم الحميم) بفلورنسه التي كانت تُنكر على جميع أولئك الذين كانوا يحملون في جيوبهم قسائم "كوك"[2].

لذلك فإن دعوة القس كانت شيئاً يمكن الافتخار به. بين ذينك النوعين من رعيته، كان هو على الأغلب الرابط الوحيد الذي يجمعهما، وكان من عادته المعترف بها أن يختار أولئك الذين هم بين خرافه المترحّلين الذين يبدون على أنهم جديرون بالاهتمام، ويمنحهم ساعات قليلة يقضونها في مراعي أفراد رعيته المستقرّين في فلورنسه. تناول الشاي في ڤيلاّ من عصر النهضة؟ أمر لا يمكن أن يُعارض. ولكن لو حدث الأمر، فلكم سوف تستمع لوسي به؟

---

(1) إشارة إلى قصيدة للشاعر الإنكليزي الكبير ويليام وردزويرث (1770-1850) ينتقد فيها الثورة الصناعية الأولى في بريطانيا لاستغراقها في النزعة المادية. المترجم.

(2) قسائم كوك: قسائم تمنح للمستهلك حسماً على البضائع. المترجم.

قبل أيام قليلة كان يمكن للوسي أن تشعر بهذا الشعور نفسه. ولكن متع الحياة كانت تتجمع مجدداً. رحلة بالعربة إلى الجبال مع السيد إيغر والآنسة بارتلت ـ حتى لو كانت ستنتهي في حفل شاي في مسكن ـ لم تعد أعظم شيء بالنسبة إليها. أصبحت ردود فعلها على حالات النشوة لدى شارلوت ردوداً باهتة نوعاً ما. ولكن امتنانها لم يصبح أكثر صدقاً إلا حين سمعت أن السيد بيب سيرافقهما في الرحلة هو أيضاً.

قال القس بالفرنسية: "إذا سنكون مجموعة من أربعة أشخاص". ثم استأنف قائلاً: "في هذه الأيام، أيام الكدح والاضطراب، يكون المرء في حاجة عظيمة إلى الريف ورسالة نقائه. (بالإيطالية): **ارحل . ارحل بسرعة . بسرعة .** آه المدينة! على الرغم من جمالها إلا أنها تبقى هي المدينة".

وقد وافقته كلتاهما على هذا الرأي.

"هذه الساحة بالضبط ـ كما قيل لي ـ شهدت البارحة أكثر أنواع المآسي خساسة. وبالنسبة إلى شخص يحب فلورنسه دانتي وسافونارولا فإن هناك شيئاً منذر بالشرّ في مثل هذا الانتهاك للقدسية... منذر بالشرّ ومهين".

قالت الآنسة بارتلت: "مهين بالفعل. لقد حدث أن كانت الآنسة هنيتشرتش مارة عبر الساحة حين حدثت تلك المأساة. وهي لا تستطيع إلا بالكاد أن تتحمّل الحديث عنها".

سأل القس بلهجة أبوية: "وكيف حدث أننا نراك هنا؟".

لقد تبخرت الليبرالية الجديدة للآنسة بارتلت بعد هذا السؤال.

"لا تلمْها من فضلك يا سيد إيغر. أنا المذنبة. لقد تركتها تذهب دون وصيفة ترافقها".

"إذاً، كنت هنا وحدك يا آنسة هنيتشرتش؟" أوحى صوته باللوم المتعاطف، ولكنه أشار في الوقت نفسه إلى أن بعض التفاصيل المروّعة ستكون مقبولة. انحنى وجهه الأسمر والوسيم باتجاهها بحزن ليسمع جوابها.

"عملياً".

"لقد تلطف واحد من معارفنا ممن يقيمون في البنسيون نفسه وأوصلها إلى البيت". هذا ما قالته الآنسة بارتلت مع عدم تحديد جنس الفاعل. 

"بالنسبة إليها لا بدّ وأن الأمر كان بمثابة تجربة رهيبة. أثق بأنه ولا واحدة منكما حدث أن ... كانت قريبة جداً من مكان الحادث".

بين الأشياء الكثيرة التي لاحظتها لوسي اليوم كان هناك أمر معين ليس هو الأشدّ استثنائية: الأسلوب الشنيع الذي يستجيب به أشخاص محترمون للدم. كان جورج إمرسون قد أبقى الموضوع طاهراً على نحو غريب.

كان جوابها: "أعتقد أنه مات قرب النافورة".

"وأنت وصديقك..".

"كنا عند اللوغيا".

"كان من شأن هذا أن يوفر عليك الكثير من الألم. أنتما لم تريا بالطبع الرسوم المشينة التي نشرتها الصحافة الرخيصة والقذرة... هذا الرجل شخص ذميم. إنه يعرف تمام المعرفة أني من المقيمين، ومع ذلك فهو يستمر في إزعاجي حتى أقبل بوجهات نظره المبتذلة".

بالتأكيد كان بائع الصور في حلف واحد مع لوسي... مع الحلف الأبدي بين إيطاليا والشباب. لقد مدّ كتابه فجأة أمام الآنسة بارتلت

والسيد إيغر وهو يربط بين يديهما معاً بشريط صقيل وطويل من الكنائس والصور والمناظر الطبيعية.

صاح القسّ وهو يضرب بنكد أحد ملائكة "فرا أنجليكو": "هذا أكثر مما يمكن احتماله"! صرخ البائع بحدة. كان الكتاب أثمن مما قد يفترضه المرء.

بدأت الآنسة بارتلت تقول: "سأشتري عن طيب خاطر..".

قال السيد إيغر بحدة: "تجاهليه"، ثم تابعوا السير جميعاً مبتعدين عن الساحة.

ولكن لا يمكن تجاهل شخص إيطالي أبداً، خاصة حين يكون صاحب شكوى ما أو مَظْلمة. أصبحت ملاحقته الملغزة للسيد إيغر شديدة العناد، وراح الهواء يضجّ بتهديداته وعويله. راح يتوسل إلى لوسي: ألن تتدخّل يا ترى في صالحه؟ كان شخصاً فقيراً ـ صاحب أسرة ـ وذكر الضريبة المفروضة على الخبز. انتظر، هذَرَ، ثم تلقى تعويضاً، ولكنه لم يكن راضياً. لم يتركهم في حالهم حتى كان قد اجتاح أدمغتهم فلم يترك فيها أي أفكار، سواء كانت سارة أم مزعجة.

كان التسوّق هو الموضوع الذي نشأ كنتيجة الآن. وحسب توجيهات القس فقد اختارتا الكثير من الهدايا والتذكارات القبيحة: إطارات للصور صغيرة مزخرفة بدت وكأنها مصنوعة من معجّنات مذهّبة، وإطارات صغيرة أخرى أشدّ صرامة تنتصب فوق حوامل صغيرة؛ وقد نُحتت من خشب السنديان؛ دفتر من الورق النشاف، وصورة لدانتي من المادة نفسها؛ ودبابيس زينية رخيصة لن تميز الخادمات في عيد الميلاد القادم ما إذا كانت أصلية أم لا؛ وكذلك دبابيس وقدور وصحون عليها شارات النبالة وصور فنية بنية اللون؛ وكذلك صور لإيروس وبسايكه من الألابستر، وللقديس بطرس ليلائم ذلك كله؛ وكل هذه الأشياء كان يمكن شراؤها في لندن بسعر أقل.

ترك هذا الصباح الناجح انطباعات غير سارة على لوسي. لقد أصيبت بالخوف قليلاً من كل من الآنسة لاڤيش والسيد إيغر، ولم تعرف السبب في ذلك. وبما أنهما أخافاها، فإنها ويا للغرابة ما عادت تشعر بالاحترام تجاههما. لقد شكّت في أن تكون الآنسة لاڤيش فنانة عظيمة، وفي أن يكون السيد إيغر مترعاً بالروحانية والثقافة كما جعلوها تعتقد. لقد تمت محاكمتهما بواسطة اختبار جديد، وحُكم عليهما بأنهما غير كفؤين. أما فيما يخص شارلوت... أما فيما يخص شارلوت فهي لم تتغير. ربما يكون ممكناً أن يعاملها المرء بلطف، ولكن كان مستحيلاً أن يحبها.

"ابن عامل؛ لقد صدف أن عرفت ذلك على أنه حقيقة. وكان هو يعمل كميكانيكيّ من نوع ما في شبابه. ثم بدأ يكتب للصحافة الاشتراكية. لقد تعرفت عليه في بريكستون".

كانا يتحدثان عن السيد إمرسون.

"لكم يترقى الناس على نحو مثير للعجب في هذا الأيام"! تنهدت الآنسة بارتلت وهي تتلمس بأصابعها نموذجاً لبرج بيزا المائل.

أجاب السيد إيغر: "عموماً، لا يسع المرء سوى التعاطف مع نجاحهم. الرغبة في نيل المزيد من التعليم والتقدم الاجتماعي... هذان أمران لا شرّ فيهما، وهناك عمال يتمنى المرء لو يراهم هنا في فلورنسه... على الرغم من أنهم لن يستفيدوا إلا قليلاً".

سألت الآنسة بارتلت: "هل هو صحفي الآن؟".

"ليس كذلك. لقد حصل على زيجة متميزة".

وقد تلفظ بهذه الملاحظة بصوت مترع بالمغزى، وأنهى كلامه بتنهيدة".

"أوه، إذاً لديه زوجة".

"لقد توفيت يا آنسة بارتلت، توفيت... وأنا أتساءل... أجل، أتساءل كيف يتحلى بالوقاحة ويتحداني ويتجرأ على الزعم بأنه يعرفني. كان واحداً من أفراد رعيتي في لندن منذ زمن طويل. وفي ذلك اليوم في سانتا كروتشه، حين كان مع الآنسة هنيتشيرتش، فقد زجرتُه. فليدركْ هو أنه لا يستحق أكثر من ذلك".

صاحت لوسي وقد تضرج وجهها: "يستحق ماذا؟".

هسهس السيد إيغر: "يستحق الفضيحة"!

حاول تغيير الموضوع، ولكنه في إثارته لمسألة دراماتيكية فقد جذب اهتمام مستمعيه أكثر مما كان ينوي. كانت الآنسة بارتلت ذات فضول طبيعي جداً. أما لوسي، وعلى الرغم من أنها تمنت ألا ترى السيدين إمرسون مجدداً، فلم تكن ميالة إلى إدانتهما ولو بكلمة واحدة.

سألت: "أتعني أنه رجل مارق من الدين؟ نحن نعرف ذلك مسبقاً".

قالت الآنسة بارتلت وهي تؤنب ابنة عم أمها على نقدها: "يا عزيزتي لوسي..".

"عليّ أن أُدهش من معرفتكما لذلك كله. فالابن ـ وكان طفلاً بريئاً في ذلك الحين ـ مستثنى من ذلك كله. والله وحده يعلم ما صنعت به تربيته وصفاته الموروثة".

قالت الآنسة بارتلت: "ربما كان هذا أمراً نفضل ألا نسمعه".

قال السيد إيغر: "لو تكلمنا بصراحة فهو كذلك. لن أقول المزيد".

ولأول مرة انفجرت أفكار لوسي المتمردة بكلمات ... وذلك للمرة الأولى في حياتها.

"لقد قلتَ القليل جداً".

"كان قصدي أن أقول القليل جداً. هكذا كان رده البارد.

حدق بسخط إلى الفتاة التي قابلته بسخط مماثل. التفتت إليه من نضد الدكان وصدرها يخفق بسرعة. لاحظ جبينها والقوة المفاجئة في شفتيها. كان أمراً لا يُحتمل ألاّ تصدق ما يقوله.

صرخ بغضب: "القتل إن كنت تريدين معرفة ذلك. ذلك الرجل قتل زوجته"!

ردت عليه: "كيف حدث ذلك؟".

"لقد قتلها عن عمد في سبيل أهداف معينة. ذلك اليوم في سانتا كروتشه... هل قالا أي شيء ضدي؟".

"لم ينطقا بكلمة واحدة يا سيد إيغر... ولا كلمة واحدة".

"أوه، ظننت أنهما كانا يشهّران بي على مسمعك. ولكنني أفترض أن مفاتنهما الشخصية هي فحسب التي تجعلك تدافعين عنهما".

قالت لوسي وهي تفقد شجاعتها وتعود إلى الأساليب المشوشة القديمة: "أنا لا أدافع عنهما. لا يهمني أمرهما إطلاقاً".

قالت الآنسة بارتلت وقد انزعجت كثيراً من هذا المشهد غير السار، فربما كان صاحب الدكان يصغي إليهم: "وكيف أمكنك أن تفكر في أنها كانت تدافع عنهما؟".

"ستجد ذلك أمراً صعباً. فقد قتل ذلك الرجل زوجته تحت أنظار الربّ".

كانت إضافة كلمة "الرب" صادمة. ولكن القس كان يحاول بالفعل أن يغطي على ملاحظة متهورة. ثم تبع ذلك صمت يمكن أن يكون مؤثراً، ولكنه كان محرجاً فحسب. ثم اشترت الآنسة بارتلت وبسرعة "البرج المائل" واتجهت نحو الشارع.

قال وهو يغمض عينيه ويخرج ساعته: "عليّ أن أذهب".

شكرته الآنسة بارتلت على لطفه وتكلمت بحماسة عن الرحلة الوشيكة بالعربة".

"رحلة بالعربة؟ هل اقترب موعد الرحلة بالعربة؟".

لقد عادت لوسي إلى سلوكها المهذب، وبعد جهد قليل استعاد السيد إيغر لطفه.

صاحت الفتاة ما أن رحل القس: "اللعنة على الرحلة بالعربة! إنها الرحلة نفسها التي رتبناها مع السيد بيب دون أي هرج ومرج على الإطلاق. لماذا يدعونا هو بذلك الأسلوب العجيب؟ يمكننا نحن أن ندعوه. فنحن ندفع الأجرة كل واحدة منا عن نفسها".

جعلت هذه الملاحظة الآنسة بارتلت تتأمل في أفكار غير متوقعة بعد أن كانت تنوي أن تندب آل إمرسون.

"إن كان الأمر كذاك يا عزيزتي... إن كانت الرحلة التي سنقوم بها مع السيد بيب والسيد إيغر هي تلك التي كنا ستقوم بها مع السيد بيب، عندها فأنا أتنبأ بورطة أكيدة".

"كيف ذلك؟".

"لأن السيد بيب طلب من الآنسة لاڤيش أن تصطحبنا هي أيضاً".

"سيعني هذا عربة أخرى".

"الأمر أسوأ بكثير. فالسيد إيغر لا يحب إلينور، وهي تعرف ذلك: يجب أن تقال الحقيقة، فهو يعتبرها من النوع غير المحافظ إلى حد بعيد".

كانتا الآن في غرفة الصحف في "البنك الإنكليزي". وقفت لوسي عند المنضدة المركزية، دون أن تكترث بصحيفة "بنتش" أو "غرافيك"، إذ كانت تحاول أن تجيب على ـ أو أن تصوغ من جانب آخر ـ الأسئلة

التي كانت تصطخب في دماغها. لقد تحطم العالم المألوف. وها قد برزت فلورنسه كمدينة سحرية يفكر الناس فيها بأكثر الأشياء روعة ويقومون بها. القتل والاتهامات بالقتل، وسيدة تتمسك بأحد الرجال وتعامل آخر بفظاظة... هل هذه هي الحوادث اليومية لشوارعها؟ هل كان هناك في جمالها الصريح أكثر مما تراه العين... القدرة ربما، على إثارة العواطف، الجيد منها والرديء، وأن تحققها بسرعة؟

شارلوت السعيدة التي، وعلى الرغم من قلقها تجاه أمور لا قيمة لها، بدت متناسية لأمور ذات قيمة فعلاً. من كانت قادرة على أن تحدس برهافة مثيرة للإعجاب: "إلى أين ستؤدي بنا الأمور؟" ولكنها فقدت على ما يبدو الهدف وهي تقترب منه! والآن هاهي تنزوي في الركن محاولة أن تخرج ورقة نقود من كيس معلق في رقبتها كالمخلاة مصنوع من الكتان وقد أخفته باحتشام. لقد قيل لها إنه هذه هي الطريقة الوحيدة الآمنة لحمل النقود في إيطاليا، ثم لا يجب أن يُفتح إلا ضمن جدران بنك إنكليزي. وبينما كانت تتلمس همهمت: "سواء كان هو السيد بيب الذي نسي أن يقول للسيد إيغر الذي نسي ذكر ذلك حين أخبرنا، أو أنهما قررا أن يتناسيا إلينور نهائياً ـ وهو ما لا يستطيعان فعله أبداً ـ ولكن على أي حال، علينا أن نكون مستعدتين. إنهما يريدانكِ أنتِ. وهما يدعوانني لمجرد الحفاظ على المظهر. ستذهبين مع السيدين، وأنا وإلينور سنتبعكم. عربة يجرها حصان واحد ستكفينا. ومع ذلك، فكم هي الأمور صعبة"!

أجابت الفتاة بجدية بدت مترعة بالتعاطف: "إنها كذلك بالفعل".

سألت الآنسة بارتلت وقد احمر وجهها من الجهد الذي بذلته وراحت تزرّر ثوبها: "ما رأيك بالمسألة؟".

"لا أعرف ما أظنّ ولا ما أبغي".

"أوه، يا إلهي يا لوسي! آمل ألا تكون فلورنسه تُشعرك بالضجر. كل ما عليك هو أن تقولي ما تريدين، وأنا كما تعلمين سأصطحبك إلى آخر أصقاع الأرض غداً".

قالت لوسي: "شكراً يا شارلوت"، وراحت تتأمل في ذلك العرض.

كانت هناك رسائل لها في المكتب... كانت إحداها من أخيها، وهي مليئة بالرياضة وعلم الأحياء. كما كانت هناك رسالة من أمها، وهي مبهجة كما لا يمكن سوى لرسائل أمها أن تكون ذلك. وقد قرأت فيها عن أزهار الزعفران التي اشتريت على أنها صفراء ثم أصبحت حمراء أرجوانية، وعن الخادمة التي سقت السرخس بعطر الليمونادة، وعن الأكواخ المتلاصقة التي كانت تفسد "شارع سمر"، وتحطم قلب السير هاري أوتواي. تذكرت الحياة الحرة المبهجة في بيتها، حيث كان يُسمح لها أن تفعل كل شيء، وحيث لا يحدث لها شيء. كان الطريق صعوداً عبر غابات الصنوبر وغرفة الضيوف النظيفة، والمنظر من فوق "سسكس ويلد"... كل هذا كان معلقاً أمامها لامعاً وواضحاً، إنما محزن شأن الصور في معرض يعود إليه المسافر، بعد الكثير من التجارب والخبرات.

سألت الآنسة بارتلت: "ما الأخبار؟".

"السيدة ڤايز وابنها سافرا إلى روما"، هذا ما قالته لوسي وهي تنبئها بالخبر الذي لا يهمها أمره إلا قليلاً. "هل تعرفين آل ڤايز؟".

"أوه، لا نريد طريق العودة من هنا. لا يمكننا أبداً أن نشبع من ساحة السيدة".

"إنهم أشخاص طيبون، آل ڤايز. أذكياء جداً... يمثلون فكرتي عن الذكاء الحقيقي. ألا تتمنين أن تكوني في روما؟".

"أموت توقاً إليها"!

كانت ساحة السيدة كثيرة الحجارة بحيث لا تبدو مشرقة. لم يكن فيها عشب ولا ورود ولا لوحات جصية أو آجر أحمر اللون. وبموجب صدفة عجيبة ـ ما لم نكن نؤمن بعبقرية الأماكن المسيطرة ـ كانت التماثيل التي تخفّف من صرامة الساحة توحي ليس ببراءة الطفولة ولا بالحيرة الرائعة للشباب، بل بالإنجاز الواعي لسنّ الرشد. كانت تماثيل پرسيوس وجوديث، وهرقل وثوسلندا، قد فعلت شيئاً ما أو عانت من شيء ما. ورغم أنها خالدة، فإن الخلود قد جاء إليها بعد الخبرة وليس قبل ذلك. وهنا، وليس في عزلة الطبيعة فقط، يمكن للبطل أن يقابل إلهة أو بطلة أو إلهاً.

صاحت الفتاة فجأة: "شارلوت! إليك هذه الفكرة. ماذا لو انطلقنا غداً إلى روما ـ مباشرة ـ نحو فندق آل ڤايز؟ أنا أعرف حقاً ما أريد. لقد مللتُ حتى المرض من فلورنسه. هيا، فلقد قلت لي إنك مستعدة للذهاب إلى أقاصي الأرض من أجلي! هيا! هيا!".

أجابت الآنسة بارتلت: "أوه، يا لك من فتاة مضحكة! قولي، ما الذي سيحدث لرحلتنا بالعربة إلى الجبال؟".

مرتا معاً عبر الجمال الكئيب للساحة، وهما تضحكان من ذلك الاقتراح غير العملي.

* * *

# الفصل [6]

## القسيس آرثر بيب والقس كاثبرت إيغر والسيد إمرسون والسيد جورج إمرسون والآنسة إلينور لافيش والآنسة شارلوت بارتلت والآنسة لوسي هنيتشيرتش يركبون العربات ليروا منظراً جميلاً، ويقودهم إيطاليون

كان "فايثون"[1] هو الذي قاد بهم العربة إلى "فيزوله" في ذلك اليوم الجدير بالتذكّر، وهو شاب مليء باللا مسؤولية والنار، وقد راح يحثّ حصاني سيده بتهور صعوداً في الجبل الصخري. ميّزه السيد بيب على الفور. لم تكن "عصور الإيمان" ولا "عصور الشكّ" قد مسّته: كان فايثون في توسكاني يقود عربة. وكانت "برسفونه"[2] هي التي طلب منها الإذن لمعرفة تفاصيل الطريق، قائلاً إنها كانت أخته: برسفونه، الطويلة والرشيقة والشاحبة، تعود مع الربيع إلى كوخ أمها، وما تزال تحجب عينيها من النور الذي لم تعتد عليه. ولقد اعترض عليها السيد إيغر قائلاً:هنا كانت الحافة الرفيعة للإسفين، وعلى المرء أن يحذر من الخداع. ولكن السيدات تدخلن، وحين اتضح أن في الأمر منّة كبيرة، سمح للإلهة بالركوب إلى جانب الإله.

---

(1) فايثون: إله إغريقي كان ذا سلوك وقح، ويركب عربة يتسبب بها في حصول الكوارث الطبيعية. المترجم.

(2) برسفونه: ابنة زوس وديميتر وملكة العالم السفلي. المترجم.

وعلى الفور مرّر فايثون العنان الأيسر من فوق رأسها، وهكذا تمكن من أن يقود العربة وذراعه من حول خصرها. لم تمانع. أما السيد إيغر، الذي كان جالساً وظهره إلى الحصانين، فلم يرَ شيئاً من هذا الفعل غير المحتشم، فتابع الحوار مع لوسي. وكان الراكبان الآخران في العربة هما السيد إمرسون العجوز والآنسة لاڤيش. فقد كان شيء رهيب قد حدث، إذ أن السيد بيب دون أن يشاور السيد إيغر، ضاعف من عدد أعضاء المجموعة المشاركة في الرحلة. وعلى الرغم من أن الآنسة بارتلت والآنسة لاڤيش راحتا تخططان طوال الصباح كيفية جلوس الأشخاص، إلا أنه جرى في اللحظة الحاسمة حين وصلت العربة أن جنّ جنون الجميع، فركبت الآنسة لاڤيش مع لوسي في إحدى العربتين بينما امتطت الآنسة بارتلت مع جورج إمرسون والسيد بيب العربة الأخرى خلف الأولى.

كان صعباً على القس المسكين أن يطرأ مثل هذا التحوّل على "مجموعته الرباعية". كما كان تناول الشاي في تلك الڤيلا من عصر النهضة، لو كان قد فكّر فيه على الإطلاق، قد أصبح مستحيلاً الآن. كان للوسي والآنسة بارتلت أسلوبهما الخاص بهما، والسيد بيب، على الرغم من أنه غير جدير بالثقة، إلا أنه كان رجلاً متعدد المواهب. ولكن كاتبة متفاخرة بنفسها وصحافياً قتل زوجته تحت أنظار الربّ... لا يجوز أن يدخلا إلى ڤيلا بواسطته.

كانت لوسي قد ارتدت ثوباً أنيقاً أبيض اللون وجلست بانتصاب وفي حالة عصبية بين هذه المكوّنات المتفجّرة، وراحت تجامل السيد إيغر وتعامل الآنسة لاڤيش بأسلوب يدل على كظم للغيظ، وتراقب السيد إمرسون العجوز بحذر، وهو الذي كان، لحسن الحظ، نائماً حتى الآن، بفضل وجبة غداء ثقيلة والطقس الربيعي الذي يوحي

بالنعاس. راحت تنظر إلى هذه الرحلة وكأنها من صنع القدر، ولكنها تجنبت جورج إمرسون بنجاح. لقد عبّر بأسلوب صريح عن رغبته في أن يستمرا في التعامل بألفة فيما بينهما. وكانت قد رفضت ذلك، ليس لأنها تكرهه، بل لأنها لم تكن تعرف ما الذي جرى، ولكنها تشكّ في أنه كان يعرفه فعلاً. وكان هذا يخيفها.

فالحدث الحقيقي ـ مهما كان هذا الحدث ـ لم يجر في اللوغيا بل قرب النهر. التصرف بتهور تجاه مشهد الموت أمر يمكن غفرانه. أما مناقشته بعد ذلك، والانتقال من النقاش إلى الصمت ثم التعاطف، فهذه غلطة، وليست غلطة انفعال مشوب بالارتياع، بل هي غلطة بكل ما في الكلمة من معنى. كان هناك حقاً أمر يستحق اللوم (كما فكرت) في تأملهما المشترك للنهر الظليل وفي الدافع المشترك الذي دفعهما إلى المنزل دون نظرة أو كلمة. هذا الشعور بحدوث شيء شرير كان خفيفاً في البداية. لقد كادت تنضم إلى المجموعة التي ذهبت إلى توره ديل غالو. ولكنها في كل مرة تجنبت فيها جورج أصبح لديها شعور إلزامي بأن عليها أن تتجنّبه مجدداً. والآن هاهي السخرية السماوية التي حققت مسعاها عبر ابنة عم أمها واثنين من القساوسة، لم تدعها تغادر فلورنسه حتى تقوم هي بهذه الرحلة في الجبال في صحبته.

في هذه الأثناء كان السيد إيغر يبادلها حواراً مهذباً، فقد كان شجارهما الصغير السابق قد انقضى.

"إذاً يا آنسة هنيتشرتش أنت تسافرين كطالبة للفنون؟".

"أوه، يا إلهي، كلا... أوه كلا"!

قاطعت الآنسة لاڤيش الحوار قائلة: "ربما كطالبة تدرس الطبيعة البشرية شأني أنا".

"أوه، كلا. أنا هنا كسائحة".

قال السيد إيغر: "أوه، حقاً. هل أنت سائحة بالفعل؟ وإذا لم تعتبريني فظاً، فنحن المقيمين نرثي لكم أحياناً أنتم السائحين المساكين كثيراً: فأنتم تُنقَلون كرزمة بضاعة من البندقية إلى فلورنسه، ومن فلورنسه إلى روما، وتُحشرون كما القطيع في البانسيونات أو الفنادق، غير مدركين لأي شيء خارج كتاب بايديكر، وكل همّكم هو أن تنتهوا من شيء ما لتذهبوا إلى مكان آخر من أجل شيء آخر. والنتيجة هي أن السياح يخلطون ما بين مدينة وأخرى ونهر وآخر وقصر وأخر في دوامة واحدة لا نجاة منها. تعرفين الفتاة الأمريكية في مجلة (بنتش) التي قالت: (قل يا بابا ما الذي رأيته في روما؟) ويجيب الأب: (عجباً، أعتقد أن روما هي المكان الذي رأينا فيه الكلب الأصفر). هذا هو السفر! ها!ها!ها"!.

قالت الآنسة لاڤيش، وهي التي حاولت مقاطعة تعليقه اللاذع مرات عديدة: "أوافقك تماماً. إن ضيق أفق وسطحية السائح الأنكلو ـ سكسوني هما مجرد تهديد ولا شيء آخر".

"هذا صحيح تماماً. فلننظر الآن إلى المستوطنة الإنكليزية في فلورنسه، يا آنسة هنيتشيرتش، وهي كبيرة في حجمها، ولكن بالطبع ليس جميع من فيها متشابهون... فالبعض هنا موجودون بهدف التجارة. ولكن الجزء الأكبر هم من الطلاب. والليدي هيلين لافرستوك مشغولة الآن بفرا أنجليكو[1]. وأنا أذكر اسمها لأننا نمرّ بفيلتها التي إلى اليسار. كلا، لا يمكنك رؤيتها إلا إذا وقفت. سوف تقعين لو فعلت. وهي فخورة جداً بذلك السياج الكثيف. في الداخل عزلة تامة. قد يعود المرء إلى الوراء ستمائة سنة بحالها. يعتقد بعض

(1) فرا أنجليكو: رسام إيطالي (1395- 1455). المترجم.

النقاد أن حديقتها كانت مسرحاً لأحداث حكايات (ديكاميرون) مما يضفي عليها أهمية أكبر، أليس كذلك؟".

صاحت الآنسة لاڤيش: "هذا صحيح بالفعل! قل لي هل يحددونها على أنها مسرح لأحداث اليوم السابع الرائع؟".

ولكن السيد إيغر تابع كلامه ليحكي للآنسة هنيتشيرتش أنه إلى اليمين يسكن السيد فلان الفلاني، وهو أمريكي من أفضل نمط ـ من نمط نادر جداً ـ وأن أشخاصاً آخرين كانوا يسكنون على سفح الجبل نفسه قريباً منه. "لا شك أنك تعرفين مقالات تلك السيدة في سلسلة "الطرق الفرعية القروسطية؟" إنه يحقق في الفيلسوف جيميستوس بليتو الإغريقي. أحياناً حين أتناول الشاي في الأرض الجميلة المحيطة بمسكنهم، أسمع من فوق الجدار صوت الترام الكهربائي وهو يزعق على امتداد الطريق الجديدة بحمله من السياح المحرورين والمغبرين وعديمي الذكاء الذاهبين لمشاهدة (فيزوله) خلال ساعة من الزمن، حتى يقولوا إنهم زاروا ذلك المكان، وأعتقد ـ على ما أظن ـ أنهم لا يفكرون إلا قليلاً بما هو قريب منهم إلى ذلك الحد".

خلال خطابه هذا كان الشخصان الجالسان على مقعد الحوذي يعبثان الواحد مع الآخر على نحو مشين. اعترت لوسي نوبة من الحسد. فمع التسليم بأنهما سيتصرفان بهذا الأسلوب المخزي، إلا أنه كان أمراً سائغاً بالنسبة إليهما أن يتمكنا من فعل ذلك. ربما كانا الشخصين الوحيدين اللذين يستمتعان بالرحلة. راحت العربة تجتاح الطريق صعوداً مع رجّات ونخعات مؤلمة عبر ساحة "فيزوله" ثم نحو طريق سيتينيانو.

قال السيد إيغر بالإيطالية وهو يلوّح بيده فوق رأسه بأناقة: "أبطئ السير. أبطئ السير".

دندن الحوذي بالإيطالية: "كل شيء على ما يرام يا سيدي، على ما يرام، على ما يرام". ثم ساط حصانيه مجدداً.

والآن بدأ السيد إيغر والآنسة هنيتشيرتش يتبادلان الحوار حول موضوع "أليسيو بالدوڤينيتي". هل كان سبباً من أسباب "عصر النهضة" أم واحداً من مظاهرها؟ أما العربة الأخرى فقد بقيت في الخلف. ومع زيادة السرعة إلى عدو، فإن الشكل الضخم والنائم للسيد إمرسون راح يرتمي على القس بانتظام آلة من الآلات.

قال بنظرة أشبه بنظرة شهيد: "أبطئ السير. أبطئ السير".

جعله تمايل آخر للعربة يستدير بغضب في مقعده. كان فايثون قد نجح أخيراً بتقبيل برسفونه للتو بعد محاولات عديدة كانت تجري منذ بعض الوقت.

جرى مشهد صغير بعد ذلك وصفته الآنسة بارتلت لاحقاً بأنه كان مزعجاً جداً. توقف الحصانان عن العدو، وأُمر العاشقان بالانفصال الواحد عن الآخر، وقيل للشاب إنه سيخسر بقشيشه، كما أُمرت الفتاة بالترجل على الفور.

قال وهو يلتفت إليهم بعينين تستحقان الرثاء: "إنها أختي".

تشجم السيد إيغر عبء الرد عليه بأنه كاذب. طأطأ فايثون رأسه، ليس بسبب التهمة، ولكن بسبب أسلوبها. في هذه اللحظة، صرح السيد إمرسون الذي أيقظته صدمة التوقف، بأنه لا يجب الفصل بين العاشقين بأي حال من الأحوال؛ ثم ربت على ظهريهما كدليل على استحسانه. شعرت الآنسة لاڤيش، على الرغم من عدم رغبتها في التحالف معه، بأنها ملزمة بدعم قضية "البوهيمية".

صاحت: "بكل تأكيد أؤكد أننا يجب أن نتركهما معاً، ولكنني أجرؤ على القول بأني لن أنال سوى القليل من الدعم. لقد وقفت دائماً وطوال حياتي في وجه التقاليد. وهذا ما أسميه بالمغامرة".

قال السيد إيغر: "ليس علينا أن نستسلم. أعرف أنه كان يجرّب. إنه يعاملنا وكأننا مجموعة من سياح كوك"(1).

قالت الآنسة لاڤيش وقد راحت حماستها تخفّ بجلاء: "كلا بالتأكيد".

كانت العربة الأخرى قد توقفت خلفهم، وقال السيد بيب العمليّ الاسلوب إنه بعد هذا التحذير لا شك أن هذين الشخصين سيتصرفان على النحو الملائم.

"اتركهما بحالهما"، هكذا توجّه السيد إمرسون بالرجاء إلى القسّ، ولم يكن خائفاً منه. "هل نجد السعادة في أحيان كثيرة وإلى حد أن نطردها عن مقعد الحوذي حين يحدث أن تجلس هناك؟ أن يقودنا عاشقان... هذا أمر جدير بأن يحسدنا عليه حتى الملوك، ولو فرقنا فيما بينهما فهذا أشبه ما يكون بتدنيس المقدسات من أي شيء آخر أعرفه".

وهنا سُمع صوت الآنسة بارتلت وهي تقول إن هناك حشداً من الناس قد بدأ بالتجمع.

كان السيد إيغر الذي يعاني من لسان ذرب جداً وليس من إرادة ذات تصميم، موطداً العزم على أن يتم الإصغاء إليه. خاطب الحوذي مجدداً. كانت اللغة الإيطالية من فم شخص إيطالي جدولاً عميق الصوت، مع شلالات وصخور ضخمة حتى تحميها من أن تكون رتيبة. أما من فم السيد إيغر فلم تكن تشبه أي شيء سوى نافورة من الأسيد ذات صفير يرتفع ضجيجها أعلى فأعلى، ثم أسرع فأسرع، ثم أكثر حدة فأكثر حدة، حتى تنتهي بفرقعة.

قال الرجل مخاطباً لوسي بعد أن انتهى المشهد: "سينيورينا"! لماذا يتوسل إلى لوسي؟

---

(1) سياح كوك: سياح يتبعون في سياحتهم ما ورد في دليل كوك للسياح. المترجم.

كررت برسفونه بعده بصوتها القراري الرائع: "سنيورينا"! وأشارت إلى العربة الأخرى. لماذا؟

لبرهة تبادلت الفتاتان النظر، ثم هبطت برسفونه من على مقعد الحوذي.

قال السيد إيغر وهو يصفق بيديه مع انطلاق العربة مجدداً: "النصر أخيراً"!

قال السيد إمرسون: "ليس انتصاراً وليس هزيمة. لقد فرّقتَ بين شخصين كانا سعيدين".

أغمض السيد إيغر عينيه. كان مضطراً إلى الجلوس إلى جانب السيد إمرسون، ولكنه لم يكن راغباً في أن يخاطبه. كان الرجل العجوز قد انتعش بالقيلولة التي حاز عليها، وراح يتعامل مع المسألة بحماسة. أمر لوسي بأن توافقه في الرأي، ثم صرخ لابنه طالباً منه الدعم.

"لقد حاولنا أن نشتري ما لا يمكن شراؤه بالنقود. راهن هو على أن يقود عربتنا، وهو يفعل ذلك. لا حقوق لنا على روحه".

قطبت الآنسة لاڤيش جبينها. كان الأمر شاقاً عليها، فهاهو شخص صنّفته هي على أنه بريطاني إلى حد نموذجي، يتصرف على نحو لا يتطابق مع شخصيته.

قالت: "لم يكن يقود العربة جيداً. كان يقودها بأسلوب يسبب الرجّات والنخعات".

"أنا أنكر هذا. كانت قيادته مريحة بقدر ما هو النوم مريح. آهه! إنه ينخع العربة الآن. هل يمكنك أن تتعجبي من ذلك؟ إنه ليودّ أن يرمي بنا خارجاً، وبكل تأكيد فإن تصرفه مبرر. ولو كنت أؤمن بالخرافات لكنت سأشعر بالخوف من الفتاة أيضاً. لا يجوز أن نسبب الأذى للشبان. هل سبق لكم وسمعتم بلورنزو ميديتشي؟".

اتخذت الآنسة لاڤيش موقفاً هجومياً.

"لقد سمعتُ به بكل تأكيد. هل تلمّح إلى لورنزو العظيم، أم لورنزو دوق أوربينو، أم لورنزو الذي كنيته لورنزينو بسبب قامته الصغيرة؟".

"الرب وحده يعرف. ربما يعرف حقاً، فأنا ألمح إلى لورنزو الشاعر. لقد كتب بيتاً من الشعر ـ هكذا سمعت البارحة ـ يقول فيه ما يلي: (لا تحارب الربيع)".

لم يستطع السيد إيغر الآن أن يقاوم فرصة التفاخر بسعة معرفته.

همهم بالإيطالية: "لا تحارب شهر أيار (مايو)"، ثم ترجمها إلى الإنكليزية وعقب قائلاً: "هذا هو المعنى الصحيح لذلك البيت".

"الأمر الأساسي هو أننا حاربنا. انظروا"! وأشار إلى وادي نهر آرنو الذي كان مرئياً في الأسفل البعيد عبر الأشجار المبرعمة. "خمسون ميلاً من الربيع، ونحن قد صعدنا إلى هنا لنتأملها بإعجاب. هل تفترضون وجود أي فرق بين الربيع في الطبيعة والربيع في الإنسان؟ ولكن هانحن نطلق لنمدح أحدهما وندين الآخر على أنه بذيء، ونشعر بالخجل لأن القوانين نفسها تعمل عملها إلى الأبد عبرهما كليهما".

لم يشجعه أحد على الكلام. والآن أعطى السيد إيغر إشارة إلى العربتين لتتوقفا، وقاد المجموعة لتبدأ جولتها في الجبل. كانت حفرة هائلة أشبه بمسرح مدرّج، مليئة بالدرجات التي لها شكل الشرفات وشجرات زيتون ضبابية، تفصل الآن ما بينهم وبين مرتفعات فيزوله، والطريق الذي كان ما يزال يشكل منعطفاً، أوشك أن ينقضّ على قنّة الجبل التي كانت تبرز من السهل. وكانت هذه القنّة، غير المزروعة والرطبة والمغطاة بالشجيرات وبعض الأشجار المتفرقة، هي التي

أثارت إعجاب أليسيو بالدوڤينيتي قبل خمسمائة عام تقريباً. كان يصعد إليها ذلك المعلّم المجتهد والذي يكاد يكون مجهولاً إلى حد ما، ربما من أجل التجارة وربما في سبيل متعة التسلّق صعوداً. كان يقف هناك فيرى مشهد وادي آرنو ومدينة فلورنسه البعيدة، والتي رسمها لاحقاً في أعماله، إنما ليس على نحو رائع جداً. ولكن أين كان يقف بالضبط؟ كان ذلك هو السؤال الذي كان السيد إيغر يأمل في إيجاد جواب عليه الآن. وقد أصبحت الآنسة لاڤيش، وهي التي تتمتع بطبيعة تنجذب إلى شيء يصعب البتّ فيه، متحمسة بالقدر نفسه.

ولكن ليس من السهل حمل لوحات أليسيو بالدوڤينيتي في رأسك، حتى لو أنك تذكرت أن تنظر إليها قبل البدء برحلتك. كما أن السديم في الوادي كان يزيد من صعوبة مثل هذا البحث. راحت المجموعة تتقافز من بقعة مغطاة بالعشب إلى أخرى، وكان حرصهم على البقاء معاً لا يساويه سوى رغبتهم في الذهاب باتجاهات مختلفة. وأخيراً انقسموا إلى مجموعات صغيرة. انضمت لوسي إلى الآنسة لاڤيش. عاد السيدان إمرسون ليحاورا الحوذيين بجهد، بينما بقي رجلا الدين اللذان كان من المتوقع أن تكون لهما مواضيع مشتركة، وحيدين.

سرعان ما رمت السيدتان الأكبر سناً بقناعيهما بعيداً. ففي الهمس المسموع الذي أصبح مألوفاً لدى لوسي الآن، بدأتا بمناقشة هذه الرحلة وليس أليسيو بالدوڤينيتي. كانت الآنسة بارتلت قد سألت السيد جورج إمرسون عن مهنته، وكان قد أجابها بأنه يعمل في "السكة الحديد". كانت آسفة جداً لأنها طرحت عليه ذلك السؤال. لم يخطر في بالها بأنها ستتلقى مثل ذلك الردّ الرهيب، وإلا فإنها ما كانت لتسأله. وقد أدار السيد بيب الحوار بمهارة كبيرة، وكانت تأمل ألاّ يكون الشاب قد انزعج من سؤالها.

شهقت الآنسة لاڤيش: "السكة الحديد! أوه، ولكني سأموت! بالطبع هو يعمل في السكة الحديد"! لم تستطع ضبط مرحها. "إنه صورة حقيقية لحمّال... على رصيف محطة ساوث إيسترن".

"اسكتي يا إلينور"، هكذا راحت تشد رفيقتها شديدة الحيوية من ثوبها. صه! سيسمعاننا... السيدان إمرسون ."..

"لا أستطيع التوقف عن الضحك. دعيني أمارس أسلوبي الشرير".

"إلينور"!

قاطعتهما لوسي قائلة: ""أنا على ثقة من أن الأمر على ما يرام. لن يسمعكما السيدان إمرسون. كما أنهما لن يكترثا حتى لو سمعانا".

لم يبد على الآنسة لاڤيش أنها قد سرّت لسماع هذا الكلام.

قالت بنزق إلى حدّ ما: "الآنسة هنيتشيرتش تصغي! أف! أف! أيتها الفتاة الشريرة! ابتعدي"!

"أوه يا لوسي، كان عليك أن ترافقي السيد إيغر، وأنا واثقة من ذلك".

"لا أستطيع أن أجدهم الآن، ولا أريد ذلك أيضاً".

"لا بدّ وأن السيد إيغر سينزعج، فتلك هي مجموعتك".

"أرجوكما، أفضّل التوقف هنا".

قالت الآنسة لاڤيش: "كلا، أنا أوافق. هذا أشبه بعيدٍ مدرسيّ؛ فلقد انفصل الصبيان عن البنات. يا آنسة لوسي، عليك أن تذهبي. نودّ أن نتحاور حول مواضيع سامية لا تلائم أذنيك".

كانت الفتاة عنيدة. ومع اقتراب فترة مكوثها في فلورنسه من الانقضاء، فقد كانت مرتاحة لمجرد وجودها بين أولئك الذين لا تكترث بهم. وكانت الآنسة لاڤيش من هذا الصنف من الناس،

وهكذا كانت شارلوت أيضاً في هذه اللحظة. تمنّت لو أنها لم تلفت النظر إلى وجودها. لقد انزعجتا كلتاهما من ملاحظتها وبدتا مصممتين على التخلص منها.

قالت الآنسة بارتلت: "لكم يشعر المرء بالتعب، أوه، أتمنى فعلاً لو كان فريدي وأمّك هنا".

كانت غيرية الآنسة بارتلت قد اغتصبت تماماً وظائف الحماسة. لم تكن لوسي تتفرج على المنظر هي أيضاً. ما كانت لتستمتع بأي شيء حتى تصل سالمة إلى روما".

قالت الآنسة لاڤيش: "إذاً، اجلسي! راقبي بُعْدَ نظري".

وبكثير من الابتسامات أخرجت قطعتين من تلك الأنسجة المربعة الشكل والتي تقي ضد البلل، وتستعمل لحماية السائح من العشب الرطب أو الدرج الرخامي البارد. جلست هي على واحدة منهما، ومن كانت ستجلس على الثانية يا ترى؟

"لوسي؛ دون أن لحظة من التردد، لوسي. أستطيع أنا الجلوس على الأرض، فأنا لم أعرف الروماتزم منذ سنوات. وإذا ما شعرتُ بأنه سيعود إليّ سأقف. تصوري مشاعر أمك لو تركتك تجلسين على الأرض في ثوبك الأبيض الكتان". وجلست بثقل على الأرض التي لم بدت رطبة على نحو خاص. "ها نحن، وقد استقرت بنا الحال وملأتنا السعادة والبهجة. وحتى لو كان ثوبي أرقّ، إلا أنه إلا أنه لن تظهر عليه آثار البلل كثيراً لأنه بنّي اللون. اجلسي يا عزيزتي؛ أنت شديدة الغيرية، وأنت لست عنيدة بما فيه الكفاية". تنحنحت ثم قالت: "والآن لا تقلقي. هذا ليس زكاماً. إنه سعال خفيف جداً، وأنا أعاني منه منذ ثلاثة أيام. لا علاقة له بالجلوس هنا إطلاقاً".

لم تكن هناك سوى طريقة واحدة لمعالجة الوضع. بعد انقضاء خمس دقائق، غادرتهما لوسي بحثاً عن السيد بيب والسيد إيغر، وقد غلبتها قطعة القماش المربعة المضادة للبلل.

خاطبت لوسي الحوذيين اللذين كانا يتمددان في العربتين وهما يعطران الوسائد برائحة السيجار. كان الوغد بينهما، وهو شاب نحيل لوحته الشمس حتى الاسوداد، قد نهض ليحييها بلباقة مضيف وثقة واحد من الأقرباء؟

قالت لوسي بعد الكثير من التفكير القلق بالإيطالية: "أين؟".

أشرق وجهه. بالطبع كان يعرف "أين"، ولكن ليس إلى ذلك الحد أيضاً. اجتاحت ذراعه ثلاثة أرباع الأفق. عليه أن يفكر فحسب أين. ضغط بأنامله على جبينه ثم أشار بها إليها، كأنما كانت ترشح منه خلاصة المعرفة.

بدا أن عليها أن تقول المزيد. ما كانت يا ترى هي الكلمة الإيطالية لرجل الدين؟

قالت أخيراً: "أين الرجلان الصالحان؟".

هل كان هذا صحيحاً؟ هل كانت تلك هي الصفة الصحيحة لذينك الرجلين النبيلين؟ أراها سيجاره.

قالت بالإيطالية: "الرجل الكبير الصغير". وكانت هذه هي عبارتها التالية التي أرادت منها أن تلمح إلى ما يلي: "هل السيد بيب هو من أعطاك السيجار، وهو الأصغر بين الرجلين الصالحين؟".

وكانت مصيبة في رأيها كالعادة. ربط هو الحصان إلى شجرة ورفسه حتى يبقى هادئاً، ثم نفض الغبار عن العربة، رتّب شعره،

وأصلح وضع قبعته، مسح على شاربيه، وخلال أقل من ربع دقيقة كان مستعداً ليدلها على الطريق. يولد الإيطاليون وهم يعرفون الدرب. ويبدو وكأن الأرض كلها كانت تمتدّ أمامهما، ليس كخريطة، بل كرقعة شطرنج، حيث تنظر الاستمرارية إلى القطع المتغيرة كما تنظر إلى مربعات الرقعة. يمكن لأي شخص أن يجد الأماكن، ولكن إيجاد الناس هبة من الله.

توقف مرة واحدة فحسب، ليقطف لها بعض أزهار البنفسج الكبيرة. شكرته بسرور حقيقي. كان العالم ـ برفقة هذا الرجل العامي ـ جميلاً ومباشراً. ولأول مرة أحست بتأثير الربيع عليها. اجتاحت ذراعه الأفق برشاقة؛ أزهار البنفسج، شأن الأشياء الأخرى، كانت متواجدة بكثافة هناك. هل تود أن تراها؟

قالت بالإيطالية: "ولكن ماذا عن الرجلين الصالحين؟".

انحنى لها. بكل تأكيد. الرجلان الصالحان أولاً، ثم أزهار البنفسج. تقدما بنشاط عبر الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة التي بدأت تصبح أكثف فأكثف. كانا يقتربان من حافة قنّة الجبل، وكان المنظر ينسلّ من حولهما، ولكن الشبكة البنية اللون من الشجيرات كانت تحطمه إلى قطع لا حصر لها. كان هو مشغولاً بسيجاره، وفي إزاحة الأغصان المرنة. وكانت هي تحتفل بهربها من الملل. لم تكن أي خطوة ولا غصن دون مغزى بالنسبة إليها.

"ما هو ذاك؟".

كان هناك صوت في الغابة، على مسافة خلفهما. هل كان ذلك صوت السيد إيغر؟ هزّ كتفيه دون مبالاة. إن جهل الشخص الإيطالي

قد يكون أحياناً أروع من معرفته. لم تستطع أن تجعله يفهم أنهما قد يكونان قد مرّا برجل الدين ولم يرياه. كان المنظر الطبيعي يتشكل أخيراً؛ واستطاعت أن تميّز النهر والسهل الذهبي والجبال الأخرى.

صاح: "انتبهي"!

في تلك اللحظة نفسها انهارت الأرض أمامها، وبصرخة سقطت خارجة من الغابة. كان النور والجمال يحيطان بها من كل جانب. لقد سقطت فوق شرفة صغيرة مفتوحة كانت مغطاة بأزهار البنفسج من أولها إلى آخرها.

صرخ رفيقها وهو يقف على ارتفاع ستة أقدام من فوقها: "الشجاعة! الشجاعة والحب"!

لم تجبه. عند قدميها كانت الأرض تنحدر في جداول ونهيرات وشلالات، فتروي جانب الجبل باللون الأزرق، وتدوّم من حول جذوع الأشجار، وتتجمع في برك ضمن الفجوات، فتغطي العشب ببقع من الرغوة الزرقاء. ولكنها لم تكن بعد ذلك بكل هذه الكثافة. كانت هذه الشرفة هي رأس النبع، المصدر الرئيسي الذي يندفع منه الجمال ليسقي الأرض.

واقفاً عند حافتها، كالسبّاح الذي يتهيأ للغوص، كان ذلك الرجل الصالح. ولكنه لم يكن رجل الدين الذي كانت تنتظره، وكان وحيداً.

كان جورج قد التفت عندما سمع صوت وصولها. ولبرهة راح يتأملها، وكأنها سقطت من السماء. شاهد بهجة متلألئة في وجهها، وشاهد الأزهار وهي تضرب ثوبها بموجات زرقاء. انغلقت الشجيرات فوقهما. اقترب منها على عجل وقبّلها.

وقبل أن تتمكن من الكلام، وقبل أن تشعر تقريباً، نادى صوت ما: "لوسي! لوسي! لوسي"! حطمت الآنسة بارتلت صمت الحياة، وهي تقف بثوبها البنّي اللون أمام المنظر الطبيعي الخلاب.

* * *

# الفصل [7]

## هاهم يعودون

كانت لعبة معقدة تلك التي تجري على جانب الجبل طوال فترة ما بعد الظهر. تأخرت لوسي في اكتشاف ماهية اللعبة وكيف كان اللاعبون ينحازون إلى هذا أو ذاك. قابلهم السيد إيغر بعينين متسائلتين. كانت شارلوت قد خيبت رجاءه بالكثير من الكلام التافه. أما السيد إمرسون الذي كان يبحث عن ابنه، فقد أنبأوه عن المكان الذي سيجده فيه. كما طُلب من السيد بيب، الذي كان يتخذ المظهر الغاضب لشخص حيادي، أن يجمع الشتات من أجل رحلة العودة. ساد حسّ عام بضياع الهدف والحيرة. كان "بان" بينهم، ليس الإله العظيم "بان" الذي دُفن قبل ألفي سنة، إنما الإله الصغير "بان" الذي يهيمن على الحوادث المؤسفة والنزهات الفاشلة. كان السيد بيب قد أضاع الجميع، وقد استهلك في عزلته كل ما حوته سلّة الشاي التي جلبها كمفاجأة سارة. وكانت الآنسة لافيش قد تاهت عن الآنسة بارتلت، كما أضاعت لوسي السيد إيغر، واضاع السيد إمرسون ابنه جورج. هذا وقد أضاعت الآنسة بارتلت قطعة القماش المضاد للبلل. أما فايثون فقد أضاع اللعبة كلها.

كانت الحقيقة الأخيرة أمراً غير مرغوب فيه. صعد إلى مقعده وهو يرتجف، وقد رفع ياقته عالياً، وراح يتنبأ بالدنو الوشيك للطقس الرديء.

قال لهم: "هيا بنا ننطلق على الفور. السينيورينو سيمشي".

قال السيد بيب: "يمشي الطريق كله؟ سيستغرق ذلك منه ساعات بحالها".

"هذا ما يبدو الأمر عليه. لقد قلت له إنه ليس بالأمر الحكيم فعل ذلك". كان لا ينظر إلى أي شخص منهم في وجهه. ربما كانت الهزيمة مخزية بالنسبة إليه على نحو خاص. كان هو الوحيد الذي لعب بمهارة مستخدماً كل غريزته، بينما استخدم الآخرون فتات ذكائهم. وهو الوحيد بينهم الذي حزر حال الأمور وما الذي يتمنى أن تكون عليه. كما أنه الوحيد الذي فسر الرسالة التي تلقتها لوسي قبل خمسة أيام من شفتي رجل يحتضر. وكانت برسفونه ـ التي تنفق نصف حياتها في القبر تستطيع أن تفسرها أيضاً. ولا ينطبق الأمر على هؤلاء الإنكليز. إنهم يكتسبون المعرفة ببطء، وربما بعد فوات الأوان.

نادراً ما تؤثر أفكار الحوذي ـ مهما كانت صحيحة ـ على حيوات مستخدِميه. كان هو الأكفأ بين خصوم الآنسة بارتلت، ولكنه الأقل خطورة إلى أقصى حد. ما أن يعودوا إلى المدينة، فلن يقلق لا هو ولا بصيرته ولا معرفته بالسيدات الإنكليزيات من بعد ذلك. لقد شاهدت هي رأسه السوداء بين الشجيرات. وربما سيحوّل الأمر إلى حكاية سيرويها في الحانة. ولكن، وعلى أي حال، ما لنا وللحانات؟ ينتمي الخطر الحقيقي إلى غرفة الاستقبال. وكانت الآنسة بارتلت تفكر في أشخاص غرفة الاستقبال والعربة تسير بها نزولاً باتجاه الشمس الغاربة. جلست لوسي إلى جانبها، أما السيد إيغر فكان يجلس مقابلهما محاولاً أن تلتقي نظراتهما: كان يشعر بريبة غامضة. تحدثوا عن أليسيو بالدوفينيتي.

هطل المطر وحلّ الظلام في آن معاً. راحت السيدتان تلوذان الواحدة بالأخرى تحت الممطرة غير الملائمة. التمع البرق، فصرخت الآنسة لافيش، التي كانت في حالة من التوتر العصبي، في العربة التي كانت في المقدمة. وعندما أومض البرق ثانية، صرخت لوسي أيضاً. راح السيد إيغر يخاطبها بمهارة محترف.

"تـشجعي يـا آنـسة هنيتـشيرتش. تـشجعي وتحلّـي بالإيمـان. ولو سمحتِ لي لقلتُ إن هناك شيئاً ما يكاد يكون تجديفاً علـى الـربّ في الرعب الذي تسبّبه عناصر الطبيعة. هل علينـا أن نفتـرض جـدياً أن كل هذه السحب وهذا الاستعراض الكهربائي الهائل قد وُجـد ببـساطة لمجرد أن يقضي عليكِ أو عليّ أنا؟".

"كلا... طبعاً".

"حتى من وجهة نظر العلم فإن احتمـالات عـدم تعرضـنا للإصـابة بالبرق هائلة. فالسكاكين الفولاذية، وهـي الأشـياء الوحيـدة الـتي قـد تجذب التيار، موجودة في العربـة الأخـرى. وعلـى أي حـال، فـنحن أكثر أماناً هنا ممّا لـو كنـا نمـشي علـى أقـدامنا. تـشجعي... تـشجعي وتحلّي بالإيمان".

تحت البساط، شعرت لوسي بالضغط العطوف ليد ابنـة عـم أمهـا. في بعض الأحيان تكون حاجتنا إلى إيماءة تعاطف عظيمة إلى حدّ أننـا لا نهتم بمغزاها أو بمقدار ما علينا أن ندفعـه لاحقـاً ثمنـاً لهـا. كانـت الآنسة بارتلت بهذا التمرين لعضلاتها الذي أتـى في حينـه قـد كـسبت أكثر مما كانت ستكسبه في ساعات الوعظ والاستجواب.

وقد كررت ذلك حين توقفت العربتان في منتصف الطريق نحو فلورنسه.

صاح السيد بيب: "يا سيد إيغـر، نريـد منـك العـون. هـل لـك أن تترجم لنا؟".

صاح السيد إمرسون: "جورج! اسألوا الحـوذي أي طريـق اتخـذها جورج. قد يضلّ الفتى طريقه. وربما يكون قد قُتل".

قالت الآنسة بارتلت: "اذهب يا سيد إيغر. كلا، لا تـسأل حوذينـا، فحوذينا لا فائدة تُرجى منه. اذهب وادعم السيد بيب. لقد جـن جنـون ذلك الرجل تقريباً".

صاح السيد العجوز: "ربما يكون قد قُتل! ربما يكون قد قُتل"!

قال القس وهو يغادر العربة: "سلوك نموذجي. في حضور الواقع فإن هذا النوع من الأشخاص ينهار دائماً".

همست لوسي ما أن بقيتا وحيدتين: "ما الذي يعرفه؟ يا شارلوت، ما مدى ما يعرفه السيد إيغر؟".

"لا شيء يا عزيزتي. إنه لا يعرف شيئاً. ولكن" ـ وهنا أشارت إلى الحوذي ـ "هو يعرف كل شيء. عزيزتي، ألا يجدر بنا؟ هل أفعل ذلك؟" أخرجت محفظة نقودها. "إنه لأمر رهيب أن نتورط مع أشخاص من الطبقة الدنيا. لقد رأى هو كل شيء". ثم ربتت على فايثون بكتاب الدليل السياحي وقالت بالإيطالية: "صمتاً"! وعرضت عليه فرنكاً.

أجاب بالإيطالية وهو يقبل به: "حسناً". كانت نهاية يومه هذا جيدة. ولكن لوسي، وهي فتاة من البشر شعرت بخيبة الأمل تجاهه.

حدث انفجار على الطريق الصاعد أمامهم. كانت العاصفة قد ضربت السلك العالي لخط الترام، فأسقطت أحد الأعمدة. لو لم يتوقفوا فربما كانوا سيتعرضون للأذى. وقد اختاروا أن يعتبروا ذلك نجاة عجائبية. وهكذا فإن فيضانات الحب والإخلاص، والتي يمكن لها أن تثمر في كل ساعة من ساعات الحياة، قد تفجرت في حالة من الاضطراب. نزلوا من العربتين، وعانق كل واحد منهم الآخر. كان أمراً مبهجاً أن يتم الغفران لك لعدم جدارتك في السابق، كما أن تغفر أنت لهم. خلال لحظة واحدة أدركوا إمكانيات هائلة من الطيبة والخير.

استعاد الأشخاص الأكبر سناً أنفاسهم بسرعة. في أقصى انفعالاتهم كانوا يعرفون أن ذلك التصرف لا يليق بالرجال أو بالنساء. ثم اعتبرت

الآنسة لاڤيش أنهم حتى لو كانوا قد تابعوا السير، ما كان سيصيبهم مكروه من الحادث. همهم السيد إيغر بصلاة قصيرة. أما الحوذيان، وعبر أميال من طريق معتم وقذر، فراحا يسكبان روحيهما في حوريات الماء والقديسين، بينما سكبتها لوسي في ابنة عم أمها.

"شارلوت، عزيزتي شارلوت، قبّليني. قبّليني مرة أخرى. أنت وحدك من يفهمني. لقد حذرتني بأن عليّ أن أكون يقظة. وأنا... وأنا ظننت أني كنت أتطور".

"لا تبكي يا أعز الأعزاء. تمهلي".

"لقد كنتُ عنيدة وحمقاء... أسوأ مما تعرفينه عني، أسوأ بكثير. مرة عند النهر... أوه، ولكنه لم يُقتل... لم يُقتل اليوم، أليس كذلك؟".

كانت الفكرة تعكّر توبتها. وفي الحقيقة فإن العاصفة كانت أسوأ طوال الطريق. ولكنها كانت قريبة من الخطر. فكرت أنه لا بدّ وأن الخطر كان قريباً من الجميع.

"لا أعتقد ذلك. علينا أن نتضرع ألا يكون ذلك قد حدث".

"إنه كذلك حقاً... أعتقد أنه فوجئ، كما فوجئتُ أنا من قبل. ولكن اللوم لا يقع عليّ هذه المرة. أريدك أن تصدّقي هذا فعلاً. لقد انزلقت فحسب نحو أزهار البنفسج تلك. كلا، أريد أن أقول الحقيقة فعلاً. يقع عليّ بعض اللوم. كانت تنتابني أفكار حمقاء. السماء، كما تعرفين، كانت ذهبية، والأرض كلها زرقاء، ولبرهة بدا هو كشخصية في كتاب ما من الكتب".

"كتاب ما من الكتب؟"

"الأبطال ـ الآلهة ـ لغو بنات المدارس".

"ما الذي جرى بعد ذلك؟".

"ولكن يا شارلوت، أنت تعرفين ما حدث بعد ذلك".

صمتت الآنسة بارتلت. وبالفعل لم يكن هناك سوى القليل مما عليها أن تعرفه. وبكمٍّ معينٍ من البصيرة راحت تضمّ حفيدة عمها الشابة بحنان إليها. وطوال طريق الإياب كله كان جسد لوسي يرتجف من تنهدات عميقة ما كان يمكن لأي شيء أن يكبحها.

همست: "أريد أن أكون صادقة. من الصعب جداً أن نتحلى بالصدق المطلق".

"لا تقلقي يا أعز الأعزاء. انتظري حتى تصبحي أكثر هدوءاً. سنتكلم عن الأمر قبل النوم في غرفتي".

وهكذا عادتا لتدخلا المدينة وأيديهما متشابكة. كانت صدمة للفتاة أن تجد كم انحسر الانفعال لدى الآخرين. كانت العاصفة قد انقضت، كما كان السيد إمرسون أقل قلقاً على مصير ابنه. كان السيد بيب قد استعاد مزاجه الحسن كما سبق للسيد إيغر أن أخذ يزجر الآنسة لاڤيش. كانت واثقة من شارلوت فحسب، شارلوت التي كان ظاهرها يخفي الكثير من نفاذ البصيرة والحب.

كان ترف الكشف عن الذات قد أبقاها سعيدة تقريباً خلال فترة المساء الطويلة. لم تفكر كثيراً فيما حدث بل بالطريقة التي ستصفه بها. كانت أحاسيسها ونوبات شجاعتها ولحظات فرحها غير المعقولة وقلقها الغامض ستوضع كلها أمام ابنة عم أمها.

فكرت: "أخيراً سأفهم نفسي. لن أقلق مجدداً بأمور لا قيمة لها وتعني شيئاً لا أعرفه".

طلبت منها الآنسة آلان أن تلعب الورق معها. رفضت بقوة. بدت

لها الموسيقى عملاً طفولياً. جلست إلى القرب من ابنة عم أمها التي كانت تصغي بصبر جدير بالثناء إلى حكاية طويلة عن أمتعتها المفقودة. كانت لوسي في حالة من الهيستريا مع التأجيل. حاولت عبثاً أن توقف سرد الحكاية أو أن تسرّع من وتيرتها. لم تستردّ الآنسة بارتلت أمتعتها إلا في ساعة متأخرة، واستطاعت أن تقول بلهجة عادية يشوبها اللوم اللطيف: "حسناً يا عزيزتي، أنا جاهزة على أي حال للعودة إلى بدفورد. ادخلي إلى غرفتي وسوف أمشط شعرك جيداً".

أُغلق الباب ببعض الرزانة وقُرّب كرسي من الخيزران من الفتاة. ثم قالت الآنسة بارتلت:

"إذاً، ما الذي سنفعله؟".

كانت غير مستعدة لهذا السؤال. لم يخطر في بالها أنها ستضطر إلى أن تفعل أي شيء. كانت تتكل على أن تكشف بالتفصيل عن عواطفها فحسب.

"ما الذي سنفعله؟ إنها مسألة لا يمكن لأحد أن يحلّها أحد سواكِ".

كان المطر يتدفق على النوافذ المعتمة، والغرفة الكبيرة تشعرك بالرطوبة والبرد. هناك شمعة واحدة ترتجف فوق خزانة الدروج قريباً من قبعة الآنسة بارتلت وتلقي ظلالاً هائلة وفانتازية على الباب الموصد. زمجر ترام في العتمة، وشعرت لوسي بحزن غير قابل للتعليل، على الرغم من أنها كانت قد جففت دموعها منذ فترة طويلة. رفعت عينيها إلى السقف حيث كانت رسوم الحيوانات الخرافية التي نصفها عقاب ونصفها أسد والمزامير التي كانت بلا لون ومبهمة، كأشباح حقيقية للفرح.

قالت أخيراً: "إنها تمطر منذ أربع ساعات".

تجاهلت الآنسة بارتلت الملاحظة.

"كيف تقترحين أن تخرسيه؟".

"الحوذي؟".

"يا فتاتي العزيزة، كلا. بل السيد جورج إمرسون".

بدأت لوسي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

قالت أخيراً: "لا أفهم".

كانت تفهم جيداً، ولكنها لم تعد ترغب في أن تكون صادقة إلى حد مطلق.

"كيف ستمنعينه من أن يتحدث عن المسألة؟".

"لديّ شعور بأنه لن يتكلم إطلاقاً".

"أنا أنوي أيضاً أن أحكم عليه بإحسان. ولكن لسوء الحظ، فأنا قابلت مثل هذا النمط من قبل. نادراً ما يبقي هؤلاء مآثرهم سراً في أنفسهم".

"مآثرهم؟"صرخت لوسي وقد أجفلت من صيغة الجمع الرهيبة.

"يا عزيزتي المسكينة، هل افترضت أن هذه هي أولى مآثره؟ تعالي إلى هنا وأصغي إليّ. أنا أستنتج هذا من ملاحظاته فحسب. هل تتذكرين ذلك اليوم على وجبة الغداء حين جادل الآنسة آلان قائلاً إن محبة شخص واحد سبب إضافي لمحبة آخر؟".

قالت لوسي التي كان النقاش قد سرّها حتى الآن: "أجل".

"حسناً، لست من النوع الشديد التحشّم تجاه أمور الجنس. لا حاجة إلى ندعوه بالشاب الشرير، ولكن من الواضح أنه يفتقر إلى التهذيب بكل ما في الكلمة من معنى. فلنجعل السبب سوابقه المؤسفة وتعليمه، إن رغبت في ذلك. ولكننا لا نحرز تقدماً في معالجة سؤالنا. ما الذي تقترحين فعله؟".

عبرت فكرة ذهن لوسي، وربما لو فكرت بها في وقت أسبق وتمعّنت فيها لكانت أثبتت أنها ستحقق النجاح.

قالت: "أقترح أن أتحدث إليه".

أطلقت الآنسة بارتلت صرخة تدلّ على رعب حقيقي.

"كما ترين يا شارلوت، فإن لطفك... لن أنسى أبداً لطفك. ولكن ـ وكما تقولين ـ فالمسألة تخصني أنا. أنا وهو".

"وهل **ستتوسلين** إليه، **ستناشدينه** أن يصمت؟".

"لن أفعل ذلك بكل تأكيد. لن تكون هناك صعوبة في الأمر. فأي شيء تطلبينه منه يردّ عليك بنعم أو لا؛ ثم ينتهي الأمر. لقد كنت أخشاه، والآن لا أخشاه إطلاقاً".

"ولكننا نخشى عليك منه يا عزيزتي. أنت صغيرة جداً في السن ودون تجربة؛ كما أنك قضيت حياتك بين أناس طيبين جداً، حتى أنك لا تستطيعين أن تميزي ما الذي يمكن للرجال أن يفعلوه... وكيف يجدون متعة وحشية في إذلال امرأة لا تحميها بنات جنسها ويحشدون القوى لذلك. في عصر هذا اليوم، مثلاً، لو لم أصل في اللحظة الملائمة، فما الذي كان سيحدث؟".

قالت لوسي بجدية: "لا أستطيع التفكير في ذلك".

كان شيء ما في صوتها قد جعل الآنسة بارتلت تكرر سؤالها وهي تشدّد عليه بقوة أعظم:

"ما الذي كان سيحدث لو لم أصل في اللحظة الملائمة؟".

قالت لوسي مجدداً: "لا أستطيع التفكير في ذلك".

"حين أهانك، كيف كنت ستردّين عليه؟".

"لم يكن لديّ الوقت الكافي للتفكير، فقد وصلت أنت".

"أجل، ولكن ألن تقولي لي ما الذي كنت ستفعلينه؟".

"كنت سـ..". توقفت عن الكلام وقطعت الجملة. ذهبت نحو النافذة المبللة بالمطر وحدقت في العتمة. لم تستطع أن تفكر فيما كانت ستفعله.

قالت الآنسة بارتلت: "ابتعدي عن النافذة يا عزيزتي. يمكن أن يراك أحد من الطريق".

أطاعتها لوسي. كانت تحت سيطرة ابنة عم أمها. لم تستطع التخلّص من لهجة الحطّ من قدر نفسها التي بدأت بها. لم تشر أي واحدة منهما لاحقاً إلى اقتراحها بأن عليها أن تتحدث إلى جورج وتضع حلاً للمسألة، كائناً ما كانت، معه بالذات.

اكتأبت الآنسة بارتلت.

"يا ليت معنا رجل حقيقي! نحن مجرد امرأتين، أنت وأنا. لا أمل يرتجى من السيد بيب. هناك السيد إيغر، ولكنك لا تثقين به. آه، لو كان شقيقك معنا! إنه شاب صغير، ولكني أعرف أن إهانة شقيقته كانت ستحولّه إلى أسد حقيقي. الحمد لله، لم تمت الفروسية بعد. ما يزال هناك بعض الرجال الذين يستطيعون تبجيل المرأة".

وبينما كانت تتكلم، راحت تخلع خواتمها وهي عديدة، ثم تلقيها لترنّ على وسادة الدبابيس. ثم نفخت في قفازيها وقالت:

"سيكون من الصعب اللحاق بقطار الصباح، ولكن علينا أن نحاول".

"أي قطار؟

"القطار الذاهب إلى روما". ثم نظرت إلى قفازيها بانتقاد.

تلقت الفتاة الاقتراح بالسهولة التي قيل بها.

"متى ينطلق القطار إلى روما؟".

"في الثامنة".

"ستنزعج السنيوره برتوليني".

"علينا مواجهة ذلك"، هذا ما قالته الآنسة بارتلت، فلم ترغب في أن تقول إنه سبق لها وأبلغت السنيوره بذلك.

"ستجعلنا ندفع إيجار الأسبوع كله".

"أتوقع منها ذلك. وعلى أي حال، سنكون أكثر راحة في فندق آل ڤايز. ألا يقدمون شاي العصر مجاناً هناك؟".

"أجل ولكنهم يجعلونك تدفعين المزيد مقابل النبيذ".

بعد هذه الملاحظة بقيت دون حراك وصامتة. وأمام عينيها المرهقتين، كانت شارلوت تنتفض وتنفخ كشبح في حلم.

بدأتا تهيئان ملابسهما لتوضيبها فلم يكن أمامهما وقت لتضيعاه إن كانتا ستلحقان بالقطار الذاهب إلى روما. بعد العتاب الذي تلقته لوسي، بدأت بالانتقال بين الغرفتين، وهي أكثر وعياً بمشاق التوضيب على ضوء الشموع أكثر من وعيها بوجود مشكلة أكثر دقة. أما شارلوت التي كانت عملية إنما دون قدرة، فقد ركعت قرب حقيبة فارغة، وهي تحاول عبثاً أن أن ترصف كتباً من مختلف السماكات والأحجام. تنهدت مرتين أو ثلاث، فقد كانت وضعية الركوع تؤلم ظهرها، وعلى الرغم من لباقتها، فقد شعرت أنها كانت تشيخ. سمعتها الفتاة وهي تدخل إلى الغرفة، وقد انتابتها واحدة من تلك الدوافع العاطفية التي لم تستطع أبداً أن تعرف سبباً لها. ولكنها شعرت فحسب أن الشمعة ستنير على نحو أفضل وأن التوضيب سيكون أسهل، والعالم سيكون أكثر

سعادة، لو أنها منحت وتلقت بعض الحب الإنساني. كان الدافع قد انتابها قبل هذا اليوم، ولكن لم يسبق له أن كان بهذه القوة. ركعت قرب ابنة عم أمها واحتضنتها بذراعيها.

احتضنتها الآنسة بارتلت بدورها برقة ودفء. ولكنها لم تكن امرأة غبية، وعرفت أن لوسي لم تكن تحبها، بل كانت في حاجة إلى الحب. فقد قالت بعد وقفة طويلة وبلهجة منذرة بالسوء: "يا عزيزتي لوسي، هل ستغفرين لي أبداً؟".

أضحت لوسي في حالة احتراس على الفور، فهي تعرف بالتجربة المرة ما هو الغفران الذي كانت تعنيه الآنسة بارتلت. هدأ انفعالها، فعدّلت من عناقها، ثم قالت:

"يا عزيزتي شارلوت، ما الذي تعنينه؟ وكأن لديّ أي شيء أغفره"!

"لديك الكثير، وأنا لديّ الكثير لأغفره أيضاً. أعرف جيداً كم أغيظك عند كل منعطف".

"ولكن لا..".

راحت الآنسة بارتلت تلعب دورها المفضّل، دور الشهيدة التي هرمت قبل أوانها.

"آه، ولكن أجل. أنا أشعر أن رحلتنا معاً قد حققت بالكاد النجاح الذي كنت آمله. ربما كنت أعرف أنها لن تنجح. أنت في حاجة إلى شخص أكثر شباباً وقوة وتعاطفاً معك. أنا لا أثير الاهتمام أبداً وعتيقة الطراز... لست أهلاً سوى لتوضيب حقائبك وتفريغها".

"أرجوك..".

"عزائي الوحيد أنك وجدت أشخاصاً أقرب إلى ذوقك، وكانوا غالباً قادرين على تركي في البنسيون. كانت لديّ أفكاري المسكينة

الخاصة بي عما يليق بالسيدة أن تفعله، ولكني آمل بأني لم أفرضها عليك أكثر مما هو ضروري. كان لك أسلوبك الخاص فيما يتعلق بهاتين الغرفتين، على أي حال".

قالت لوسي برقة: "ليس عليك أن تقولي لي مثل هذه الأشياء".

كانت ما تزال متعلقة بالأمل بأنها وشارلوت تتبادلان الحب بكل قلبيهما وروحيهما. تابعتا التوضيب في صمت.

قالت الآنسة بارتلت: "لقد فشلتُ"، وذلك وهي تكافح لتربط أحزمة حقيبة لوسي بدلاً عن حقيبتها. "لقد فشلت في إسعادك، وفشلت في واجبي أمام أمك. لقد كانت سخية جداً معي. ولن أواجهها مجدداً بعد هذه الكارثة".

"ولكن أمي ستفهم. وإن هذه المشكلة التي وقعت لم تكن بسبب خطأ منك، وهي ليست بالكارثة أيضاً".

"إنها خطئي أنا وهي كارثة بالفعل. لن تسامحني أبداً، وهي على حق في ذلك. مثلاً، أكان لي الحقّ في مصادقة الآنسة لاڤيش؟".

"لك كل الحق".

"وأنا التي جئت إلى هنا من أجلك أنت؟ لو كنت أثرت غيظك فإنه من الصحيح أيضاً وبالدرجة نفسها أني أهملتك. سترى أمك هذا بوضوح كما أراه أنا، حين ستحكين لها عما جرى".

قالت لوسي بعد رغبة جبانة في تحسين الوضع:

"ولماذا يجب أن تعرف هي بذلك؟".

"ولكنك تحكين لها كل شيء".

"أفترض أني أفعل ذلك عادة".

"لا أجرؤ على الإخلال بثقتك بي. هناك شيء مقدس فيها. هـذا مـا لم تشعري أنه أمر لا تستطيعين أن تحكيه لها".

لم تكن الفتاة مستعدة للحطّ من قدر نفسها إلى هذا الحدّ.

"من الطبيعي أن أحكي لها. ولكن في حال أنها سـتلومك بـأي وسـيلة كانت، فإني لن أذكر لها هذا الأمر كما لن أذكره لأي شخص آخر".

وهكذا ختم وعدها هذا الحوار المطوّل بنهاية مفاجئة. قبّلتها الآنسة بارتلت بحيوية على الوجنتين وتمنت لها ليلة سـعيدة، ثم أرسـلتها إلى غرفتها الخاصة بها.

ولبرهـة مـن الـزمن أصـبحت المـشكلة الأصـلية في الخلفيـة. بـدا جورج وكأنه قد تصرف كوغد طوال الوقت. ربما كانـت تلـك وجهـة نظر سيحملها المرء في النهاية. في الوقت الحاضر لم تكـن هـي تبرّئـه ولا تتّهمه. لم تصدر عليه حكمـاً. في اللحظـة الـتي كنـت فيهـا علـى وشك إصدار حكم عليه، تدخّل صوت ابنـة عـم أمهـا، ومنـذ ذلـك الحين، أضحت الآنسة بارتلت هي المهيمنة. إنها الآنسة بارتلـت الـتي أمكن حتى تلك اللحظة سماع صوتها وهي تتنهد من خـلال صـدع في الجدار الفاصل بين الغرفتين. إنها الآنسة بارتلت الـتي لم تكـن تتحلـى بالمرونة ولا بالتواضع ولا بالتناقض في واقع الأمر. لقد تصرفت كأنها فنانة عظيمة. ومنذ فترة زمنية طويلة ـ منذ سـنين بالفعـل ـ كانـت هـذه المرأة خالية من المغزى، ولكن في النهاية تم تقـديم الـصورة الكاملـة إلى الفتاة، صورة عـالم خـال مـن المـرح والحـب ينـدفع فيـه الـشبان والشابات نحـو الـدمار حـتى يتعلمـوا الـدرس ـ إنـه عـالم مخزٍ مـن الاحتياطات والحواجز والذي قد يتجنب الشرّ، ولكنه لا يبـدو وكأنـه يجلب الخير، لو كنا سنحكم عليه بواسطة أولئـك الـذين يـستخدمون تلك الاحتياطات والحواجز إلى أقصى حد.

كانت لوسي تعاني من علّة خطيرة جداً لم يكتشفها هذا العالَم إلاّ الآن فحسب: لقد تم استغلال صدقها وإخلاصها وتوقها إلى التعاطف والحب بأسلوب دبلوماسي. ومثل هذه العلة لا يمكن نسيانها بسهولة. لم تكن ستكشف نفسها مرة أخرى وإلى الأبد دون الاعتبار والحذر الواجبين أمام الصدّ. ومثل هذه العلّة قد تتفاعل على نحو كارثيّ مع الروح.

رنّ جرس الباب الخارجي فأسرعت نحو مصراع النافذة، وقبل أن تصل إليه ترددت، ثم التفتت وأطفأت الشمعة. وهكذا حدث أنها رغم مشاهدتها لشخص يقف تحت وابل المطر في الأسفل، ورغم أنه رفع نظره إلى الأعلى، إلا أنه لم يرها.

حتى يصل إلى غرفته كان عليه أن يمر بغرفتها؛ وكانت هي ما تزال ترتدي ملابس الخروج؛ وقد خطر لها أنه يمكنها أن تخرج إلى الممر وتقول له إنها سترحل قبل أن يستيقظ، وأن علاقتهما الاستثنائية قد انتهت.

وسواء كانت ستجرؤ على فعل ذلك أم لا، فهذا أمر لم تتح له للفرصة ليتحقق. ففي اللحظة الحرجة فتحت الآنسة بارتلت باب غرفتها وقالت:

"لديّ كلام أقوله لك يا سيد إمرسون في غرفة الاستقبال من فضلك".

وسرعان ما عادت خطواتهما تُسمع في الممر، ثم قالت الآنسة بارتلت "أتمنى لك ليلة طيبة يا سيد إمرسون".

كان تنفسه الثقيل والمرهق هو الجواب الوحيد. لقد قامت الوصيفة المرافقة بواجبها.

بكت لوسي بصوت مرتفع وهي تقول: "ليس هذا حقيقياً. لا يمكنه أن يكون كذلك. لا أريد أن يختلط عليّ الأمر. أريد أن أكبر بسرعة".

طرقت الآنسة بارتلت على الجدار.

"اذهبي إلى فراشك على الفور يا عزيزتي. أنت في حاجة إلى كل الراحة التي تستطيعين الحصول عليها".

في الصباح غادرتا إلى روما.

* * *

# الجزء الثاني

# الفصل [8]

## قروسطي

كانت ستائر غرفة الضيوف في "ويندي كورنر" قد أُسدلت، فالسجادة كانت جديدة وتستحق الحماية من شمس شهر آب (أغسطس). كانت تلك ستائر ثقيلة تصل إلى الأرض تقريباً، وكان النور الذي يرشح من خلالها مخفّفاً ومتعدد الألوان. ربما لو وُجد شاعر ـ ولو لم يكن هناك شاعر ـ لاقتبس قائلاً: "الحياة أشبه بقبّة من زجاج مختلف الألوان"[1]، أو ربما كان سيقارن الستائر ببوابات سدّ من السدود، وقد أنزلت أمام التيارات السماوية التي لا تُحتمل. في الخارج كان ينصبّ بحر من الإشعاع، وفي الداخل فإن المجد، رغم كونه مرئياً، قد عُدِّل ليلائم قدرات الإنسان.

كان شخصان لطيفان يجلسان في الغرفة. أحدهما ـ فتى في التاسعة عشرة ـ يدرس في كتاب من كتب علم التشريح، ويحدق بين الحين والآخر إلى عظْمة كانت قد وضعت فوق آلة البيانو. بين الحين والآخر، كان يقفز وهو في كرسيه وينفخ ويئنّ، فقد كان ذلك النهار قائظاً وأحرف الطباعة صغيرة، كما كان الهيكل البشري قد صُنع على نحو مخيف. أما أمه، التي كانت تخطّ رسالة، فكانت تتلو له ما كانت تكتبه بصوت مرتفع وباستمرار. كانت تستمر في النهوض من مقعدها وتفصل ما بين الستائر حتى يسقط جدول صغير من النور عبر السجادة، وتلفظت بملاحظة تفيد بأنهما ما يزالان هناك في الخارج.

---

(1) من قصيدة للشاعر الإنكليزي "شيلي" بعنوان "أدونيس" رثا فيها الشاعر "كيتس" الذي مات في ريعان شبابه. المترجم.

قال الفتى، وهو "فريدي"، شقيق لوسي: "وما هو المكان الذي لا يتواجدان فيه؟ أقول لك إني أشعر بالغثيان".

"أرجوك، أخرج من غرفة استقبالي إذاً"، هكذا صرخت السيدة هنيتشيرتش التي كانت تأمل بان تداوي ولديها من استخدام اللغة العامية بأن تُشعرهما أنها تفهم ما يقولانه، إنما على نحو حَرْفيّ.

لم يتحرك فريدي ولم يجب.

"أعتقد أن الأمر سيصل إلى نهايته المتوقعة"، هذا ما قالته هي على أمل أن تسمع رأي ابنها حول الوضع إن استطاعت الحصول عليه دون توسل غير ضروري.

"لقد آن الأوان".

"أنا سعيدة لأن سيسيل يطلب منها ذلك مرة أخرى".

"هذه هي المرة الثالثة، أليس كذلك؟".

"يا فريدي، أنا أصف الطريقة التي تتكلم بها على أنها فظة".

"لم أقصد أن أكون فظاً". ثم أضاف: "ولكني أعتقد حقاً أن لوسي قد تكون انتهت من هذا الأمر في إيطاليا. لا أعرف كيف تستطيع الفتيات تدبير الأمور، ولكنها لم تستطع أن تقول (لا) على النحو الملائم من قبل، أو أنها ليست مضطرة إلى قولها مرة أخرى الآن. فيما يخص هذه المسألة برمتها ـ لا استطيع شرح المسألة ـ أشعر أني غير مرتاح".

"هل تشعر بهذا فعلاً يا عزيزي؟ لكم هذا مثير للاهتمام"!

"أنا أشعر... لا بأس".

عاد إلى عمله.

"اسمع فحسب ما كتبتُه إلى السيدة ڤايز. قلت لها:(عزيزتي السيدة ڤايز)".

"أجل يا أمي، لقد قلت لي ذلك. رسالة جيدة جداً".

"قلت: (عزيزتي السيدة ڤايز... لقد طلب سيسيل الإذن بذلك للتو، وأنا سأكون مسرورة لو وافقت لوسي على ذلك. ولكن..)".. توقفت عن التلاوة. "لقد شعرت بالسرور إلى حد ما لأن سيسيل طلب مني الإذن حتى. لقد كان من عادته أن يتصرف خارج التقاليد، ووالداه ليسا موجودين وهكذا دواليك. وعندما يحين وقت الجدّ، فلن يستطيع المتابعة من دون موافقتي".

"وموافقتي أنا أيضاً".

"أنت؟".

أومأ فريدي برأسه.

"ما الذي تعنيه؟".

"لقد طلب إذني أنا أيضاً".

صاحت: "لكم هو عجيب تصرفه هذا"!

سأل ابنها ووريثها: "لماذا؟ ولم لا تُطلب موافقتي؟".

"ما الذي تعرفه أنت عن لوسي أو الفتيات أو أي شيء آخر؟ وما الذي قلتَه؟".

"قلت لسيسيل: (خذها أو اتركها. هذا الأمر لايخصّني)".

"يا له من جواب مفيد"! ولكن جوابها هذا رغم أنه أكثر عادية في صياغته، إلا أنه كان له التأثير نفسه.

بدأ فريدي يقول: "هكذا هو الأخ".

ثم عاد إلى عمله مجدداً وهو أكثر خجلاً من أن يقول ما كان عليه الأخ. عادت السيدة هنيتشيرتش إلى النافذة.

"فريدي، عليك أن تأتي. هاهما قد وصلا"!

"لا أعتقد أن عليك أن تتلصّصي على هذا النحو".

"أتلصص على هذا النحو! ألا أستطيع أن أنظر إلى الخارج من نافذتي؟".

ولكنها عادت إلى منضدة الكتابة، وهي تقول خلال مرورها بابنها: "أما زلت في الصفحة 322؟" نخر فريدي وقلب صفحتين. وهكذا بقيا صامتين لفترة وجيزة من الزمن. ثم حدث وراء الستائر همهمة رقيقة لمحادثة طويلة لم تتوقف.

"هكذا هو الأخ: لقد تدخلت في الأمر على أشنع صورة ممكنة". تجرع ريقه بعصبية". بما أني لم أكن قانعاً بالـ(إذن) الذي منحتُه ـ أي أني قلت له (لا مانع عندي) ـ حسناً، لست قانعاً بذلك. فقد أراد هو أن يعرف ما إذا لم أكن جننتُ من الفرح. وقد عبرّ عن الأمر على هذا النحو: أليس أمراً رائعاً للوسي ولويندي كورنر عموماً لو تزوجها؟ وكان يريد جواباً... قال إنه سيشدّ من عزيمته".

"آمل أن تكون قد أعطيته جواباً دقيقاً يا عزيزي".

قال الفتى وهو يصرّ بأسنانه: "قلت لا. هذا ما جرى! اغضبي لو شئت! لا أستطيع مغالبة الأمر... كان عليّ أن أقولها. كان عليّ أن أقول لا. لم يكن عليه أن يسألني مطلقاً".

صاحت أمه: "يا لك من طفل مضحك! تظنّ نفسك مقدساً وصادقاً إلى أبعد حدّ، ولكن الأمر وما فيه حقاً مجرد غرور كريه. هل تفترض أن رجلاً شأن سيسيل سيهتم على الإطلاق بأي شيء تقوله أنت؟ أتمنى لو لكمك على أذنيك. كيف تجرأت على أن تقول لا؟".

"أوه، أرجو أن تبقي هادئة يا أمي! كان عليّ أن أقول لا حين لم أستطع أن أقول نعم. حاولت أن أضحك وكأنما لم أكن أعني ما قلته، وبما أن سيسيل ضحك هو الآخر، ثم مضى بعيداً، فقد يكون الأمر على أحسن حال. أشعر أني تورطت في الأمر. أرجو أن تبقي هادئة على الرغم من ذلك، ودعيني أنجز بعض العمل".

قالت السيدة هنيتشيرتش بلهجة من درس الموضوع جيداً: "كلا، لن أهدأ. أنت تعرف كل ما مرّ بينهما في روما. وأنت تعرف السبب في مجيئه إلى هنا، ومع ذلك فقد أهنتَه عن عمد، وتحاول أن تطرده من منزلي".

ردّ عليها قائلاً: "هذا غير صحيح على الإطلاق! فأنا عبّرت عن عدم حبّي له. أنا لا أكرهه، ولكني لا أحبّه. ما يهمّني من الأمر هو أنه سيقول ذلك للوسي".

نظر إلى الستائر بكآبة.

قالت السيدة هنيتشيرتش: "حسناً، أما أنا فأحبّه. أعرف أمه. إنه طيّب وذكيّ وغنيّ ولديه الكثير من الأقارب والمعارف من أصحاب النفوذ... أوه، ليس عليك أن ترفس البيانو! لديه الكثير من الأقارب والمعارف من أصحاب النفوذ... سأقولها مجدداً لو أحببتّ: الكثير من الأقارب والمعارف من أصحاب النفوذ". توقفت عن الكلام وكأنها تتمرن على قول المديح، إلا أن وجهها بقي في مظهر يدلّ على الاستياء. ثم أضافت: "ويتحلى بسلوك جميل".

"لقد أحببتُه حتى قبل قليل. ولكن كان تدليله للوسي في أول أسبوع لها بعد عودتها، وأيضاً ذلك الشيء الذي قاله السيد بيب، وهو الذي لا يعرف بما يجري، قد جعلاني أغير رأيي".

قالت أمه وهي تحاول أن تخفي اهتمامها: "السيد بيب؟ لا أرى ما دخل السيد بيب في هذه المسألة".

"أنت تعرفين أسلوب السيد بيب المضحك، وذلك حين لا يمكنك أن تعرفي ما يقصده. قال: (السيد ڤايز عازب مثالي). وقد كان ذلك أمراً شديد الصدق. سألته عمّا يعنيه، فقال: (أوه، إنه يشبهني ولكنه أكثر استقلالاً مني). لم أستطع جعله يقول المزيد، ولكن ذك جعلني أفكر. منذ أن بدأ سيسيل يبدي اهتماماً بلوسي فهو لم يعد لطيف المعشر، على الأقل لا أستطيع شرح الأمر".

"ولن تستطيع قطّ يا عزيزي. أنت تغار من سيسيل لأنه سيجعل لوسي تتوقف عن أن تحوكَ لك ربطات عنق حريرية".

بدا التفسير معقولاً، وحاول فريدي قبوله. ولكن تلبّث في مؤخرة دماغه شك غامض. كان سيسيل يمدح الشخص كثيراً لكونه رياضيّ الجسم. هل كان هذا هو الأمر وما فيه؟ كما أن سيسيل يجعل المرء يتكلم بأسلوبه هو بدلاً عن أن يدعه يتكلم بأسلوبه الشخصي الخاص به. كان هذا مرهقاً للمرء. هل كان ذلك هو الأمر؟ كان سيسسيل ذلك النوع من الأشخاص الذي لا يمكن أن يقلّد شخصاً آخر. ودون أن يكون واعياً بمدى عمقه، كبح فريدي نفسه. لا بدّ وأنه يشعر بالغيرة وإلا فإنه ما كان ليكره رجلاً لمثل هذه الأسباب الحمقاء.

صاحت الأم: "هل سيكون هذا ملائماً؟ (عزيزتي السيدة ڤايز... لقد طلب سيسيل للتو الإذن مني حول هذا الموضوع، وأنا سيسرني لو تقبل لوسي به). ثم أضعها في الأعلى. (وقد قلت ذلك للوسي). عليّ أن أعيد كتابةَ الرسالة. (وقد قلت ذلك للوسي، ولكن لوسي تبدو غير واثقة إلى حد بعيد، وفي هذه الأيام فإن على جيل الشباب أن يقرر مصيره بنفسه). لقد قلت هذا لأني لم أرد أن تعتقد السيدة ڤايز أنني عتيقة الطراز. إنها تذهب للاستماع إلى المحاضرات وتحاول تطوير ثقافتها، بينما هناك ـ طوال الوقت ـ طبقة سميكة من الزغب

تحت الأسرة، كما أنك ترى الآثار القذرة لأصابع الخادمات من الكثير من الأقارب والمعارف من أصحاب النفوذ... حيث تنار الأضواء الكهربائية. إنها تبقي تلك الشقة قذرة إلى حد كريه...".

"افترضي أن لوسي تزوجت من سيسيل، فهل ستسكن في شقة أو في الريف؟".

"لا تقاطعني على هذا النحو الأحمق الشديد الحمق؟ ما الذي كنت أتحدث عنه؟ أوه، أجل ... (على جيل الشباب أن يقرر مصيره بنفسه. أعرف أن لوسي تحب ابنك، لأنها تحكي لي كل شيء، وقد كتبتْ إليّ من روما حين طلب يدها أول مرة). كلا، سأحذف هذه الجملة الأخيرة... تبدو شديدة الاصطناع. سأتوقف عن عند (لأنها تحكي لي كل شيء) أو هل عليّ أن أحذف ذلك أيضاً؟".

قال فريدي: "احذفيه أيضاً".

تركتها السيدة هنيتشيرتش دون حذف.

"إذاً، ستكون الرسالة كما يلي: (عزيزتي السيدة ڤايز... لقد طلب سيسيل للتو الإذن مني حول هذا الموضوع، وأنا سيسرني لو تقبل لوسي به. وقد قلت ذلك للوسي. ولكن لوسي تبدو غير واثقة إلى حد بعيد، وفي هذه الأيام فإن على جيل الشباب أن يقرر مصيره بنفسه. أعرف أن لوسي تحب ابنك، لأنها تقول لي كل شيء. ولكني لا أعرف)...".

قال فريدي: "احذري"!

انفرجت الستائر.

كانت أول حركة لسيسيل تدل على السخط. لم يستطع تحمل عادة آل هنيتشيرتش في الجلوس في الظلام لحماية الأثاث. شد الستائر

غريزياً وبقوة، فجعلها تتأرجح على أعمدتها. دخل النور. تكشفت شرفة كالتي للكثير من الفيلاّت، وعلى حانبيها أشجار وفوقها مقعد ريفي صغير وحوضان للورد. ولكن كان ما أضفى جمالاً على هذه الشرفة وإلى حد مهيب المنظر الطبيعي البعيد، فقد كانت ويندي كورنر قد شيدت فوق سلسلة جبلية تطلّ على سسكس ويلد. بدت لوسي الجالسة على المقعد الصغير وكأنها على حافة بساط الريح السحري الذي كان يحوّم فوق العالم المرتجف.

دخل سيسيل.

وبما أنه يظهر متأخراً في هذه الحكاية، فلا بدّ من وصف سيسيل على الفور. كان قروسطياً، أشبه بتمثال قوطيّ، طويلاً ومهذباً، وذا كتفين ضغطتا إلى مربع بجهد من إرادته، ورأس كانت مائلة إلى الأعلى قليلاً فوق المستوى المعتاد للبصر، فيشبه أولئك القديسين النيّقين الذين يحرسون بوابات كاتدرائية فرنسية. كان قد تلقى تعليماً جيداً، وصاحب أموال ولا يعاني من علة جسدية؛ لذا فهو يبقى في قبضة شيطان معين يعرفه العالم باسم الخجل، والذي يعبده القروسطي ذو البصر الأكثر عتمة باسم الزهد. يوحي التمثال القوطي بالتبتّل، كما يوحي تمثال إغريقي بالخصوبة، وربما كان هذا ما عناه السيد بيب. أما فريدي الذي كان يتجاهل التاريخ والفن، فربما كان يعني هذا الأمر نفسه حين لم يستطع تخيّل سيسيل وهو يلعب دور شخص آخر مختلف تماماً.

تركت السيدة هنيتشيرتش رسالتها على منضدة الكتابة وتحركت لتقابل هذا الشاب، وهو واحد من معارفها.

صاحت: "أوه سيسيل! أوه سيسيل، هيا قل لي بحقك"!

قال بالإيطالية: "لقد أصبحت خطيباً".

حدقا إليه بقلق.

قال: "لقد قبلتْ بي"، وكان وقع هذه الكلمات بالإنكليزية قد جعلت وجنتيه تتضرجان وفمه يبتسم من السرور ويبدو أكثر إنسانية.

قالت السيدة هنيتشيرتش: "أنا سعيدة جداً"، بينما قدّم فريدي يده التي كانت صفراء من استخدامه للمواد الكيماوية. تمنيا لو أنهما كانا يتقنان الإيطالية أيضاً، فعباراتنا التي تدل على الموافقة والانذهال شديدة الارتباط بمناسبات صغيرة إلى درجة أننا نخشى أن نستخدمها في المناسبات الكبيرة. نحن ملزمون بأن نصبح أكثر شاعرية على نحو ملتبس أو اللجوء إلى ما نتذكره من الكتاب المقدس.

قالت السيدة هنيتشيرتش وهي تشير إلى الأثاث بيدها: "أهلاً بك كواحد من أعضاء هذه الأسرة. هذا يوم حافل بالسرور حقاً، وأنا أشعر بالثقة أنك ستدخل السعادة إلى قلب عزيزتنا لوسي".

أجاب الشاب وهو يرفع بصره إلى السقف: "آمل ذلك".

ابتسمت السيدة هنيتشيرتش بتكلف وهي تقول: "نحن الأمهات..". ثم أدركت أنها كانت تتصرف بتكلّف وانفعال وتنمّق في الكلام، وهي أمور تكرهها كلها إلى أكبر حد. لم لا تكون أشبه بفريدي الذي وقف متيبساً في وسط الغرفة، وهو يبدو شديد النزق ووسيماً تقريباً؟

صاح سيسيل: "يا لوسي"! وقد بدت المحادثة وكأنها تفتر.

نهضت لوسي من على المقعد. تحركت عبر المرجة الصغيرة وابتسمت باتجاههم، وكأنها كانت على وشك أن تطلب منهم أن يلعبوا التنس. ثم شاهدت وجه أخيها. انفرجت شفتاها، فاحتضنته. قال: "أوه، اثبتي"!

سألتها أمها: "ألا من قبلة لي؟".

قبّلتها لوسي هي أيضاً.

اقترح سيسيل: "هل لك أن تصطحبيهما إلى الحديقة وتقولي للسيدة هنيتشيرتش كل شيء؟ وأنا سأتوقف هنا وأخبر أمي".

قال فريدي وكأنه يتلقى أمراً من الأوامر: "هل نذهب مع لوسي؟".

عبروا نحو نور الشمس. راقبهم سيسيل يعبرون الشرفة، ثم ينزلون الدرج مبتعدين عن الأنظار. كانوا سيهبطون ـ كان يعرف أساليبهم ـ عبر الأيكة وعبر ملعب التنس المغطى بالعشب وحوض ورود الدهلية، حتى وصلوا إلى حديقة المطبخ، وهناك، في حضور البطاطا والبازلاء، ستتم مناقشة الحدث العظيم.

ابتسم يتسامح، وأشعل لفافة تبغ، وراجع في ذهنه الأحداث التي أدّت إلى مثل هذه النهاية السعيدة.

إنه يعرف لوسي منذ سنين عديدة، ولكن كفتاة عادية حدث أنها موهوبة موسيقياً فحسب. وكان ما يزال قادراً على تذكر كآبته في عصر ذلك اليوم في روما، حين فاجأته هي وابنة عم أمها الرهيبة وطلبتا منه اصطحابهما إلى كنيسة القديس بطرس. لقد بدت في ذلك اليوم كسائحة نموذجية... جادة وبسيطة وكئيبة من السفر. ولكن إيطاليا صنعت أعجوبة ما منها. لقد منحتها النور ـ وكان يجده ثميناً جداً ـ كما منحتها الظلّ. وسرعان ما اكتشف فيها تحفّظاً رائعاً. كانت أشبه بامرأة من إحدى لوحات ليوناردو دافنشي التي نحبها كثيراً ليس لشخصها ولكن للأشياء التي لن تقولها لنا. وهي الأشياء التي تنتمي إلى هذه الحياة. لم يكن لدى أي من نساء دافنشي أي شيء سوقي مثل "حكاية". كانت لوسي تتطور فعلاً وعلى نحو رائع جداً يوماً بعد يوم.

وهكذا جرى أن انتقل ببطء من الكياسة المشوبة بالتنازل، إن لم يكن إلى الهوى، فعلى الأقل إلى قلق عميق. وقد سبق له منذ روما أن لمّح لها بأنهما قد يكونان الواحد منهما للآخر. وقد تأثّر إلى حد عظيم

بأنها لم تنسحب بعيداً عنه بعد هذا الاقتراح. كان رفضها واضحاً ولطيفاً. وبعد ذلك ـ كما تقول تلك العبارة الرهيبة ـ بقيت تعامله بالضبط كما في السابق. بعد ثلاثة أشهر، وعلى حافة إيطاليا، وبين جبال الألب المكسوة بالأزهار، وجّه إليها السؤال مجدداً بلغة صريحة وتقليدية. كانت تذكّره بليوناردو أكثر من أي وقت سبق وملامحها التي لوّحتها الشمس كانت مظللة بصخور خيالية. وعندما سمعت كلماته، التفتت ووقفت بينه وبين النور، وهناك سهول فسيحة لا حدّ لها من خلفها. سار إلى البيت دون خجل، ودون أن يشعر على الإطلاق أنه طلب يدها ورفضتْه. الأمور التي كانت هامة فعلاً لم تفقد مصداقيتها.

إذاً، هاهو يطلب يدها مرة أخرى، وهاهي تقبل به هذه المرة بالوضوح واللطف المعتادين، دون أن تعطي أسباباً خجلة لتأخرها في القبول، بل قالت ببساطة إنها تحبه وستبذل ما بجهدها ليكون سعيداً. كانت أمه ستسرّ أيضاً، فقد كانت قد تشاورت معه حول الخطوة، وعليه أن يكتب لها تقريراً مطولاً.

نظر إلى يده خشية أن تكون إحدى مواد فريدي الكيماوية قد لوثتها، ثم انتقل إلى منضدة الكتابة وهناك شاهد "عزيزتي السيدة ڤايز"، وبعدها المثير من الكلمات الممحوة. تراجع دون أن يقرأ المزيد، وبعد تردد قصير جلس في مكان آخر، وكتب مذكرة بالقلم الرصاص مستنداً إلى ركبته.

ثم أشعل لفافة تبغ أخرى لم تبد له رائعة كالأولى، وراح يفكر فيما يمكن عمله لجعل غرفة الاستقبال في ويندي كورنر أكثر تميّزاً. مع تلك الإطلالة لابدّ لها أن تكون غرفة ناجحة، ولكن ممر "طريق توتنهام كورت" يعبر قريباً منها. وكان يستطيع تقريباً أن يتصوّر الشاحنات ذات المحركات من شركتي "السادة شولبرد" و"السادة

مابل" تصل إلى الباب وتسلّم هذا الكرسي وتلك الخزائن المطلية بالورنيش للكتب ومنضدة الكتابة تلك. وذكّرته المنضدة برسالة السيدة هنيتشيرتش. لم يكن راغباً قي قراءة تلك الرسالة... فلم تكن إغراءاته لتتجه إلى ذلك المنحى؛ ولكنه شعر بالقلق تجاهها على أي حال. كان اللوم يقع عليه لأنها كانت تناقش أمره مع أمه. وكان في حاجة إلى دعمها في محاولته الثالثة ليحوز على يد لوسي. أراد أن يشعر بأن الآخرين، كائناً من كانوا، يتفقون معه، ولذا فقد طلب الإذن منهم. كانت السيدة هنيتشيرتش لطيفة إلا أنها بليدة في الأمور الجوهرية، أما فيما يتعلق بفريدي...

راح يفكر: "إنه مجرد فتى صغير السن. أنا أمثّل كل ما يحتقره هو. فلماذا سيريدني زوجاً لشقيقته؟".

كان آل هنيتشيرتش عبارة عن أسرة فاضلة، ولكنه بدأ يدرك أن لوسي كانت من طينة أخرى؛ وربما ـ لم يحدّد الأمر بالضبط ـ سيكون عليه أن يعرّفها على دوائر أكثر تجانساً بأسرع وقت ممكن.

قالت الخادمة: "السيد بيب"!، وهكذا دخل القسيس الجديد لـ"شارع سمر". وكان هو قد بدأ للتو بإنشاء علاقات ودودة بناء على مديح لوسي له في رسائلها من فلورنسه.

حيّاه سيسيل بحرج إلى حدّ ما.

"لقد جئت لأتناول الشاي يا سيد ڤايز. هل تفترض أنه سيتاح لي ذلك؟".

"عليّ أن أقول إنك ستناله. الطعام شيء يناله المرء هنا... لا تجلس على ذلك الكرسي؛ فقد ترك السيد هنيتشيرتش الشاب عظْمة فوقه.

"يا للعجب"!

قال سيسيل: "أعرف... أعرف. لا أستطيع أن أفكر في السبب الذي يجعل السيدة هنيتشيرتش تسمح بذلك".

فقد كان سيسيل يعتبر العظمة والأثاث من طراز "مابل" أمران منفصلان. لم يدرك أنه إذا ما جُمعا معاً، فسوف ينيران الغرفة بالحياة التي كان هو راغباً فيها.

"لقد جئت لتناول الشاي ومن أجل القيل والقال. أليس هذا خبراً مثيراً؟".

كرّر سيسيل: "خبراً مثيراً؟ لا أفهم ما تعنيه. خبر مثير؟".

أما السيد بيب الذي كان الخبر الذي يعنيه من طبيعة مختلفة جداً، فهذر قائلاً:

"لقد قابلت السير هاري أوتواي وأنا في طريقي إلى هنا. ولديّ أمل شبه أكيد بأني أول من عرف بالخبر. لقد اشترى (سيسي وألبرت) من السيد فلاك"!

قال سيسيل وهو يحاول أن يسترد أنفاسه: "هل فعل حقاً؟" يا له من خطأ عجيب وقع فيه! هل من المحتمل أن قسيساً ورجلاً نبيلاً قد يشير إلى خطوبته بأسلوب يتسم بكل قلة الاحترام تلك؟ ولكنه لم يتخلّ عن أسلوبه الجاف، وعلى الرغم من أنه سأل من تكون سيسي وألبرت، إلا أنه فكّر في أن السيد بيب رجل مخادع إلى حد ما.

"سؤال لا يمكن غفرانه! أن تتوقف لمدة أسبوع في ويندي كورنر ولم تقابل سيسي وألبرت، وهما المنزلان المتصلان اللذان لهما شكل الڤيلا الواحدة، واللتان تقابلان الكنيسة! سأجعل السيدة هنيتشيرتش تتعامل معك".

قال الشاب بهمّة فاترة: "أنا غبي إلى حد فظيع في الشؤون المحلية. لا أستطيع أن أتذكر الفرق بين مجلس الأبرشية والهيئة المحلية

الحكومية. ربما لا يوجد فرق بينهما، أو ربما ليس هذان اسميهما الصحيحين. أنا لا اذهب إلى الريف إلا لأرى الأصدقاء ولأتمتع بالمشاهد الطبيعية. هذا إهمال كبير مني. إيطاليا ولندن هما المكانان الوحيدان اللذان لا أشعر فيهما أني أعيش على التسامح".

قرر السيد بيب، الذي أصابه الكرب من هذا الاستقبال الرصين لمسألة سيسي وألبرت، أن يغيّر الموضوع.

"اسمح لي يا سيد ڤايز ـ فلقد نسيت ـ أن أسألك عن مهنتك؟".

قال سيسيل: "ليس لديّ مهنة. وهذا مثال آخر على انحطاطي. موقفي ـ ومن الصعب جداً الدفاع عنه ـ هو أني طالما لا أمثّل مشكلة لأي شخص آخر، فإنه يحق لي أن أفعل ما يحلو لي. أعرف أنه عليّ أن أحصّل نقوداً من الناس أو أكرّس نفسي لأمور لا أكترث بها إطلاقاً. ولكني، على نحو ما، لم أتمكن من البدء بذلك".

قال السيد بيب: "أنت محظوظ جداً. إنها فرصة رائعة، امتلاك وقت الفراغ".

كان صوته كهنوتياً، ولكنه لم يعرف كيف يجيب بأسلوب عادي. لقد شعر، كما هو دأب كل أولئك الذين لديهم مهنة منتظمة، أن الآخرين يجب أن تكون لديهم مثل تلك المهنة أيضاً.

"أنا سعيد لأنك توافقني على ذلك. أنا لا أجرؤ على مواجهة الشخص السليم... مثلاً فريدي هنيتشيرتش".

"أوه، فريدي من الصنف الجيد، أليس كذلك؟".

"إنه مثير للإعجاب، الصنف الذي جعل إنكلترا ما هي عليه".

تساءل سيسيل بينه وبين نفسه: لماذا هو عنيد في هذا اليوم بالذات بين كل الأيام الأخرى، وإلى حد ميئوس منه؟ حاول أن يصلح الأمر

بأن راح يسأل بلهجة عاطفية عن والدة السيد بيب، وهي سيدة عجوز لم يكن يحمل لها أي اعتبار خاص. ثم راح يتملّق رجل الدين، ويمتدح ذهنه الليبرالي وموقفه المتنوّر من الفلسفة والعلوم.

قال السيد بيب أخيراً: "أين الآخرون؟ أنا أصرّ على انتزاع كوب من الشاي قبل قداس المساء".

"أفترض أن (آن) لم تبلغهم عن وصولك. في هذا المنزل يتعلم المرء الكثير عن الخدم في يوم وصوله. العيب في (آن) أنها تطلب منك العفو حين تسمعك جيداً، ثم ترفس أرجل الكرسي بقدمها. أما عيوب ماري... لقد نسيت عيوب ماري، ولكنها من النوع الخطير جداً. هل لنا أن نبحث في الحديقة؟"

"أعرف عيوب ماري. إنها تترك لقّاطات الكناسة واقفة على الدرج".

"العيب في (يوفيميا) أنها لن تقبل، ولن تقبل بكل بساطة، أن تقطّع الدهن إلى قطع صغيرة".

ضحكا كلاهما، وبدأت الأمور تتحسن.

استأنف سيسيل الكلام: "أما عن عيوب فريدي..".

"آه، لديه الكثير منها. ولكن لا يستطيع أحد أن يتذكر عيوب فريدي سوى أمه. حاول أن تجد عيوب الآنسة هنيتشيرتش، فهي ليست من النوع الذي لا يُعدّ ولا يُحصى".

قال الشاب بإخلاص جدي: "ليس لديها أي عيوب".

"أوافقك الرأي تماماً. في الوقت الحاضر ليس لديها عيوب".

"في الوقت الحاضر؟".

"لستُ من ذلك الصنف الساخر من الناس. ولكني أفكر فحسب بنظريتي الخاصة المفضلة فيما يخص الآنسة هنيتشيرتش. هل يبدو معقولاً أنها تعزف الموسيقى على نحو رائع جداً، وتحيا في كل ذلك الهدوء؟ أشكّ في أنها ستكون رائعة في كلا الأمرين في يوم من الأيام. ستنهار الحجيرات المضادة للماء فيها ولسوف تمتزج الموسيقى والحياة معاً. ثم ستكون صالحة إلى حد بطولي وسيئة إلى حد بطولي... بطولية جداً ربما إلى حد لن تكون معه لا بالصالحة ولا بالرديئة".

وجد سيسيل رفيقه مثيراً جداً للاهتمام.

"وفي الوقت الحاضر أنت لا تظن أنها رائعة فيما يتعلق بالحياة؟".

"حسناً، عليّ أن أقول إني لم أرها سوى في تنبريدج ويلز، وهناك لم تكن رائعة، وكذلك في فلورنسه. ومنذ أن وصلت إلى شارع سمر، كانت هي على سفر. لقد رأيتها أنت، أليس كذلك، في روما وفي جبال الألب؟ أوه، لقد نسيت، طبعاً، أنت تعرفها من قبل. كلا، لم تكن رائعة في فلورنسه، ولكني بقيت أتوقع أنها ستكون رائعة".

"على أي نحو من النواحي؟".

أصبحت المحادثة مقبولة لهما، وكانا يذرعان الشرفة جيئة وذهاباً.

"يمكنني بكل سهولة أن أخبرك ما هو اللحن الذي ستعزفه في المرة القادمة. لقد كان لديها ببساطة فكرة مغزاها أنها وجدت جناحين، وكانت تنوي استخدامهما. أستطيع أن أريك صورة جميلة في مذكراتي عن إيطاليا: الآنسة هنيتشيرتش كطائرة ورق، والآنسة بارتلت تمسك بالخيط. الصورة رقم 2: الخيط ينقطع".

كانت الرسمة في دفتر مذكراته، ولكنها رُسمت لاحقاً، حين راح ينظر إلى تلك الأمور من وجهة نظر فنية. في ذلك الحين، كان هو يجاذب الخيط سراً وبنفسه.

"ولكن الخيط لم ينقطع قط؟".

"كلا. ربما ما كنت لأرى الآنسة هنيتشيرتش ترتفع في الجوّ، ولكني كنت سأسمع الآنسة بارتلت وهي تقع بكل تأكيد".

"لقد انقطع الآن"، هذا ما قاله الشاب المغرم بلهجة نابضة.

وقد أدرك فوراً أنه من بين جميع الأساليب التي تدلّ على الغرور وتلك السخيفة والتي تستحق الاحتقار، فقد كان أسلوبه هذا هو الأسوأ. لعن حبّه لاستخدام المجاز واستعارة. ماذا لو اقترح بأنه كان نجماً وان لوسي كانت تحلق عالياً للوصول إليه؟

"انقطع؟ ما الذي تعنيه؟".

قال سيسيل: "ما عنيتُه أنها ستتزوجني".

أدرك رجل الدين أن هناك بعض من خيبة الأمل المريرة في صوته لم يستطع أن يتخلص منها.

"أنا آسف. عليّ أن أعتذر. لم تكن لديّ أي فكرة عن أنكما على علاقة حميمة، وإلا ما كنت لأتكلم بتلك الطريقة السطحية التي لا تدلّ على الاحترام. يا سيد ڤايز، كان عليك أن توقفني عند حدي". وهنا شاهد لوسي نفسها في الحديقة؛ أجل، لقد شعر بخيبة الأمل.

أما سيسيل الذي يفضل طبعاً التهاني على الاعتذارات، فقد ارتخى شدقاه. هل هذا هو ردّ الفعل الذي سيلقاه به العالم؟ بالطبع، كان هو يحتقر العالم ككل؛ وعلى كل رجل حرّ مفكّر أن يفعل ذلك. هذا تقريباً اختبار للرهافة. ولكنه كان حسّاساً للذرات المتتابعة من الرهافة والتي كان يواجهها.

في بعض الأحيان كان باستطاعته أن يكون قليل التهذيب.

قال بلهجة جافة: "يؤسفني أني وجهت صدمة إليك. وأخشى أن اختيار لوسي قد لا ينال موافقتك".

"ليس الأمر كذلك. ولكن كان عليك أن توقفني عن الكلام. لا أعرف عن الآنسة هنيتشيرتش إلا القليل مع مرور الوقت. ربما لم يكن عليّ أن أجادل في أمرها بكل هذه الحرية مع أي شخص، وبالتأكيد ليس معك".

"هل تشعر بأنك قلت شيئاً ما غير لائق".

تمالك السيد بيب نفسه. حقاً إن السيد فايز يتحلّى بفنّ إحراج الناس إلى حد متعب. وهكذا اضطر إلى استخدام امتيازات مهنته.

"كلا، لم أقل أي شيء غير لائق. لقد تنبأت في فلورنسه بأن طفولتها الهادئة والخالية من الأحداث يجب أن تنتهي، وقد انتهت. لقد أدركتُ على نحو غامض بما فيه الكفاية أنها ستتخذ خطوة هامة جداً، وهاهي قد اتخذتها. لقد تعلّمتْ ـ ستسمح لي أن أتحدث بحرية الآن كما بدأته بحرية ـ لقد تعلمتْ ما يعنيه الحب: وهذا أعظم درس ـ كما سيقول لك بعض الناس ـ تزودنا به حياتنا الأرضية". كان الوقت قد حان بالنسبة إليه حتى يلوّح بقبعته نحو الثلاثي الآخذ بالاقتراب. وقد لوح بها. "وهي قد تعلّمت من خلالك أنت". ولو كان صوته ما يزال كهنوتياً، فقد كان صادقاً أيضاً الآن. "فلتحرص أنت على أن يكون ما تعلّمتْه مفيداً لها".

قال سيسيل بالإيطالية وهو الذي لم يكن يحب القساوسة: "شكراً جزيلاً".

صاحت السيدة هنيتشيرتش وهي تصعد منحدر الحديقة بجهد: "أوه، يا سيد بيب، هل سمعت الخبر؟".

صفّر فريدي بفمه، وهو المترع باللطف الآن، مارش الزفاف. نادراً ما ينتقد الشباب الحقيقة المنجزة.

صاح: "لقد سمعت بالفعل". ثم نظر إلى لوسي. في حضورها لم يكن قادراً على لعب دور القسيس... وفي كل الأحوال فليس دون اعتذار. "يا سيدة هنيتشيرتش، سأفعل كل ما يفترض بي أن أفعله على الدوام، ولكني خجول جداً على العموم. أريد أن أتوسل إليهما بكل نوع من أنواع المباركة، الجاد منها والهازل، العظيم والصغير. أريد لهما طوال حياتهما أن يكونا طيبين وسعيدين إلى أقصى حد كزوج وزوجة، وكأب وأم. والآن أريد أن أتناول الشاي خاصتي".

ردت عليه السيدة قائلة: "لقد طلبتَه في الوقت الملائم تماماً. كيف تجرؤ على أن تكون جدياً في ويندي كورنر؟".

قلّد أسلوب كلامها المرح. لم يعد هناك إحسان ثقيل الظل ولا محاولات أخرى لتبجيل الحالة بالشعر أو بالنصوص المقدسة. لم يجرؤ أي منهم أو يتمكن من أن يكون جدّياً بعد ذلك.

الخطوبة أمر شديد الفعالية إلى حد أنه سرعان ما يقوم بجعل كل من يتحدث عنه يفعل ذلك في مثل هذه الحالة من الروع الفرح. بعيداً عنها، في عزلة غرفتيهما، فإن السيد بيب وحتى فريدي، قد يصبحان من النقّاد مجدداً. ولكن في حضورها وحضور كل شخص آخر، فقد كانا مرحين بصدق. إن للخطوبة سلطة غريبة، لأنها لا تأسر الشفتين فحسب، بل والقلب نفسه. والنظير الرئيسي ـ أي أن تقارن شيئاً عظيماً مع آخر من نوعه ـ هو أشبه بالسلطة التي تُمارس علينا من قبل معبد لدين أجنبي ما. نقف في الخارج فنسخر منه أو نعارضه، أو نشعر في الحد الأقصى بشيء وجداني. أما في الداخل، ورغم أن القديسين والآلهة لا يخصّوننا، إلا أننا نصبح مؤمنين صادقين، في حال كان أي مؤمن صادق حاضراً.

وهكذا حدث أنه بعد التخبّط والشكوك في فترة ما بعد الظهر، تماسك الجميع وجلسوا ليتشاركوا في حفلة شاي ممتعة جداً. ولو كانوا مرائين، فهم لم يكونوا على علم بذلك، وكانت مراءاتهم تنال كل فرصة من فرص أن تتلاءم وتصبح حقيقية. وكانت "آن" التي راحت تضع على المائدة كل طبق كأنه هدية عرس قد حفزتهم إلى حد كبير. لم يستطيعوا أن يتوانوا خلف ابتسامتها تلك التي كانت تمنحهم إياها قبل أن ترفس باب غرفة الضيوف. غرّد السيد بيب. كان فريدي في أقصى حالات ظرفه، وراح يشير إلى سيسيل على أنه فياسكو "fiasco" وكانت هذه تورية خاصة بآل هنيتشيرتش لكلمة "fiancé"[1]. وقد بدت السيدة هنيتشيرتش - التي كانت تبثّ روح التسلية مع التحلّي بالجلال - واعدة بأنها ستكون حماة طيبة. أما فيما يتعلق بلوسي وسيسيل اللذين شُيّد المعبد من أجلهما، فقد شاركا في هذا الطقس المرح أيضاً، ولكنهما راحا ينتظران، كما على عابدين جديدين أن يفعلا، حتى يكتشفا مقاماً للفرح أكثر قدسية.

* * *

(1) فياسكو: تعني الفاشل تماماً. أما فيانسيه فتعني الخطيب. المترجم.

# لوسي كلوحة فنية

بعد بضعة أيام من إعلان الخطوبة، دعت السيدة هنيتشيرتش لوسي وفياسكوها إلى حفلة صغيرة في حديقة في حيّهم، فقد أرادت طبعاً أن تري الناس أن ابنتها ستتزوج من رجل حسن الطلعة والهندام.

كان سيسيل أكثر من مجرد رجل حسن الطلعة والهندام؛ فقد كان أمراً باعثاً على السرور مشاهدة جسده الرشيق وهو يمشي مع لوسي، ووجهه الطويل الوسيم يستجيب حين كانت لوسي تكلمه. هنّأ الناس السيدة هنيتشيرتش، وأعتقد أن هذا خطأ اجتماعي فادح، ولكنه أدخل السرور إلى قلبها، كما أنها قدّمت سيسيل دون تمييز بالأحرى إلى بعض العجائز المهيبات والمزكومات.

عند تناول الشاي، جرت حادثة تدلّ على سوء الحظ: فقد انقلب فنجان قهوة على ثوب لوسي الحرير المزخرف، وعلى الرغم من أن لوسي تظاهرت بعدم الاكتراث، إلا أن أمها لم تتظاهر بمثل ذلك، بل جرّتها إلى داخل المبنى لمعالجة الثوب من قبل خادمة متعاطفة. وقد غابتا لوقت طويل، وتُرك سيسيل وحيداً مع العجائز المهيبات. حين عادتا لم يكن هو في حالة تدعو إلى السرور كما كان من قبل.

سأل وهم عائدون بالعربة إلى المنزل: "هل تذهبان إلى كثير من هذه المناسبات؟".

قالت لوسي التي كانت قد استمتعت إلى حدّ ما بالحفلة: "أوه، بين الحين والآخر".

"وهل هذه الحفلات شيء يخص المجتمع الريفي؟".

"أفترض ذلك. أليست هي كذلك يا أمي؟".

قالت السيدة هنيتشيرتش التي كانت تحاول أن تتذكر الخط المنحدر لأحد الأثواب: "الكثير من المجتمعات".

ولما رأى سيسيل أن أفكارها كانت سارحة في مكان آخر، فقد مال إلى لوسي وقال:

"لقد بدا لي الأمر مروّعاً ومشؤوماً ومنذراً بالشرّ بكل ما في الكلمة من معنى".

"أنا آسفة جداً لأننا تركناك مع أشخاص غرباء".

"ليس الأمر كذلك، وإنما التهاني. كانت مثيرة جداً للاشمئزاز تلك الطريقة التي ينظرن بها إلى الخطوبة وكأنها ملكية عامة ومشاعة، وكنوع من المزبلة التي ترمى فيها كل عاطفة سوقية. كل أولئك النسوة العجائز المتكلفات الابتسام"!

"على المرء أن يتجاوز الأمر، على ما أفترض. وهن لن يلحظننا كثيراً في المرة القادمة".

"ولكن وجهة نظري هي أن موقفهن كله على خطأ. الخطوبة ـ وهي كلمة بغيضة أولاً وأخيراً ـ مسألة خصوصية، ويجب أن تُعامل على هذا الأساس".

ولكن النساء العجائز المتكلفات الابتسام، مهما كنّ على خطأ فردياً، إلا أنهن كنّ على صواب عرْقياً. لقد ابتسمت روح الأجيال عبرهنّ، وهي تحتفي بخطوبة سيسيل ولوسي لأنها وعدت باستمرار الحياة على الأرض. أما بالنسبة إلى سيسيل ولوسي فقد وعدت بشيء مختلف تماماً: الحب الشخصي. ومن ثم غضب سيسيل واعتقاد سيسيل بأن غضبه كان عادلاً.

قالت: "لكم هذا مضجر! ألم تستطع أن تهرب لتلعب التنس؟".

"أنا لا ألعب التنس... على الأقل ليس أمام العموم. والحيّ محروم من رومانسية كوني رياضيّ الجسم. والرومانسية التي أتحلى بها هي التي تخص (بالإيطالية) الشخص الإنكليزي ذا الصفات الإيطالية".

(بالإيطالية): "الشخص الإنكليزي ذو الصفات الإيطالية؟".

(بالإيطالية): "هو الشيطان متجسداً! ألا تعرفين هذا المثل؟".

لم تكن تعرفه. كما لم يكن هذا يليق بشاب أمضى شتاء هادئاً في روما مع أمه. ولكن سيسيل، منذ خطوبته، قد اعتاد أن يتظاهر بشيطنة كوزموبوليتانية لم يكن يتحلى بها أبداً.

قال: "حسناً، لا أستطيع أن أحول دون الأمر إن كن يرفضنني حقاً. هناك بعض الحواجز الراسخة بيني وبينهن؛ وعليّ أن أقبل بها".

قالت لوسي الحكيمة: "لدينا جميعاً نقاط ضعفنا، على ما أفترض".

قال سيسيل الذي رأى من ملاحظتها أنها لم تفهم موقفه تماماً: "أحياناً تفُرض تلك علينا على الرغم من ذلك".

"كيف؟".

"إنها تُحدث فرقاً ما، أليس كذلك، بين أن نقيم سياجاً نحتمي به وبين أن يحتجزنا آخرون خارج أسيجتهم؟".

فكرت لبرهة، ووافقته على أن ذلك يحدث فرقاً.

صاحت السيدة هنيتشيرتش، وقد تيقظت فجأة: "فرقاً؟ لا أرى أي فرق. الأسيجة هي الأسيجة، خاصة حين تكون في المكان نفسه".

"نحن نتكلم عن الدوافع"، هكذا قال سيسيل الذي قوطع كلامه.

"عزيزي سيسيل، انظر إليّ". فتحت ركبتيها ووضعت علبة أوراق اللعب خاصتها على حضنها. "هذه أنا، وذلك هو ويندي كورنر. وبقية النموذج هي الأشخاص الآخرون. الدوافع كلها جيدة جداً، ولكن السياج يكون هنا".

قالت لوسي ضاحكة: "لم نكن نتكلم عن الأسيجة الحقيقية".

"أوه، أرى ذلك يا عزيزتي... الشِّعر".

استندت بهدوء إلى الخلف. تساءل سيسيل عن السبب الذي يجعل لوسي تضحك.

قالت: "سأقول لكما من هو الذي ليست لديه (أسيجة) كما تسميانها، إنه السيد بيب".

"القسيس دون أسيجة يعني قسيساً غير حصين".

كانت لوسي بطيئة في متابعة ما يقوله الناس، ولكنها سريعة بما فيه الكفاية في كشف ما يعنونه. لقد فاتتها حكمة سيسيل، ولكنها فهمت الشعور الذي حرض تلك الحكمة.

سألت بتأمّل: "ألا تحب السيد بيب؟".

صاح: "لم أقل ذلك بتاتاً! أعتبره أعلى من المتوسط بكثير. ولكني استنكرت فحسب..". ثم انتقل إلى موضوع الأسيجة مجدداً، وكان ذكياً في فعلته تلك.

قالت وهي تريد أن تحكي شيئاً ملائماً: "إذاً، رجل الدين الذي أكرهه فعلاً هو ذاك الذي لديه أسيجة، والأكثر فظاعة بين رجال الدين هو السيد إيغر، القس الإنكليزي في فلورنسه. لقد كان مرائياً بالفعل، ولم يكن أسلوبه هو الرديء فحسب، إذ كان متكبّراً وشديد الغرور أيضاً. كما كان يقول أشياء فظيعة".

"أي نوع من الأشياء؟".

"كان هناك رجل عجوز في (بنسيون برتوليني)، وقد قال عنه إنه قتل زوجته".

"ربما فعل ذلك".

"عجباً، كلا"!

"ولماذا تقولين (كلا)؟".

"لقد كان رجلاً عجوزاً في منتهى اللطف. أنا على ثقة من ذلك؟".

ضحك سيسيل من عدم التساوق المنطقي الأنثوي لديها.

"حسناً، حاولتُ أن أتمحص في الأمر. لم يوضح السيد إيغر المسألة كما يجب. كان يفضل أن يتركها غامضة ـ قال إن الرجل قتل زوجته (عملياً) ـ وقد قتلها تحت أنظار الرب".

قالت السيدة هنيتشيرتش بذهول: "اسكتي يا عزيزتي"!

"ولكن أليس أمراً لا يُحتمل أن يقوم شخص مطلوب منك أن تتخذيه نموذجاً يقتدى به بنشر الافتراءات في كل مكان؟ أعتقد أن الأمر وما فيه هو أن السبب يعود على نحو رئيسي إلى أن الرجل العجوز قد تم الحطّ من قدره. لقد زعموا أنه سوقيّ، ولكنه لم يكن كذلك بكل تأكيد".

"يا له من رجل عجوز مسكين! ما كان اسمه؟".

قالت لوسي بلسان ذرب: "هاريس".

قالت الأم: "فلنأمل أن السيد هاريس ذاك لم يكن وفق ما كانوا يصفونه به".

أومأ سيسيل برأسه بفطنة

سألها: "أليس السيد إيغر قساً من الصنف المثقف؟".

"لا أعرف. أكرهه. سمعته يحاضر عن جوتو. أكرهه. لا شيء يمكنه أن يخفي طبيعة حقيرة. **أكرهه**".

قالت السيدة هنيتشيرتش: "يا إلهي ويا عجباً يا طفلتي! ستصيبينني بالجنون! ما الذي يجعلك تصرخين هذا الصراخ! أحظر عليك وعلى سيسيل أن تكرها أي قساوسة بعد الآن".

ابتسم سيسيل. كان هناك بالفعل أمر ما غير لائق بالأحرى في انفجار حنق لوسي الأخلاقي على السيد إيغر. كأنما كان يشاهد المرء الآن لوحة لليوناردو على سقف مصلى السيستين. تاق إلى أن يلمّح إلى أن كفاءة المرأة لا تكمن في ذلك؛ وإلى أن سلطة المرأة وفتنتها تكمنان في الغموض، وليس في الجعجعة القوية. ولكن ربما كانت الجعجعة علامة على الحيوية: إنها تشوه هذا المخلوق الجميل، ولكنها تكشف عن كونها حيّة. بعد برهة، راح يتأمل في وجهها المتضرج وملامحها المستثارة بنوع من الفضول. كان يمتنع عن كبح منابع الشباب.

كانت الطبيعة ـ أبسط المواضيع كما راح يفكر ـ تحيط بهم. راح يمتدح غابات الصنوبر والبحيرات العميقة من نباتات السرخس والأوراق القرمزية اللون التي كانت تبقّع الشجيرات المريضة والجمال المفيد للطريق الرئيسية. لم يكن هذا العالم الخارجي مألوفاً جداً عنده، وبين الحين والآخر كان يخطئ في مسائل تتعلق بالحقائق. كان فم السيدة هنيتشيرتش يلتوي حين راح يتحدث عن الخضرة الدائمة لشجرة اللاركس الصنوبرية.

ثم ختم كلامه قائلاً: "أعتبر نفسي شخصاً محظوظاً. حين أكون في لندن، أشعر أني لن أستطيع أبداً العيش خارجها. وحين أكون في

الريف، أشعر بهذا الشعور نفسه فيما يخص الريف. وعلى أي حال، أعتقد فعلاً أن الطيور والأشجار والسماء هي أروع الأشياء في الحياة، وأن الناس الذين يعيشون بينها لا بدّ أن يكونوا هم الأفضل. صحيح أنه من بين كل تسع حالات من عشرة لا يبدو عليهم أنهم يلاحظون أي شيء. رجال الريف من النبلاء وعمال الريف، كل بأسلوبه الخاص، هم الأكثر إثارة للكآبة كرفاق. ومع ذلك، فقد يتحلون بتعاطف ضمني مع عوامل الطبيعة نُحرم نحن سكان المدن من الحصول عليه. هل تشعرين بذلك يا سيدة هنيتشيرتش؟".

أجفلت السيدة هنيتشيرتش وابتسمت. لم تكن تصغي إلى ما يقوله. كان سيسيل، الجالس محشوراً على المقعد الأمامي للعربة المكشوفة، يشعر بالانزعاج، وكان مصمماً على ألا يقول أي شيء آخر مثير للاهتمام مرة أخرى.

لم تكن لوسي تصغي إليه أيضاً. كان جبينها مجعّداً، وكانت ما تزال تبدو غاضبة إلى حد الجنون... وقد استنتج هو أن ذلك هو نتيجة لكثير من الألعاب الأخلاقية. لقد أحزنه أن يراها عمياء أمام محاسن غابة شهر آب (أغسطس).

قال مقتبساً[1]: "اهبطي أيتها العذراء من قمة ذلك الجبل البعيد"، ثم لمس ركبتها بركبته.

**احمرّ وجهها مجدداً وقالت: "أية قمة؟".**

**"اهبطي أيتها العذراء من قمة ذلك الجبل البعيد**

**أي متعة تحيا في القمة (هكذا غنى الراعي)**

**في القمة وفي روعة الجبال؟**

---

(1) مطلع قصيدة للشاعر الإنكليزي الشهير ألفرد تنيسون (1809-1892). المترجم.

فلنأخذ بنصيحة السيدة هنيتشيرتش، فلا نكره القساوسة بعد الآن. ما هذا المكان؟".

قالت لوسي: "إنه شارع سمر بالطبع". ونهضت.

كانت الغابات قد انفرجت لتتيح المجال أمام مرج منحدر مثلث الشكل. وكانت أكواخ جميلة تصطف على ضلعي المثلث، والضلع الأعلى الثالث كانت تشغله كنيسة جديدة مشيدة بالحجر وبسيطة إنما مكلفة. ولها برج مستدق فاتن ومغطى بالصفائح. كان منزل السيد بيب قرب الكنيسة. من حيث العلو ما كان بيته يتجاوز علو الأكواخ إلا بالكاد. وكانت بعض القصور العظيمة قريبة إلا أنها مختفية بين الأشجار. كان المنظر يوحي بجبال الألب السويسرية وليس إلى حد ما بمزار وبمركز لعالم مرتاح؛ ولم يكن يشوهه سوى بنائين من نوع الڤيلا صغيرين وقبيحين: هما اللذان كانا يتنافسان [كخبر عاجل] مع خطوبة سيسيل، وقد تم شراؤهما من قبل السير هاري أوتواي في عصر ذلك اليوم بالذات الذي أصبحت فيه لوسي ملكاً له (أي سيسيل).

كان "سيسي" هو اسم إحدى هذين البنائين وألبرت اسم الآخر. وهذان الاسمان لم يتم كتابتهما بأحرف قوطية داكنة فوق بوابة الحديقة فحسب، بل ظهرا أيضاً مرة أخرى على الرواقين حيث كانا قد خُطّا ليلتفّا مع المنحنى نصف الدائري لقوس المدخل بأحرف استهلالية كبيرة. كانت ڤيلا "ألبرت" مأهولة، أما حديقتها المعذّبة فكانت تومض بنباتات إبرة الراعي واللوبيليا والأصداف المصقولة. أما شبابيكها الصغيرة فكانت مغطاة ببساطة بواسطة ستائر مخرمة من طراز نوتينغهام. أما "سيسي" فكانت معروضة للإيجار. وكانت ثلاثة إعلانات تخص الوكلاء العقاريين "دوركينغ" تتدلى على سياجها وتعلن عن هذه الحقيقة غير المدهشة. كانت ممراتها معشوشبة، أما "منديل جيبها" الذي هو مرجتها، فكان أصفر اللون من نباتات الهندباء البرية.

قالت السيدتان آلياً: "لقد تم تخريب الحي! شارع سمر لن يبقى كما كان فيما مضى".

ومع مرور العربة، فُتح باب "سيسي" وخرج منه سيد نبيل.

صاحت السيدة هنيتشيرتش وهي تلمس الحوذي بمظلتها: "توقف! هاهو السير هاري. والآن سنعرف. يا سير هنري، انزع هذه الأشياء على الفور"!

اقترب السير هاري أوتواي ـ الذي لا حاجة إلى وصفه ـ من العربة وقال:

"يا سيدة هنيتشيرتش، لقد تعمدّتُ فعل ذلك. فأنا لا أستطيع طرد الآنسة فلاك".

"ألستُ دائماً على حق. كان عليها أن ترحل قبل توقيع العقد. هل ما تزال تسكن هنا مجاناً، كما فعلت في زمن ابن أخيها؟".

"ولكن ما الذي أستطيع فعله؟" ثم أخفض صوته. "سيدة عجوز وسوقية جداً، تكاد تكون طريحة الفراش".

قال سيسيل بشجاعة: "اطردها".

تنهد السير هاري، ونظر إلى المنزلين بحزن. لقد تم تحذيره جيداً فيما يخص نوايا السيد فلاك، وكان يستطيع شراء قطعة الأرض قبل البدء بالتشييد، ولكنه كان لا مبالياً وبطيئاً. لقد كان يعرف شارع سمر منذ سنوات كثيرة حتى أنه لم يستطع أن يتخيّل أنه سيجري إفساده. لم يحدث الأمر حتى وضعت السيدة فلاك حجر الأساس وبدأ شبح اللون الأحمر ولون القشدة يظهر، عندها شعر بالخطر. قام بزيارة السيد فلاك ـ المعماري المحلي ـ وهو رجل في غاية التعقل والاحترام ـ فوافق هذا على أن القرميد سيصنع سقفاً أكثر

فنيّة، ولكنه ألمح إلى أن ألواح الأردواز أرخص ثمناً. وقد تجرأ على الاختلاف ـ على أي حال ـ حول الأعمدة الكورينثية التي كانت ستلتصق كالعلق بإطارات النوافذ المقوسة، فقال إنه من جهته يحب أن يحرر الواجهة بالقليل من الديكور. ألمح السير هاري إلى أن العمود ـ إن أمكن ـ يجب أن يكون جزءاً من البنية كما يكون للديكور. أجاب السيد فلاك بأن كل الأعمدة قد جرى طلبها، ثم أضاف: "وجميع تيجان الأعمدة مختلفة ـ فأحدها ذو تنينات مع أوراق نبات، وآخر أقرب إلى الأسلوب اليوناني وثالث نقشت عليه الأحرف الأولى من اسم السيدة فلاك ـ كل واحد يختلف عن الآخر". فقد كان قد قرأ كتابات "رسكين"[1]. وقد شيّد البناءين حسب رغبته، ولم يبتاعهما السير هاري حتى كان السيد فلاك قد أقحم عمَّةً من النوع الراسخ في أحدهما.

كانت الصفقة العبثية وغير الرابحة قد ملأت قلوب الفارس بالحزن وذلك حين اتكأ على عربة السيدة هنيتشيرتش. لقد قصّر في واجبه تجاه الريف، وكان الريف يضحك عليه أيضاً. لقد أنفق مالاً، ومع ذلك فإن شارع سمر قد أُفسد على أسوأ نحو ممكن. كل ما يستطيع فعله الآن هو أن يجد مستأجراً مرغوباً فيه من أجل "سيسي"... شخصاً مرغوباً فيه بالفعل.

قال لهم: "الإيجار رخيص إلى حد غريب، وربما كنت أنا صاحب ملك من النوع السهل. ولكن حجم الفيلا محرج. إنها كبيرة جداً على طبقة الفلاحين، وصغيرة جداً على أي شخص مثلنا على الأقل".

---

(1) "جون رسكين" (1819-1900) من أهم النقاد الإنكليز في العهد الفيكتوري. المترجم.

كان سيسيل متردداً بين أن يحتقر المبنييْن أو يحتقر السير هاري لاحتقاره لهما. كان الدافع الثاني هو الأقوى.

قال بلهجة خبيثة: "عليك أن تجد مستأجراً على الفور. ستكون الـڤيلا فردوساً مثالياً لموظف في مصرف".

قال السير هاري مستثاراً: "بالضبط! هذا هو بالضبط ما أخشاه يا سيد ڤايز. ستجذب الـڤيلا النوع الخطأ من الأشخاص. لقد تحسنت خدمة القطارات، وهذا تحسن مشئوم"!

قالت لوسي: "سيكون بالأحرى موظفاً نشيطاً".

أجاب سيسيل الذي كان يتمتع بحصة تامة من الولع القروسطي بالأذى، بأن بنية أجسام الأشخاص من الطبقة الوسطى الدنيا كانت تتحسّن بسرعة مروّعة جداً. وقد شعرت لوسي أنه كان يسخر من جارهم اللطيف، فتحمست لإيقاف سيسيل عند حدّه.

صاحت: "يا سير هاري، لديّ فكرة. ما رأيك بالعوانس؟".

"يا عزيزتي لوسي، سيكون ذلك رائعاً. هل تعرفين أياً من أولئك؟".

"أجل، قابلت اثنتين منهما خارج الوطن".

سألها على سبيل التجربة: "هل هما من نبيلات المحتد؟".

"أجل، بالفعل. وفي الوقت الحاضر هما دون سكن دائم. لقد وصلتني أخبار منهما في الأسبوع الماضي. الآنسة تيريزا والآنسة كاثرين آلان. أنا لا أمزح في الواقع، وهما الشخصان الملائمان تماماً. كما أن السيد بيب يعرفهما أيضاً. هل أطلب منهما أن تكتبا إليك؟".

صاح: "يمكنك بالفعل! ها نحن وقد سبق ووجدنا حلاً للمشكلة. لكم هذا ممتع! تسهيلات إضافية: يرجى أن تقولي لهما إنهما ستحصلان على تسهيلات إضافية، فأنا لن أطالبهما بأجور الوكيل

العقاري. أوه، الوكلاء العقاريون! يا للأشخاص الرهيبين الذين أرسلهم أولئك إليّ! إحدى النساء، حين كتبت إليها رسالة مهذبة كما تعلمين ـ وسألتها عن وضعها الاجتماعي، فأجابت بأنها ستدفع الإيجار سلفاً. وكأنما يكترث المرء منا بذلك الأمر! كما وردني العديد من الوساطات غير المرْضية ـ أشخاص خداعون أو غيْر محترمين. أوه، الخداع! لقد رأيت الكثير من الجانب المنحط في هذا الأسبوع الأخير. خداع من أشخاص واعدين جداً ! يا عزيزتي لوسي، الخداع"!

أومأت برأسها.

تدخلت السيدة هنيتشيرتش، فقالت: "نصيحتي هي ألا تجعل لوسي ونساءها الذاويات ذوات المحتد الأصيل على صلة بهذا الموضوع إطلاقاً. أعرف هذا النمط. أبعدْ عني أولئك الأشخاص الذين عرفوا في الماضي أياماً أفضل من أيامنا هذه، ويحضرون معهم متاعاً موروثاً يجعل المنزل ذا رائحة فاسدة. إنه لأمر محزن، ولكني أفضل إلى حد أكبر أن تؤجر الڤيلا لشخص حظه آخذ بالصعود في هذا العالم وليس لذاك الذي حظه آخذ بالنكوص.

قال السير هاري: "أفهم مقصدك على ما أعتقد، ولكنه أمر محزن جداً حسب ما تقولين".

صاحت لوسي: "ليست الآنستان آلان من هذا الصنف"!

قال سيسيل: "بل هما كذلك! أنا لم أقابلهما، ولكن عليّ أن أقول إنهما ليستا إضافة ملائمة على الإطلاق إلى هذا الحيّ".

"لا تصغ إليه يا سير هاري... إنه شخص مضجِر".

أجاب: "أنا هو الشخص المضجِر. ما كان عليّ أن أحكي عن مشاكلي لشخصين في سن الشباب. ولكني قلق بالفعل وإلى حد

كبير، والليدي أوتواي ستقول فحسب إني لا أستطيع أن أكون حريصاً، وهذا صحيح تماماً، ولكن لا يوفر لي أي عون".

"إذاً، هل أراسل الآنستين آلان؟".

صاح: "من فضلك".

ولكن عينه ارتعشت حين صاحت السيدة هنيتشيرتش:

"احذر! لا شك أن لديهما طيور الكناري يا سير هاري، احذر الكناري: فهي تبصق البذور عبر قضبان الأقفاص ثم تأتي الفئران. احذر النساء إجمالاً. إقبلْ بالمستأجر الذكر".

همهم بشهامة، على الرغم من أنه رأى الحكمة الكامنة في ملاحظتها: "حقاً...".

"لا يثرثر الرجال وهم يتناولون الشاي. وإذا ما ثملوا، فتلك نهاية الأمر بالنسبة إليهم... فهم يستلقون في مكان مريح وينامون. إن كانوا سوقيين فهم يخفون ذلك فلا ينتشر الخبر. أعطني رجلاً... وهذا طبعاً شريطة أن يكون نظيفاً".

تضرج وجه السير هاري. فلا هو ولا سيسيل كانا يستمتعان بمثل هذه الإطراءات الصريحة لجنسهما. وحتى استثناء الرجال القذرين لم يترك لهما فرقاً كبيراً. اقترح أن تنزل السيدة هنيتشيرتش، إن كان لديها الوقت، من العربة لتلقي نظرة على "سيسي" بنفسها. وقد شعرت هي بالسرور. كانت الطبيعة قد قصدت أن تجعلها فقيرة وأن تعيش في مثل هذا المنزل. كانت الترتيبات المنزلية تجذبها على الدوام، خاصة حين تكون على مستوى صغير.

جذب سيسيل لوسي إلى الخلف حين أرادت اللحاق بأمها.

قال: "يا سيدة هنيتشيرتش، ماذا لو تمشينا إلى البيت وتركناك؟".

كان ردها الفوري: "بكل تأكيد"!

وبدا السير هاري سعيداً جداً تقريباً هو أيضاً بالتخلص منهما. ابتسم لهما بابتهاج وعن معرفة، وقال: "آهه، يا للشبان، الشبان! الشبان"! ثم هرع ليفتح باب الـڤيلا.

صاح سيسيل، حتى قبل أن يبتعدا عن مرمى السمع تقريباً: "سوقيّ ميئوس منه"!

"أوه، يا سيسيل"!

"لا أستطيع مغالبة الأمر. سيكون من الخطأ عدم الاشمئزاز من هذا الرجل".

"إنه ليس ذكياً، ولكنه لطيف حقاً".

"كلا يا لوسي، فهو يمثل كل ما هو سيئ في الحياة الريفية. في لندن سيدرك ما هو مقامه ويتصرف حسب ذلك. سينتمي إلى ناد للبلهاء، وستقيم زوجته حفلات عشاء بلهاء. ولكنه يتصرف هنا كإله صغير بسبب محتده الأصيل وإحسانه وجمالياته الزائفة. وكل شخص، كل شخص ـ حتى أمك ـ تنخدع به".

قالت لوسي: "كل ما تقوله صحيح تماماً"، وذلك على الرغم من أنها شعرت بثبوط الهمة. "أتساءل ما إذا ... ما إذا كان الأمر هاماً إلى هذا الحد".

"إنه هام جداً. السير هاري هو جوهر ذلك الحفل الريفي يا إلهي، لكم أشعر بالغضب! لكم آمل أن يحصل على مستأجر سوقيّ لتلك الـڤيلا... امرأة ما تكون سوقية فعلاً حتى يلاحظ الأمر. يا لأصيلي المحتد أولئك! أخ! برأسه الصلعاء وذقنه المنكمشة! ولكن هيا بنا ولننسَ أمره".

كانت لوسي سعيدة بما فيه الكفاية لتنسى كل ذلك. إن كان سيسيل يكره السير هاري أوتواي والسيد بيب، فما هي الضمانة على أن الأشخاص الذين يهمها أمرهم فعلاً سينجون من كرهه؟ مثلاً فريدي. لم يكن فريدي ذكياً ولا حاذقاً ولا جميلاً، فما الذي سيمنع سيسيل من أن يقول في أي دقيقة: "سيكون من الخطأ عدم الاشمئزاز من فريدي". وما الجواب الذي سترّد به عليه؟ لم تذهب أبعد من فريدي، ولكن هذا سبّب لها ما يكفي من القلق. كانت لا تستطيع سوى أن تطمئن نفسها إلى أن سيسيل يعرف فريدي منذ بعض الوقت. وأنهما كانا يتفاهمان إلى حد مثير للسرور، باستثناء الأيام القليلة الماضية ربما، وكان ما حدث مصادفة على الأرجح.

سألته: "في أي درب تريد أن نمضي؟"

كانت الطبيعة ـ أبسط المواضيع كما راحت تفكر ـ من حولهما، إذ يقع شارع سمر عميقاً في الغابة، وكانت قد توقفت حيث يتفرع درب للمشاة عن الطريق العام.

"هل هناك طريقان؟".

"ربما يكون الطريق العام أكثر معقولية، حيث أننا نرتدي ملابس أنيقة".

قال سيسيل بتلك الإثارة التي لاحظتها عليه طوال عصر ذلك اليوم: "أفضّل الذهاب عبر الغابة. لماذا تقولين لي يا لوسي وعلى الدوام أنك تفضلين الطريق؟ هل تعرفين أنك لم تتواجدي معي ولو مرة واحدة في الحقول أو الغابة منذ خطوبتنا".

"ألم يحدث ذلك؟ هيا بنا إلى الغابة إذاً"، هذا ما قالته لوسي وقد أجفلت من غرابة تصرفه، ولكنها كانت متأكدة تماماً من أنه سيشرح الأمر لاحقاً. لم يكن من عادته أن يتركها في حالة من الشك من حيث المغزى الذي يقصده.

قادته نحو أشجار الصنوبر الهامسة، وقد شرح لهـا بكـل تأكيـد مـا قصده قبل أن يقطعا اثنتي عشرة ياردة.

"لديّ فكرة ـ وربما لست على خطأ ـ أنـك تـشعرين بارتيـاح معـي حين نكون في غرفة ما".

"في غرفة؟" هكذا رددت كلامه وهي تشهر بحيرة مشوبة باليأس.

"أجل. أو على الأغلب في حديقة، أو على الطريق. ولكن ليس في الريف الحقيقي كما هي الحال هنا".

"أوه يا سيسيل، ما الذي ترمي إليه بكلامك هذا؟ لم أشعر قط بـأي شيء من هذا النوع. أنت تتكلم وكأني واحدة من الشاعرات".

"لا أعرف إن لم تكوني كذلك. أنا أجد صلة لك بالمنظر الطبيعـي: بمنظر طبيعي معين. لم لا يجب عليك أن تجدي صلة لي بغرفة؟".

فكرت لبرهة، ثم قالت ضاحكة:

"هل تعرف أنك على حق؟ أشـعر أني كـذلك. لا بـدّ وأني شـاعرة على أي حال. حين أفكر فيك، فإني أفكر فيـك علـى أنـك في غرفـة. لكم هذا مضحك"!

ولدهشتها بدا عليه الانزعاج.

"هل هي غرفة استقبال، من فضلك؟ ودون إطلالة؟".

"أجل دون إطلالة، كما أتخيل. ولم لا؟".

قال معاتباً: "أفضل بالأحرى أن تجدي لي صلة بالهواء الطلق".

قالت مجدداً: "أوه يا سيسيل، ما الذي تعنيه؟".

وبما أنه لم يكن هناك تفسير وشيك، فقـد تخلـت عـن الموضـوع على أنه صعب جداً على فتاة، ثم قادتـه إلى مكـان أعمـق في الغابـة،

وهي تتوقف بين الحين والآخر عند مجموعة من الأشجار جميلة جداً أو مألوفة لها. لقد عرفت هذه الغابة بين شارع سمر ويندي كورنر منذ أن استطاعت المشي وحدها. لقد لعبت مع فريدي لعبة "الغمّيضة" فيها منذ أن كان هذا طفلاً ذا وجه أرجواني. وعلى الرغم من أنها كانت في إيطاليا، إلا أن فتنة هذه الغابة لم تتبدل بالنسبة إليها.

والآن كانا قد وصلا إلى فسحة بين أشجار الصنوبر... إنه منظر صغير آخر وكأنك في جبال الألب، وهو هنا منعزل ويحتضن بركة ضحلة.

صاحت: "البحيرة المقدسة"!

"ولم تطلقين عليها هذا الاسم؟".

"لا أستطيع تذكر السبب. أفترض أن الاسم ورد في أحد الكتب. وهي الآن مجرد بركة صغيرة موحلة، ولكن هل ترى ذلك الجدول الذي يعبرها؟ حسناً، الكثير جداً من الماء يسيل إلى هنا بعد الأمطار الغزيرة فتصبح كبيرة تماماً وجميلة. ثم أن فريدي اعتاد أن يستحمّ فيها. إنه مولع جداً بها".

"وأنت؟".

كان يعني: (وهل أنت مولعة بها؟) ولكنها أجابت بلهجة حالمة: "لقد استحممتُ هنا أنا أيضاً، حتى تم اكتشاف أمري. ثم كان هناك شجار".

في وقت آخر، ربما كان سيُصدم، فقد كانت أعماقه مترعة بالتزمّت. ولكنه الآن، مع هذا الاعتقاد المؤقت الذي يوحي به الهواء الطلق، فقد سُرّ من بساطتها المثيرة للإعجاب. نظر إليها وهي واقفة عند حافة البركة. وقد عوقبت بشكل مؤلم كما قالت، وهنا ذكّرته بزهرة رائعة ليس لها أوراق تخصها، ولكنها تزهر فجأة لتبرز من عالم ذي لون أخضر.

"ومن اكتشفك؟".

همهمت: "شارلوت. كانت تقيم معنا. شارلوت... شارلوت".

"يا للفتاة المسكينة".

ابتسمت هي بوقار. كانت هناك خطة معينة تراجع هو عنها حتى الآن، ولكنها بدت له على أنها عمليّة.

"لوسي"!

"أجل، أفترض أن علينا أن نتابع السير". هكذا كان ردّها.

"لوسي، أريد أن اسألك شيئاً لم يسبق لي أن سألته".

وكردّ فعل على النبرة الجادة في صوته، فقد خطت خطوة نحوه بصراحة ولطف.

"ماذا يا سيسيل؟".

"حتى الآن لم يحدث أبداً... ولا حتى في ذلك اليوم على المرجة حين وافقتِ على الزواج مني..".

شعر بالخجل، وراح يقلب نظره في أرجاء المكان وكأنما كانا كلاهما تحت المراقبة. لقد خانته شجاعته.

"نعم؟".

"حتى الآن لم أقبّلك مطلقاً".

أحمرّ وجهها وكأنه عبّر عن الأمر بأسلوب يخلو من الرقة إلى حد كبير.

تلعثمت قائلة: "كلا... لم يحدث".

"هل لي أن أسألك... هل يمكنني الآن؟".

"طبعاً يمكنك ذلك يا سيسيل. وكان ذلك ممكناً لك من قبل. أنا لا أستطيع أن أبادرك بذلك، كما تعرف".

في تلك اللحظة السامية لم يكن هو واعياً بأي شيء، عدا الأمور التافهة. كان ردّها غير ملائم. رفعت خمارها بأسلوب عمليّ خال من الانفعال. وحين اقترب منها وجد الوقت ليتمنى لو أنه يتراجع. وحين لمسها، فإن نظارته الأنفية انزاحت من مكانها وانحشرت بينه وبينها على نحو مسطّح.

هكذا كانت القبلة. وقد اعتبرها هو، وكان على حق، قبلة فاشلة. على العاطفة أن تعتقد بنفسها على أنها أمر لا يمكن مقاومته. عليها أن تنسى الكياسة والاعتبار لمشاعر الآخرين وكل اللعنات الأخرى الخاصة بطبيعة مهذبة. وقبل أي أمر آخر كان على العاطفة ألاّ تطلب الإذن أبداً حين يكون هناك حق ما. لم لا يستطيع التصرف كأي شغّيل أو بحّار... كلا، بل كأي شاب خلف نضد حساب؟ أعاد هو تشكيل المشهد: هاهي لوسي تقف كالوردة عند حافة الماء. يندفع هو ويضمها بين ذراعيه. كان يعتقد أن النساء يبجّلن الرجال لرجولتهم.

غادرا البركة في صمت، بعد تلك التحية الوحيدة. انتظر منها أن تتلفّظ بملاحظة ما ليعرف أفكارها في العمق. وأخيراً نطقت، فقالت بوقار ملائم:

"كان الاسم هو إمرسون، وليس هاريس".

"اسم من؟".

"الرجل العجوز".

"أي رجل عجوز؟".

"الرجل العجوز الذي حكيت لك عنه. ذاك الذي عامله السيد إيغـر بجلافة".

لم يستطع أن يعرف أن هذه كانت أكثـر محادثاتهمـا حميميـة حـتى الآن.

* * *

## الفصل [10]

# سيسيل كصاحب نكتة

لم يكن المجتمع الذي اقترح سيسيل إنقاذ لوسي منه ليس بالمجتمع الرائع، ولكنه أكثر روعة مما كان أسلافها يؤهلونها له. كان أبوها محامياً محلياً ناجحاً، وقد شيّد ويندي كورنر كنوع من المضاربة حين كانت تلك المنطقة تشهد انفتاحاً، ووقع في حب ما ابتدعه، وانتهى به الأمر إلى أن يسكن هناك. وبعد زواجه بفترة قصيرة، بدأ الجو الاجتماعي بالتبدّل. بُنيت منازل أخرى على حافة ذلك المنحدر الجنوبي الحاد، كما شيدت منازل أخرى بين أشجار الصنوبر إلى الخلف، وغيرها مجدداً نحو الشمال، فوق الحاجز الكلسي للمنخفضات. كانت معظم هذه المنازل أكبر من ويندي كورنر، كما امتلأت بأناس لم يأتوا من المنطقة نفسها، إنما من لندن؛ وهم الذين أخطؤوا فظنوا آل هنيتشيرتش على أنهم من بقايا أرستقراطية محلية. كان الأب ميالاً إلى الشعور بالخوف، ولكن زوجته قبلت الوضع دون كبرياء ودون تواضع. كانت تقول: "لا أستطيع التفكير فيما يفعله الناس، ولكن هذا من حسن الحظ وإلى حد كبير بالنسبة إلى الطفلين". وكانت تزور الجميع، فيُردّ على زياراتها بزيارات حماسية، ومع مرور الوقت اكتشف الناس أنها لم تكن فعلاً من "بيئتهم"، ولكنهم أحبوها، ولم يبد أن لهذا الأمر أي أهمية. وحين توفي السيد هنيتشيرتش، فقد كان راضياً ـ وهذا أمر لا يحتقره سوى قلة من المحامين ـ لأنه ترك أسرته متجذرة في أفضل تجمع سكاني ممكن.

أفضل الممكن. لا شك أن الكثير من المهاجرين كانوا مملّين بالأحرى، وأدركت لوسي هذا الأمر على نحو أكثر حيوية منذ عودتها من إيطاليا. فحتى الآن كانت قد قبلت مثالياتهم دون جدال... وكذلك غناهم اللطيف ودِينهم غير القابل للانفعال وكرههم لأكياس الورق وقشور البرتقال والقوارير المحطمة. وبما أنها كانت راديكالية تماماً، فقد تعلمت أن تتكلم برعب عن ضواحي المدن وسكانها. الحياة، كما تجشمت العناء لفهمها حتى الآن، كانت دائرة من أناس أثرياء ولطيفين، لهم اهتمامات متماثلة وأعداء متماثلون. في مثل هذه الدائرة، كان المرء يتزوج ويموت. إلى خارج هذه الدائرة، كان الفقر والسوقية اللذان يحاولان دائماً أن يتغلغلا، مثلما يحاول ضباب لندن التغلغل في غابات الصنوبر، فيتدفق عبر الفتحات في الجبال الشمالية. ولكن في إيطاليا، التي يقوم فيها أي شخص يريد ذلك بتدفئة نفسه في نوع من المساواة، تحت الشمس، فإن هذا المفهوم للحياة قد تلاشى. لقد توسعت مداركها؛ أحست أنه لا يوجد أي شخص لا يمكنها أن تحبه، وأن الحواجز الاجتماعية كانت عصية على الإزالة، دون شك، ولكنها ليست عالية على نحو خاص. يمكنك القفز من فوقها كما قد تقفز إلى حقل زيتون لفلاح في جبال الأبنين [الإيطالية]، ويكون هو سعيداً برؤيتك. لقد عادت بعينين جديدتين.

وهذا ما جرى لسيسيل، إلا أن إيطاليا أثّرت فيه على نحو جعلته أسرع، ليس بالتسامح وإنما بالغضب. لقد رأى أن المجتمع المحلي كان ضيقاً، ولكنه بدلاً عن أن يقول: "هل لهذا أهمية كبرى إلى هذا الحد؟" فإنه تمرّد وحاول أن يجد بديلاً له هو المجتمع الذي سماه بالعريض. لم يدرك أن لوسي كانت تقدّس بيئتها بألف من أفعال الكياسة التي تتسبب في إحداث نوع من الرقة والحنان مع مرور

الزمن، وأنه رغم أن عينيها ترى عيوب هذه البيئة، إلا أن قلبها يرفض أن يحتقرها تماماً. كما أنه لم يدرك أمراً أكثر أهمية: أنها لو كانت أعظم من أن تكون عضواً في هذا المجتمع الصغير، إلاّ أنها قد تكون رائعة جداً للمجتمع بأكمله؛ وقد وصلت إلى مرحلة لن يرضيها فيها سوى العلاقات الشخصية. كانت متمردة، ولكن ليس من النوع الذي كان هو يفهمه، بل متمردة ترغب ليس بغرفة سكن أوسع، إنما بالمساواة إلى جانب رجل تحبّه. فقد كانت إيطاليا تعرض عليها أمراً هو أثمن من كل الممتلكات: روحها بالذات.

راحت تلعب لعبة الكرة المربوطة بحبل وذلك مع "ميني" ابنة شقيق القسيس ـ وهي في الثالثة عشرة من عمرها ـ وهي لعبة قديمة وشريفة القواعد إلى حد كبير. وهذه اللعبة يقوم فيها اللاعب بضرب كرات التنس عالياً في الجو حتى تسقط كلها من فوق الشبكة وتقفز باعتدال. البعض منها راح يصيب السيدة هنيتشريتش وأخرى تضيع. أما النتيجة فكانت مشوشة، ولكن ما هو أفضل أوضح حالة لوسي الذهنية، فهي كانت تحاول التحدث مع السيد بيب طوال الوقت.

"أوه، لقد كان ذلك شيئاً مزعجاً ـ أولاً هو، ثم هما ـ لم يعرف أحد ما كانتا تريدانه، وكان كل شخص مضجِراً".

قال السيد بيب: "ولكنهما قادمتان الآن فعلاً. لقد كتبتُ إلى الآنسة تيريزا قبل أيام قليلة، وكانت تتساءل عن عدد المرات التي يأتي بها الجزار، وكان جوابي مرة في الشهر، وهذا مما ترك لديها انطباعاً إيجابياً. إنهما قادمتان. لقد وصلني خبر منهما هذا الصباح".

صاحت السيدة هنيتشريتش: "سأكره هاتين السيدتين آلان! لمجرد أنهما عجوزان وحمقاوان يُتوقع من المرء أن يقول:(لكم هما عزيزتان!). أكره استخدامهما لـ(إذا) ولـ(لكن) وحروف العطف. أما لوسي المسكينة ـ وهي تستحق ذلك ـ فسوف تنحل حتى تصبح مجرد ظلّ".

راقب السيد بيب الظل يقفز ويصرخ عبر ملعب التنس. كان سيسيل غائباً: لا يلعب المرء لعبة الكرة المربوطة بحبل حين يكون سيسيل حاضراً.

"حسناً، إن كانتا قادمتين... كلا يا ميني، ليس زحل". كانت الكرة المسماة بزحل عبارة عن كرة ذات قشرة تخلو جزئياً من الخياطة. خلال الحركة فإنها تصبح محاطة بحلقة. "إن كانتا قادمتين، سيسمح لهما السير هاري بالسكن قبل التاسع والعشرين من هذا الشهر، وسوف يلغي البند المتعلق بطلي الأسقف بالكلس، لأن ذلك سيثير أعصابهما، ويقحم البند المتعلق بالاهتراء الطبيعي. هذا لا يهم. قلت لكِ ليس زحل".

صاح فريدي وهو ينضم إليهما: "زحل ملائم للعبة الكرة المربوطة بحبل. يا ميني، لا تصغي إليها".

"زحل لا يقفز".

"بل يقفز زحل بما فيه الكفاية".

"كلا، هو لا يقفز".

"حسناً، هو يقفز على نحو أفضل من كرة (الشيطان الأبيض الجميل)".

قالت السيدة هنيتشرتش: "اسكت يا عزيزي".

"ولكن انظروا إلى لوسي التي تتذمر من زحل، وطوال الوقت تبقي كرة (الشيطان الأبيض الجميل) في يدها، وهي مستعدة لضربها. هذا صحيح يا ميني، صوبي نحوها واضربيها على قصبتي ساقيها بالمضرب... اضربيها على قصبتي ساقيها"!

"سقطت لوسي أرضاً. تدحرجت كرة (الشيطان الأبيض الجميل) من يدها.

التقطها السيد بيب، ثم قال: "اسم هذه الكرة فيتوريا تورومبونا، من فضلكم". ولكن لم يكترث أحد بتصحيحه.

كان لدى فريدي درجة عالية من القدرة على جلد الفتيات الصغيرات حتى يتغلب الغضب عليهم، وخلال نصف دقيقة حوّل ميني من طفلة خلوق إلى بريّة تعوي. في المنزل إلى الأعلى، سمعهم سيسيل، وعلى الرغم من كان مترعاً بالأخبار المسلّية، فهو لم يهبط ليبلغهم بها، خشية أن يصاب بمكروه. لم يكن جباناً، وكان يتحمل الألم الضروري كأي رجل. ولكنه كان يكره العنف الجسدي للشبان. لكم كان على حقّ! وهاهو المشهد ينتهي بكل تأكيد بصرخة.

قال السيد بيب: "أتمنى لو ترى الآنستان آلان هذا"، وذلك حين كانت لوسي التي راحت تواسي ميني التي أصيبت بجرح خفيف، قد حُملت بدورها عالياً من قبل شقيقها.

لهث فريدي قائلاً: "من هما الآنستان آلان؟"

"لقد استأجرتا فيلا سيسي".

"لم يكن ذلك اسم..".

وهنا زلقت قدمه، فسقط كلاهما - هو وشقيقته - على العشب بلطف. مرت برهة من الزمن.

سألت لوسي ورأس أخيها في حجرها: "لم يكن ذلك اسم من؟".

"لم يكن آلان اسم الشخصين الذين أجّرهما السير هاري".

"لغو فارغ يا فريدي! أنت لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع".

"أنتِ اللغو الفارغ. لقد قابلتُه للتوّ. قال لي وهو يسعل سعالاً خفيفاً: (يا هنيتشيرتش)". كان فريدي مقلّداً من الصنف العادي... (إحم! إحم! لقد حصلتُ أخيراً على مستأجرين جيدين فعلاً). قلت: (حسناً أيها الفتى العجوز!)، وربتّ على ظهره".

"بالضبط الآنستان آلان".

"ليس هذا صحيحاً. بل الاسم أشبه بأندرسون".

"أوه، يا للرب الرحيم! لن تكون هناك لخبطة أخرى"! هذا ما صاحت به السيدة هنيتشيرتش. "ألا تلاحظين يا لوسي أني دائماً على صواب؟ **قلت** لك ألا تتدخلي في شؤون في سيسي. أنا دائماً على صواب. وأنا قلقة تماماً من كوني على صواب أغلب الأحيان".

"هذه مجرد لخبطة أخرى من فريدي. إنه لا يعرف حتى اسم الأشخاص الذين حلوا محل الآنستين".

"أجل، أعرف. لقد تذكرت. إنه إمرسون".

"ما هو الاسم؟".

"إمرسون. وأنا مستعد لمراهنتك على أي شيء تحبينه".

قالت لوسي بهدوء: "يا له من "ديك رياح" هذا السير هاري! ليتني ما تدخلت في هذا الموضوع على الإطلاق".

ثم استلقت على ظهرها وراحت تحدق إلى السماء الخالية من الغيوم. أما السيد بيب، الذي كان يزداد إعجاباً بها يوماً بعد يوم، فهمس لابنة أخيه بأن هذه هي الطريقة الصحيحة للتصرف لو حدث أي خطأ صغير.

في هذه الأثناء، فإن اسم المستأجرين الجديدين قد جعل السيدة هنيتشرتش تتحول عن التأمل في قدراتها الشخصية.

"إمرسون يا فريدي؟ هل تعرف أي إمرسون هما؟".

"لا أعرف إن كانوا إمرسون أم لا". هكذا أجاب فريدي الذي كان ديموقراطياً. وشأنه شأن أخته، وشأن معظم الشبان، فقد كان ينجذب

على نحو طبيعي إلى فكرة المساواة، كما أن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، بأن هناك أنواعاً مختلفة من عائلات إمرسون، قد أزعجته إلى أكبر حد ممكن.

"أثق في أنهما من النوع الصحيح من الأشخاص. حسناً يا لوسي"... كانت هذه قد استوت جالسة مجدداً. "أرى أنك تنظرين إلى أنفك وتفكرين بأن أمك متأبّهة. ولكن هناك حقاً النوع الصحيح والنوع الخطأ، ومن التكلّف التظاهر بأنه لا يوجد مثل ذلك".

قالت لوسي: "إمرسون اسم شائع بما فيه الكفاية".

كانت تحدق شزراً. وبما أنها كانت تجلس على بقعة مرتفعة، فقد استطاعت أن ترى قنن الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر، وهي تهبط الواحدة وراء الأخرى نحو منطقة ويلد. وكلما هبط المرء أكثر في هذه الحديقة، كلما كان هذا المنظر الطبيعي الجانبي أشد روعة.

"كنت أقول فحسب يا فريدي إني أثق بأنهما ليسا من أقرباء إمرسون الفيلسوف، وهو رجل متعِب جداً. أرجوك، هل يرضيك هذا؟".

همهم: "أوه، أجل. وأنت ستكونين راضية أيضاً، فهما صديقان لسيسيل. هكذا هي الأمور". ثم تابع بتهكم متعمد: "أنتم والعائلات الأخرى من هذه المقاطعة ستكونون قادرين على زيارتهما بأمان كامل".

صرخت لوسي: "**سيسيل**؟".

قالت أمه بهدوء: "لا تكوني فظة يا عزيزتي. لوسي، لا تصرخي. إنها عادة جديدة وسيئة أصبحت تألفينها".

"ولكن هل قال سيسيل..".

كرر شقيقها: "صديقان لسيسيل، وبالتالي فهما مرغوب جداً بهما. (إحم، هنيتشيرتش، لقد أرسلت لهما برقية للتوّ)".

نهضت من جلستها فوق العشب.

صعب الأمر على لوسي. كان السيد بيب متعاطفاً معها إلى حد كبير. وبينما كانت تعتقد أن رفض عرضها فيما يخص تأجير الآنستين آلان قد أتى من السير هاري أوتواي، فقد كانت مستعدة أن تتحمله كفتاة طيبة الخلق. ربما كان عليها أن **تصرخ** فعلاً حين سمعت أن ذلك حدث جزئياً بسبب حبيبها. كان السيد ڤايز شخصاً يحبّ إغاظة الآخرين... بل كان ذلك شيئاً أسوأ من الإغاظة: كان يشعر بسرور شرير في خذل الآخرين. أما القسيس، الذي عرف هذا، فراح ينظر إلى الآنسة هنيتشرتش بما هو أكثر من اللطف المعتاد.

حين صاحت لوسي قائلة: "ولكن آل إمرسون خاصة سيسيل... لا يمكن أن يكونا ذينك الشخصين بالذات... هناك تلك.."، فإنه لم يعتبر تلك الصيحة غريبة جداً، إلا أنه رأى فيها فرصة لتحويل الحوار؛ بينما راحت هي تسترد هدوءها. وقد حوّل هو الحوار كما يلي:

"هل تعنين السيدين إمرسون اللذين كانا في فلورنسه؟ كلا، لا أفترض أنه سيتضح أنهما هما بالذات. من المحتمل أنهما أبعد ما يكون عن كونهما صديقين للسيد ڤايز. أوه، يا سيدة هنيتشرتش، إنهما أغرب شخصين! أكثر الأشخاص إثارة للعجب! من جهتنا، نحن أحببناهما، أليس كذلك؟" ناشد لوسي قائلاً: "لقد جرى مشهد عظيم فوق أزهار البنفسج. لقد قطعا أزهار البنفسج وملآ بها جميع المزهريات التي كانت في غرفة الآنستين آلان اللتين فشلتا في الحضور إلى ڤيلا سيسي. يا للسيدتين الصغيرتين المسكينتين! لقد صُدمتا جداً وسرّتا جداً. كان ذلك الحدث موضوعاً لواحدة من أعظم حكايات الآنسة كاثرين آلان. كانت تبدأ بها كما يلي: (أختي العزيزة تحب الأزهار). لقد وجدتا الغرفة بأكملها كتلة هائلة من اللون الأزرق ـ المزهريات والأباريق ـ

وتنتهي الحكاية بـ: (تصرّف لا يدلّ على أنه صادر عن جنتلمان، ولكنه جميل جداً. الأمر كله صعب جداً). أجل، أنا أربط دائماً هذين الشخصين الفلورنسيين من آل إمرسون بأزهار البنفسج".

همهم فريدي وهو لا يرى وجه أخته وقد تضرج باللون الأحمر إلى حد كبير: "لقد خدعك (فياسكو) هذه المرة". لم تستطع لوسي أن تسترد هدوءها. رأى السيد بيب ذلك، وتابع تحويل الحوار باتجاه آخر.

"هذان الشخصان من آل إمرسون هما أب وابنه... الابن شاب مليح وإن لم يكن حسن السلوك. لم يكن بالأحمق، على ما أتخيل، ولكنه فجّ جداً، كما أنه متشائم، إلخ. فرحتنا الخاصة هي الأب... شخص عاطفي قريب من القلب، وقد صرّح البعض بأنه قتل زوجته".

في الأحوال العادية، لم يكن من شأن السيد بيب أن يردد مثل هذه الشائعات أبداً، ولكنه كان يحاول حماية لوسي من هذه الورطة الصغيرة، فراح يكرر أي هراء يطرأ على ذهنه.

قالت السيدة هنيتشرتش: "قتل زوجته؟ لوسي، لا تتركينا. تابعي اللعب بالكرة المربوطة. حقاً، لا بد أن بنسيون برتوليني كان واحداً من أعجب الأماكن. هذا هو القاتل الثاني الذي سمعت أنه كان متواجداً هناك. ما الذي جعل شارلوت تتوقف هناك؟ وبالمناسبة علينا أن ندعو شارلوت للإقامة بيننا في وقت ما".

لم يكن السيد بيب قادراً على تذكر أي قاتل ثانٍ. اقترح على مضيفته أنها قد تكون على خطأ. وحين ألمح إلى أنه يعارضها انفعلت. كانت واثقة تماماً من وجود سائح ثانٍ رويت عنه القصة نفسها. لم تكن تتذكر الاسم. ما كان اسمه يا ترى؟ أوه، ما كان اسمه؟ أمسكت بركبتيها وهي تحاول أن تتذكر الاسم. شيء ما أشبه بثاكري. ضربت جبينها الأمومي بكفها.

سألت لوسي أخاها إن كان سيسيل داخل المنزل.

صاح: "أوه، لا تدخلي"! وحاول أن يمسك بها من كاحليها.

قالت بجدية: "عليّ أن أذهب. لا تكن أحمق. أنت تبالغ في الأمر عندما تلعب".

وبينما كانت تغادرهم، صرخت أمها: "هاريس"! فجعلت الهواء الساكن يرتعد، ممّا ذكّرها بأنها قد كذبت ولم تصحّح الأمر بعد ذلك أبداً. يا لها من كذبة حمقاء أيضاً، ومع ذلك فقد حطمت أعصابها وجعلها تربط آل إمرسون هؤلاء، أصدقاء سيسيل، بالسائحين غير الهامين. حتى الآن كانت الحقيقة تأتيها على نحو طبيعي. لقد رأت أنه في المستقبل سيكون عليها أن تكون أكثر حذراً، وأن تكون صادقة بكل ما في الكلمة من معنى. حسناً، على أي حال، عليها ألا تكذب. أسرعت في صعودها منحدر الحديقة ووجنتاها ما تزالان متضرجتين بالعار. ستمنحها كلمة من سيسيل بعض السلوان، كما كانت متأكدة من ذلك.

"سيسيل"!

"مرحباً"! صاح وهو يطل من نافذة غرفة التدخين. بدا في حالة من الجذل. "كنت آمل أن تأتي. سمعت كل الشوشرة التي حدثت في الحديقة، ولكن يوجد هنا ما هو أكثر مدعاة للمرح. لقد حقّقتُ نصراً كبيراً لصالح "الشاعر الكوميدي"[1]. إن جورج ميريديث على حق: فالسبب وراء الكوميديا والسبب وراء الحقيقة هما الشيء نفسه. وأنا وجدت مستأجرِيْن لفيلا سيسي الكئيبة. لا تغضبي! لا تغضبي! ستسامحينني حين تسمعين القصة كلها".

كان يبدو جذاباً جداً حين يشرق وجهه، كما أنه بدّد نذر الشرّ المضحكة التي انتابتها على الفور.

---

(1) "الشاعر الكوميدي" لوحة شهيرة للفنان البريطاني ويليام هوغارث رسمها عام (1758). المترجم.

قالت: "لقد سمعت بذلك. حكى لي فريدي. يا سيسيل السيئ السلوك. أفترض أن عليّ أن أسامحك. عليك أن تفكرّ فحسب في كل الجهد الذي بذلتُه أنا عبثاً! لا شك أن الآنستين آلان مضجرتان قليلاً، وأنا أفضّل بالأحرى وجود أصدقائك اللطيفين. ولكن ليس عليك أن تضايقني مرة أخرى".

"أصدقائي أنا؟" ضحك. "ولكن يا لوسي النكتة كلها ستأتي لاحقاً! تعالي إلى هنا". ولكنها بقيت واقفة حيث كانت. "هل تعرفين أين قابلت هذين المستأجرين الجذابين؟ في (ناشنال غاليري)[1]، حين ذهبت لأرى أمي في الأسبوع الماضي".

قالت بعصبية: "يا له من مكان عجيب لمقابلة الناس! لا أفهمك تماماً".

"في صالة الفن الأومبري الإيطالي. شخصان غريبان تماماً. كانا يتفرجان بإعجاب على لوحة لـ"لوكا سينيوريلي"[2]... بالطبع، وبأسلوب يدلّ على غباء تام. على أي حال، بدأنا نتحدث، فأنعشاني كثيراً. لقد كانا في إيطاليا".

"ولكن يا سيسيل.."..

تابع كلامه بمرح.

"خلال الحوار ذكرا أنهما يرغبان في استئجار كوخ ريفي ... إذ أن الأب يريد السكن فيه، والابن سيزوره في عطلة نهاية الأسبوع. وقد فكرتُ: (يا لها من فرصة تُسجل لصالح السير هاري!) وقد أخذت منهما عنوانهما، واسم وعنوان شخص من لندن من معارفهما، فوجدت أنهما لم يكونا وغدين فعليين ـ لقد كانت مناسبة عظيمة للهزل ـ وقد كتبت له وتدبرت أمر..".

---

(1) ناشنال غاليري: متحف للفن في لندن تأسس عام (1824). المترجم.

(2) لوكا سينيوريلي: فنان إيطالي (1450-1528). المترجم.

"سيسيل! كلا، ليس هذا عدلاً. ربما كنتُ أنا قد قابلتُهما سابقاً...".

قاطع كلامها.

"أمر جيد تماماً. أي شيء جيد إذا ما كان فيه عقاب لشخص متأبّه. سيؤدي ذلك الرجل العجوز خدمة للحيّ بحجم العالم كله من حيث الطيبة. السير هاري يثير الاشمئزاز جداً بـ(نسائه الذاويات أصيلات المحتد). كنت قد قررتُ أن ألقّنه درساً في وقت من الأوقات. كلا يا لوسي، على الطبقات أن تختلط بعضها بالبعض الآخر، وقبل مرور وقت طويل، ستوافقينني على هذا الرأي. لا بدّ من حصول تزاوج بين الطبقات... وكل أنواع الأمور الأخرى. أنا أؤمن بالديموقراطية".

صرخت: "كلا، أنت لا تؤمن بها. أنت لا تعرف معنى هذه الكلمة".

حدق إليها، وشعر مجدداً أنها لم تعد ليوناردية. "كلا، أنت تؤمن بها"! كان وجهها دون صلة بالفنّ... بل وجه امرأة سليطة ونكدة.

"ليس هذا عدلاً يا سيسيل. أنا ألومك... ألومك إلى حد كبير بالفعل. ما كان عليك أن تبطل مسعاي فيما يخص الآنستين آلان، وتجعلني أبدو سخيفة. أنت تسمي الأمر على أنه تسجيل هدف ضد السير هاري، ولكن هل تدرك أني سأدفع ثمن هذا كله؟ أنا أعتبر الأمر على أنه خيانة منك".

وغادرته.

"مزاج"! هكذا راح يفكر. 

كلا، لقد كان الأمر أسوأ من مجرد مزاج... كان تأبّهاً. طالما كانت لوسي تفكر أن أصدقاءه الأذكياء كانوا سيحلّون محل الآنستين آلان، فهي لا تمانع. وقد أدرك أن هذين المستأجرين الجديدين سيكونان ثمينين من الناحية الثقافية. سيتحمل الأب، كما سيجعل الابن يتكلم وهو من النوع الصموت. ولصالح "الشاعر الكوميدي" و"الحقيقة"، سيجلبهما إلى ويندي كورنر.

* * *

# الفصل [11]

## في شقة السيدة ڤايز فاخرة الأثاث

على الرغم من أن [منْ سُمِّيتْ] بـ"الشاعر الكوميدي" لم تستطع أن تعتني بمصالحها الخاصة، إلا أنها لم تزدرِ بمساعدة السيد ڤايز لها. كان يظن أن إحضاره للسيدين إمرسون إلى ويندي كورنر أمر جيد بكل تأكيد، وقد تم إجراء المباحثات دون تعثر. وقّع السير هاري أوتواي على الاتفاقية، وقابل السيد إمرسون، وتحرر من الوهم حقاً. وقد انزعجت الآنستان آلان كما ينبغي أن يحصل، وكتبتا رسالة مبجّلة إلى لوسي، وحمّلتاها المسؤولية عن الفشل. خطّط السيد بيب للحظات سارة للقادمين الجديدين، وقال للسيدة هنيتشيرتش إن على فريدي زيارتهما حالما يصلان. وبالفعل كانت معدات "الشاعر" وافرة جداً حتى أنها سمحت للسيد هاريس، وهو ليس بالمجرم القوي جداً أن يطأطئ رأسه ويُنسى ويموت.

أما لوسي ـ للهبوط من السماء المشرقة إلى الأرض حيث الظلال بسبب وجود الجبال ـ فقد أصيبت باليأس، ولكنها استقرت بعد تفكير قليل على أن المسألة ليست ذات أهمية على الإطلاق. والآن، بما أنها مخطوبة، فلن تتعرض للإهانة من قبل السيدين إمرسون إلا بالكاد؛ كما أنهما مرحب بهما في الحيّ، مثلما كان مرحباً بسيسيل أن يجلب من يريد إلى الحيّ. ولكن، كما أقول، تطلب هذا بعض التفكير، ـ البنات يفتقدن كثيراً إلى المنطق ـ لذا بقيت الحادثة أعظم بالأحرى وأكثر فظاعة مما كان متوجباً. كانت سعيدة لأن زيارة للسيدة ڤايز كانت قد ترتبت الآن، وانتقل المستأجران إلى ڤيلا سيسي، بينما بقيت هي آمنة في الشقة اللندنية.

همست في المساء الذي وصلت فيه: "سيسيل، سيسيل يا حبيبي"، وانسلّت إلى ما بين ذراعيه.

كما أصبح سيسيل ميّالاً إلى التفسير والشرح. لقد رأى أن النار الضرورية قد أُضرمت في لوسي. هاهي تتوق أخيراً إلى أن تبذل اهتمامها، كما ينبغي للمرأة أن تفعل، وراحت تعجب به وتحترمه لأنه رجل.

همهم: "إذاً، فأنت تحبينني فعلاً يا صغيرتي؟".

"أوه يا سيسيل، أجل! أجل! لا أعرف ما يمكنني فعله من دونك".

مرت عدة أيام. ثم تلقت رسالة من الآنسة بارتلت.

كانت برودة ما قد برزت في العلاقة بين هاتين القريبتين، ولم تكونا قد تراسلتا منذ أن افترقتا في شهر آب (أغسطس). وتعود البرودة إلى ما سمّته شارلوت بـ "الهروب إلى روما""؛ ثم زادت في روما إلى حد مذهل. فالرفيقة التي هي غير ملائمة في العالم القروسطي، تصبح مثيرة للسخط في العالم الكلاسيكي. شارلوت الغيريّة في الساحة العامة للمدينة الرومانية، كان من شأنها أن تختبر مزاجاً أعذب من مزاج لوسي. وفي إحدى المرات في حمامات "كراكلاّ"، فقد شكّكتا فيما إذا كانتا ستتابعان جولتهما. قالت لوسي إنه ستنضم إلى أسرة آل ڤايز ـ كانت السيدة ڤايز من معارف أمها، لذا لم يكن هناك ما هو غير ملائم في الخطة ـ وقد أجابتها الآنسة بارتلت بأنها معتادة تماماً على أن يتم هجرها على نحو مفاجئ. وأخيراً، لم يحدث أي شيء؛ ولكن البرودة استمرت، وبالنسبة إلى لوسي، فقد زادت عندها حين فتحت الرسالة وقرأت فيها ما يلي. كانت مرسلة من ويندي كورنر.

تنبريدج ويلز

أيلول (سبتمبر)

العزيزة جداً لوسيا،

وصلني أخيراً خبر منك! كانت الآنسة لاڤيش تمارس ركوب الدراجة في منطقتكم، ولكنها لم تكن واثقة من أن زيارتها إليكم ستكون موضع ترحيب هذا وقد انثقبت عجلة دراجتها قرب شارع سمر، وبينما كانت الدراجة قيد التصليح، جلست هي تنتظر بكآبة في ساحة تلك الكنيسة الجميلة، فرأت، ولدهشتها، الباب المقابل لها يُفتح ويخرج منه إمرسون الشاب قال إن أباه استأجر منزلاً للتو. وقال إنه لم يكن يدري أنك تسكنين في الحي نفسه (؟). لم يقترح قط تقديم فنجان شاي لإلينور. لوسي العزيزة، أنا قلقة جداً، وأنصحك بأن تعترفي لأمك بسلوكه السابق معك وكذلك لفريدي والسيد ڤايز، وهم سيمنعونه من دخول المنزل، إلخ. ما جرى كان أمراً مشؤوماً جداً، وأعتقد أنه قد سبق لك وأخبرتهم بذلك السيد ڤايز حساس جداً. أتذكر كيف اعتدتُ أن أثير أعصابه في روما. أنا آسفة جداً على كل ما جرى، ولم استطع الشعور بالراحة ما لم أقم بتحذيرك.

صدقيني

ابنة عم أمك القلقة والمحبة

شارلوت

انزعجت لوسي إلى حد كبير، وأجابت كما يلي:

**بوشامب مانشنز**

**عزيزتي شارلوت**

**شكراً جزيلاً على تحذيرك حين نسي السيد إمرسون نفسه على الجبل، فقد جعلتني أعدك بألا أخبر أمي بما حدث لأنك قلت إنها ستلومك لأنك لم تكوني ملازمة لي على الدوام. وقد حافظت على ذلك الوعد، ولا يمكنني أن أخبرها الآن لقد قلت لها ولسيسيل إني قابلت السيدين إمرسون في فلورنسه، وأنهما شخصان محترمان. وأنا أظن فعلاً أنهما كذلك. والسبب الذي جعله لا يعرض فنجان شاي على الآنسة لافيش هو ربما أنه ليس لديه ما يشربه هو نفسه كان عليها أن تحاول الطرق على باب منزل القسيس لا أستطيع أن أبدأ بإثارة جلبة لا طائل منها في هذه المرحلة. لا بدّ أن تلاحظي أن الأمر سيبدو شاذاً. ولو سمع السيدان إمرسون أني شكوتهما، سيظنان أنهما شخصان من ذوي الأهمية، وهما ليسا كذلك. أنا أحب الأب العجوز، وأتطلع إلى لقائه مجدداً. أما بالنسبة إلى الابن، فأنا سأرثي كثيراً له حين سنلتقي، ولن أرثي لنفسي سيسيل يعرفهما. وهو في صحة جيدة وقد ذكرك في يوم سابق، ونتوقع أن نتزوج في كانون الثاني (يناير).**

**المحبّة**

**ل. م. هنيتشيرتش**

للسريّة علّتها: فنحن نفقد معها حسّ التناسب. لا نستطيع أن نعرف ما إذا كان سرّنا هاماً أم لا. هل كان لدى لوسي وابنة عم أمها سرّ كبير سيدمر حياة سيسيل لو اكتشفه، أو أنه سر صغير سيضحك منه لو عرفه؟ لقد اقترحت الآنسة بارتلت أنه السر الذي سيدمر حياة سيسيل لو اكتشفه. ربما كانت على حق، فلقد تحول إلى سر كبير الآن. لو تُرِك الأمر للوسي وحدها، لكانت ستختبر أمها وحبيبها به بصراحة، ويبقى السر صغيراً: "الاسم هو إمرسون وليس هاريس": وكان ذلك ممكن الحدوث قبل أسابيع قليلة فحسب. حاولت أن تخبر سيسيل حتى في الوقت الحاضر بينما كانا يضحكان على حكاية سيدة جميلة حطمت قلبه خلال دراسته. ولكن جسدها تصرف على نحو سخيف جداً فامتنعت عن ذلك.

بقيت هي وسرها عشرة أيام أخرى في العاصمة المهجورة، وهي تزور المواقع الشهيرة التي سيعرفونها جيداً في وقت لاحق. لم يكن هناك أي ضرر ـ كما فكر سيسيل ـ في معرفة هيكل المجتمع، بينما كان المجتمع نفسه غائباً فوق ملاعب الغولف أو منطقة المستنقعات. ورغم ذلك الفصل من السنة، إلا أن السيدة فايز نجحت في ترتيب حفل عشاء يتألف مدعووه من أحفاد أشخاص مشهورين. كان الطعام زهيداً، ولكن الحديث تميز بإرهاق فكه أثّر في الفتاة. بدت متعَبة من كل شيء، على ما يبدو، والمرء يتحمس كي يتراجع برشاقة، ويتماسك بين ضحكات متعاطفة. في هذا الجو، كان بنسيون برتوليني ووِيندي كورنر يبدوان سوقيين على نحو متساوٍ؛ ورأت لوسي أن حياتها في لندن ستُشعرها بالقليل من الاغتراب عن كل ما كانت تحبه في السابق.

طلب منها الأحفاد أن تعزف على البيانو. عزفت مقطوعة لشومان. صاح سيسيل: "والآن اعزفي شيئاً لبيتهوفن:، وذلك حين تلاشى

الجمال النكد للموسيقى. هزّت رأسها وعزفت لشومان مرة أخرى. تصاعد اللحن وكان سحرياً دون جدوى. ثم انقطع. ثم استؤنف وهو متقطع دون أن يسير من المهد إلى اللحد مرة واحدة. إنه حزن اللاكمال ـ الحزن الذي هو دائماً الحياة، ولكن لا يجب عليه أن يكون الفنّ إطلاقاً ـ في جُمَله المتناثرة، وجعل أعصاب الجمهور تنبض بقوة. لم يكن عزفها على هذا المنوال حين استخدمت البيانو الصغير المغطى في بنسيون برتوليني، ولم تكن "الكثير من شومان" هي الملاحظة التي قالها السيد بيب في نفسه حين عادت.

حين رحل الضيوف، ومضت لوسي إلى فراشها، راحت السيدة ڤايز تذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهاباً، وهي تناقش حفلتها الصغيرة مع ابنها. كانت السيدة ڤايز امرأة طيبة، ولكن شخصيتها، شأن شخصية الكثيرات من النساء الأخريات، قد أُغرقت في مستنقع لندن، فقد كانت في حاجة إلى رأس قوية حتى تعيش بين مثل هؤلاء الناس العديدين. كان الفلك الواسع جداً لمصيرها قد حطمها. لقد رأت الكثير من المواسم والكثير من المدن والكثير من الرجال على نحو يفوق قدراتها؛ وحتى في تعاملها مع سيسيل فقد كانت ميكانيكية في أسلوبها، وتتصرف وكأنه لم يكن ابنها الوحيد، بل كجمهرة من الأبناء.

قالت وهي تتطلع من حولها بذكاء في نهاية كل جملة وتجبر شفتيها على أن تبقيا مفتوحتين حتى تنطق مرة أخرى: "اجعل لوسي واحدة منّا. لوسي أصبحت رائعة... رائعة".

"كانت موسيقاها دائماً رائعة".

"ولكنها أخذت تتخلص من الطلاء الهنيتشيرتشي... الهنيتشيرتشيون ممتازون جداً، ولكنك تعرف ما أعنيه. إنها لا تقتبس من كلام الخادمات، أو تسأل كيف يُحضّر البودينغ".

"لقد حققت إيطاليا هذا النجاح".

همهمت وهي تفكر بالمتحف الذي مثّل إيطاليا بالنسبة إليها: "ربما من الممكن. يا سيسيل، هيا وتزوجها في كانون الثاني (يناير) القادم. لقد سبق لها وأصبحت واحدة منا".

صاح: "ولكن موسيقاها! أسلوبها! وكيف ظلّت تعزف لشومان حين أردت أنا، كشخص غبي، أن تعزف لنا شيئاً من بيتهوفن. كان شومان ملائماً لهذه الأمسية. كان شومان الشيء المطلوب. هل تعرفين يا أمي، سأجعل أولادنا يتثقّفون مثل لوسي. سأربيهم بين أشخاص ريفيين صادقين من اجل الطزاجة. ثم أرسلهم إلى إيطاليا من أجل الرقة، ثم ـ وليس قبل ذلك ـ أجعلهم يأتون إلى لندن. لا أؤمن بهذه الثقافات اللندنية..". قطع كلامه إذ تذكر أنه تثقف في لندن، ثم ختم قائلاً: "على أي حال، إنها ليست للنساء".

كررت السيدة ڤايز كلامها: "اجعلها واحدة منا". ثم اتجهت إلى سريرها.

وبينما كانت تغفو، رنّت صرخة ـ صرخة كابوس ـ من غرفة لوسي. كان يمكن للوسي أن ترن الجرس للخادمة لو أحبت، ولكن السيدة ڤايز وجدت أنه من اللطف أن تذهب هي بنفسها. وجدت الفتاة جالسة في سريرها، وقد وضعت يدها على وجنتها.

"آسفة جداً يا سيدة ڤايز... إنها تلك الأحلام".

"كوابيس؟".

"مجرد أحلام".

ابتسمت السيدة العجوز وقبّلتها، وقالت بجلاء: "ربما سمعتنا ونحن نتحدث عنك يا عزيزتي. إنه معجب بك الآن أكثر من أي وقت مضى. احلمي بذلك".

ردّت لوسي القبلة بمثلها، وهي ما تزال تغطي وجنة واحدة بيـدها. عادت السيدة ڤايز إلى سريرها. أما سيسيل ـ الذي لم توقظه الـصرخة ـ فكان يشخر. خيّم الظلام على الشقة السكنية.

* * *

# الفصل الثاني عشر

كان الوقت هو عصر يوم من أيام السبت، وكان زاهياً ومشرقاً بعد الكثير من المطر، وقد سكنت فيه روح الشباب، رغم أن الفصل هو الخريف. كان كل ما هو فاتن قد انتصر. وحين مرت السيارات عبر شارع سمر، فهي لم تثر إلا القليل من الغبار، وكانت روائحها الرديئة قد تلاشت بسرعة مع الريح، وحلّت محلها رائحة أغصان شجر الصنوبر المبللة. كان السيد بيب، وقد ارتاح من لياقات النهار، مستنداً إلى باب منزله. أما فريدي فكان جالساً إلى جانبه باسترخاء وهو يدخن غليوناً معلقاً برقبته.

"ما رأيك لو نذهب ونعيق هذين الشخصين الجديدين اللذين سكنا مقابلنا لبعض الوقت".

صوت همهمة.

"ربما ستجد بعض التسلية لديهما".

اقترح فريدي، الذي لم يكن البشر يسلونه إطلاقاً، أن الشخصين الجديدين قد يكونان مشغولين بعض الشيء، وهكذا دواليك، فلقد انتقلا إلى مسكنهما للتو.

قال السيد بيب: "لقد اقترحت أن نعيقهما. إنهما يستحقان ذلك". ثم رفع مزلاج البوابة، وسار الهوينى فوق الخضرة المثلثة نحو ڤيلا سيسي. صاح عبر الباب المفتوح والذي كان الكثير من الفوضى القذرة واضحاً من خلاله: "هالو"!

أجاب صوت جاد: "هالو"!

"جلبت شخصاً لمقابلتكما".

"سأنزل خلال دقيقة".

كان الممر مسدوداً بخزانة فشل عمال النقل في حملها فوق الدرج. تمكن السيد بيب أن يتجاوزها بصعوبة. أما غرفة الجلوس نفسها فكانت مليئة بالكتب.

همس فريدي: "هل هذان الشخصان من القارئين الكبار؟" هل هما من هذا الصنف؟".

"أتخيل أنهما يعرفان كيف يقرأان... وهذا إنجاز نادر. ما الذي لديهما؟ بايرون. بالضبط. (فتى شروبشر). لم أسمع به من قبل. (طريق اللحم كله). لم أسمع به قط. غيبون. هالو! عزيزي جورج يقرأ بالألمانية... هاهه... شوبنهاور، نيتشه وهكذا دواليك. حسناً، أفترض أن جيلكم يعرف عمله يا هنيتشيرتش".

قال فريدي بلهجة مترعة بالرعب: "يا سيد بيب، أنظر إلى ذلك".

على إفريز الخزانة كانت يد شخص هاوٍ قد كتبت: "لا تثق بكل المشاريع التي تتطلب ثياباً جديدة".

"أعرف، أليس في هذا ما يدعو للابتهاج؟ أحبُّ هذا. أنا واثق أن الرجل العجوز هو من كتبه".

"لكم يدعو هذا إلى الاستغراب"!

"لا شك أنك توافق عليه".

ولكن فريدي كان ابن أمه، وشعر أن على المرء ألا يتلف الأثاث.

تابع القسيس وهو يدور في أنحاء الغرفة: "صور! صورة إحدى لوحات جوتو... لقد حصلا على هذه في فلورنسه، وأنا متأكد من ذلك".

"إنها الصور نفسها التي لدى لوسي".

"أوه، بالمناسبة، هل استمتعت الآنسة هنيتشيرتش بإقامتها في لندن؟".

"لقد عادت البارحة".

"أفترض أنها قضت وقتاً جميلاً؟".

قال فريدي وهو يمسك بأحد الكتب: "وقتاً جميلاً جداً. هي وسيسيل متفاهمان أكثر من أي وقت مضى".

"لعله أمر جيد أن أسمع هذا الكلام".

"أتمنى لو لم أكن أحمق إلى هذا الحد يا سيد بيب".

تجاهل السيد بيب هذه الملاحظة.

"اعتادت لوسي أن تكون حمقاء بقدر ما أنا أحمق، ولكن الأمر سيكون شديد الاختلاف الآن، على ما تظن أمي. ستقرأ لوسي كل أنواع الكتب".

"وأنت كذلك".

"كتب الطب فحسب. ليس الكتب التي تستطيع أن تتحدث عنها لاحقاً. سيسيل يعلّم لوسي اللغة الإيطالية، ويقول إن عزفها رائع. هناك أمور كثيرة ومن كل الأنواع لم نكن قد لاحظناها. يقول سيسيل..".

"ما الذي يفعله هذان الشخصان في الطابق العلوي يا ترى؟ يا سيد إمرسون... نعتقد أننا سنحضر في وقت لاحق.

هبط جورج إلى الطابق الأرضي مسرعاً وجعلهما يدخلان إلى الغرفة دون كلام.

"دعني أقدم لك السيد هنيتشيرتش، جاركما".

عندها أطلق فريدي واحدة من صواعق الشباب. ربما كان خجولاً. وربما كان ودوداً، أو ربما فكر أن وجه جورج في حاجة إلى تنظيف. على أي حال، حيّاه قائلاً: "كيف حالك؟ تعال واستحمّ".

قال جورج ببرود: "أوه، حسناً".

ضحك السيد بيب قائلاً: "كيف حالك؟ كيف حالك؟ تعال واستحمّ. هذه افتتاحية سبق لي وسمعتها؟ ولكني أعتقد أنها لن تكون ذات مفعول إلا بين الرجال. هل تتصور سيدة يتم تقديمها إلى سيدة أخرى من قبل سيدة ثالثة، فتفتح عبارات الكياسة بـ(كيف حالك؟ تعالي واستحمي)؛ ومع ذلك ستقولان لي إن الجنسين متساويان".

قال السيد إمرسون العجوز الذي كان يهبط الدرج ببطء: "سأقول إنهما سيكونان كذلك. مساء الخير يا سيد بيب. أقول لك إنهما سيصبحان رفيقين، وجورج يفكر بالطريقة نفسها".

سأل القسيس: "هل علينا أن ننهض بالسيدات إلى مستوانا؟".

تابع السيد إمرسون وهو ما يزال يهبط الدرج: "جنة عدن التي تضعونها في الماضي ستأتي فعلاً. سندخلها حين نتوقف عن احتقار أجسادنا".

كان السيد بيب يستنكر وضع جنة عدن في أي مكان.

"في هذا الأمر ـ وليس في أمر آخر ـ نحن الرجال متقدمون. نحن نحتقر الجسد أقل مما تفعل النساء، لكننا لن ندخل الجنة قبل أن نصبح رفاقاً لهنّ".

"أقول، ما رأيك بالاستحمام؟" هذا ما قاله فريدي، وقد روّعته هذه الكتلة الكبيرة من الفلسفة التي كانت تقترب منه.

"كنت أؤمن بالطبيعة ذات مرة. ولكن كيف نعود إلى الطبيعة ونحن لم يسبق لنا أن كنا معها؟ اليوم، أعتقد أن علينا أن نستكشف الطبيعة. وبعد غزوات كثيرة سنصل إلى البساطة. إنها إرثنا".

"إسمح لي أن أقدم السيد هنيتشيرتش الذي تتذكر شقيقته حين كنا في فلورنسه".

"كيف حالك؟ يسرني جداً أن أسمع أن شقيقتك ستتزوج قريباً. الزواج واجب. أنا واثق من أنها ستكون سعيدة. فنحن نعرف السيد ڤايز أيضاً. لقد تصرف معنا بمنتهى اللطف. تقابلنا صدفة في صالة "ناشنال غاليري"، ورتّبنا كل شيء يخص هذا المنزل الرائع. وعلى الرغم من أني آمل ألاّ أكون قد أغظت السير هاري أوتواي. لقد سبق لي وقابلت القليل جداً من أصحاب الأملاك الليبراليين، وكنت قلقاً من مقارنة موقفه تجاه قوانين الصيد مع موقف أعضاء حزب المحافظين. آه، يا لهذه الريح! سينفعك الاستحمام. منطقتكم هنا رائعة يا هنيتشيرتش".

همهم فريدي: ليست رائعة على الإطلاق! عليّ أنا... أود أن أقول إني... سأعود لزيارتكما لاحقاً، كما تقولها أمي في العادة، على ما آمل".

"تقوم بزيارتنا أيها الشاب؟ من علّمنا هذا الهذر الخاص بغرف الاستقبال؟ قم بزيارة جَدّتك! استمع إلى صوت الريح بين أشجار الصنوبر! منطقتكم رائعة".

تدخل السيد بيب للإنقاذ:

"يا سيد إمرسون، سيزوركم، وأنا سأزوركم. وأنت أو ابنك ستردان زياراتنا قبل أن تمضي عشرة أيام. أنا واثق من أنك قد أدركت مهلة العشرة أيام. ولا يؤخذ في الحسبان أني ساعدتكما في مشكلة مشابك قضبان السلّم. كما لا يؤخذ في الحسبان أنهما سيستحمّان عصر هذا اليوم".

"اجل، اذهب واستحم يا جورج. لم تضيع الوقت بالكلام؟ أحضرهما معك من أجل شرب الشاي. إجلب بعض الحليب والكعك والعسل. سيفيدك هذا التغيير. كان جورج يعمل بجد كبير في مكتبه. لا أستطيع أن أصدق أن صحته جيدة".

أمال جورج رأسه، المغبر والكئيب، وهو يتشمم الرائحة الغريبة لمن كان ينقل الأثاث.

سأله فريدي: "هل تريد الاستحمام فعلاً؟ إنها مجرد بركة ماء، ألا تعرف؟ أجرؤ على القول إنك معتاد على شيء أفضل بكثير".

"نعم... لقد سبق وقلت (نعم)".

شعر السيد بيب أنه ملزم بمساعدة صديقه الشاب، وقاد الطريق إلى خارج المنزل، باتجاه غابات الصنوبر. لكم كان الجو رائعاً! ولفترة قصيرة ظل صوت السيد إمرسون العجوز يلاحقهم، وهو يرسل تمنياته الطيبة وفلسفته. ثم توقف عن الكلام ولم يعودوا يسمعون سوى صوت الريح الهادئة وهي تهب على نباتات الخنشار والأشجار.

اضطر السيد بيب الذي يستطيع أن يصمت ولكنه لا يحتمل الصمت، إلى أن يثرثر منذ أن بدا أن المشوار سيفشل، ولن ينطق أحد بكلمة واحدة. تحدث عن فلورنسه، وأصغى إليه جورج بجدية، وهو يوافق أو يعارض بحركات خفيفة إنما مصممة غير قابلة للتفسير، شأن حركات قمم الأشجار التي فوق رؤوسهم.

"يا لها من صدفة أن تقابلا السيد ڤايز! هل أدركتما أنكما ستقابلان هنا كل من كان في بنسيون برتوليني؟".

"لم أدرك ذلك. ولكن الآنسة لاڤيش أنبأتني".

"حين كنت شاباً، كنت أنوي دائماً تأليف كتاب عنوانه "تاريخ الصدْفة".

لم تبدر أي علامة تدل على الحماسة.

"وعلى الرغم من ذلك، وكحقيقة، فإن الصُدف أندر بكثير مما نتوقع. مثلاً، ليس صدفة محضة أنك هنا الآن، وذلك حين يتأمل المرء في الأمر".

وقد شعر بالفرج حين بدأ جورج يتكلم.

"إنها صدفة. لقد تأملت في الأمر. إنه القدر. كل شيء مقدَّر. يرمينا القدر بعضنا مع بعض، وبفرقنا أيضاً... يجمعنا ويفرقنا. الرياح الاثنتا عشرة تهب علينا... ونحن لا نقرر شيئاً..".

قال القسيس بسرعة: "أنت لم تتأمل إطلاقاً. فلأقدم لك هذه المعلومة يا إمرسون: لا تنسب أي شيء إلى القدر. لا تقل: (لم أفعل ذلك)، فأنت قد فعلتَه، عشرة إلى واحد. والآن سأستجوبك: أين قابلتَ الآنسة هنيتشيرتش وقابلتَني أول مرة؟".

"في إيطاليا".

"وأين قابلتَ السيد ڤايز الذي سيتزوج من الآنسة هنيتشيرتش؟".

"في الناشنال غاليري".

"كنتم تتفرجون على الفن الإيطالي. إليك ما جرى، ومع ذلك فأنت تتحدث عن القدر! أنت تبحث على نحو طبيعي عن أشياء إيطالية، وكذلك نحن وأصدقاؤنا. وهذا يضيّق المجال إلى حد لا يقاس، ثم نلتقي ثانية فيه".

ألح جورج: "إنه القدر الذي جلبني إلى هنا. ولكن يمكنك أن تسميه إيطاليا إن كان ذلك يسعدك".

تهرب السيد بيب من مثل هذه المعالجة الثقيلة للموضوع، ولكنه كان متسامحاً إلى آخر حد مع الشبان، ولم يرغب في أن يزعج جورج.

"ولهذا السبب ولأسباب أخرى فإن كتابي (تاريخ الصدفة) يجب أن يُكتب".

صمت.

وحتى يتجاوز الموقف كله، فقد أضاف:

"نحن جميعاً سعداء جداً لأنكما أتيتما".



صمت.

صاح فريدي: "لقد وصلنا"!

صاح السيد بيب وهو يمسح جبينه: "أوه، هذا جيد".

ثم أضاف بلهجة اعتذار: "هنا البركة. أتمنى لو كانت أكبر".

هبطا عبر الضفة الزلقة من أبر الصنوبر. هناك كانت البركة في وسط جبلها الشاهق من الخضرة. مجرد بركة، ولكنها كبيرة بما يكفي لتحوي الجسد البشري، ونقية بما يكفي لتعكس لون السماء. وبسبب المطر كان الماء قد فاض على العشب المحيط بها، فأظهره كممر جميل من الزمرد، مما كان يغري الأقدام بالاتجاه نحو البركة المركزية.

قال السيد بيب: "إنها ناجحة بجلاء كبركة".

"لا ضرورة للاعتذار فيما يخص البرك".

جلس جورج حيث كانت الأرض جافة وخلع حذاءه بكآبة.

"أليس هذه الأكوام من عشبة الخلاف رائعة؟ أحب عشبة الخلاف وبذورها. ما اسم هذا النبات العطري؟"

لم يكن أي منهما يعرف الاسم أو بدا عليه أنه يكترث بذلك.

"هذه التبدّلات الفجائية في النباتات... هذه البقعة الصغيرة الأسفنجية من النباتات المائية، وعلى الجانبين كل ما ينمو فهو خشن أو هشّ: الخلنج والخنشار والهيرت والصنوبر. هذا ساحر، ساحر جداً"!

صاح فريدي وهو يخلع ملابسه: "ألن تستحم يا سيد بيب؟".

كان السيد بيب يفكر أن يقدم على ذلك.

صاح فريدي وهو يقفز في الماء: "الماء رائع"!

همهم جورج: "الماء هو الماء". بلّل شعره أولاً، وهذا دليل على اللامبالاة، ثم لحق بفريدي في "البركة المقدسة"، وهو غير آبه وكأنه تمثال وكأن البركة دلو من رغوة الصابون. كان من الضروري أن يستخدم عضلاته. وكان ضرورياً له أن ينظف نفسه. راقبهما السيد بيب وراقب بذور عشبة الخلاف تتراقص كأنها جوقة راقصة فوق رأسيهما.

قال فريدي وهو يسبح لمسافة ضربتين في كلا الاتجاهين، فيجد نفسه عالقاً في نباتات القصب أو الطين: "أبوشو، أبوشو، أبوشو".

سأل الآخر وهو يشبه تمثالاً لميكلأنجلو على الحافة المغمورة بالماء: "هل يستحق الأمر ذلك؟".

انهارت الضفة، فسقط جورج في البركة قبل أن يزن السؤال على النحو الصحيح.

"تفو... لقد ابتلعت بيض ضفدعة. يا سيد بيب، الماء رائع، الماء ببساطة بديع".

صاح جورج وهو يعود للظهور بعد غطسته، ويغمغم باتجاه الشمس: "ليس الماء سيئاً جداً".

"الماء رائع يا سيد بيب. هيا".

"أبوشو، كوف"[1].

كان السيد بيب يشعر بالحرّ، وبما أنه كان يذعن دائماً عند الإمكان، فقد نظر من حوله. لم يستطع مشاهدة أي عضو من أعضاء أبرشيته

(1) أبوشو... كوف: مجرد عبارات للمزح. المترجم.

باستثناء أشجار الصنوبر التي كانت تنهض عالياً من كل جانب، وتشير الواحدة منها إلى الأخرى أمام السماء الزرقاء. لكم كان ذلك رائعاً! تلاشى عالم السيارات والقساوسة الريفيين دون حدود. الماء والسماء والأشجار دائمة الخضرة والريح... هذه الأشياء لا يمكن حتى للفصول أن تطالها، وهي بالتأكيد خارج قدرة الإنسان على التدخل؟

"يمكنني أن أغتسل أنا أيضاً". وسرعان ما صنعت ملابسه كومة ثالثة فوق الأرض المعشوشبة، وأكد هو أيضاً على روعة الماء.

كان ماء عادياً، ولم يكن هناك الكثير منه. وكما قال فريدي، فهو يذكّر المرء بمن يسبح في سلَطة. راح الرجال الثلاثة يدورون في صدر البركة بأسلوب الحوريات في "غوتردمرونغ"[1]. ولكن إما لأن المطر قد منح الماء بعض الطزاجة، أو لأن الشمس راحت تبثّ أروع أنواع الحرارة، أو لأن اثنين من الرجال كانا شابين سناً والثالث شاباً بالروح... لسبب ما أو لآخر طرأ نوع من التغيير عليهم، ونسوا إيطاليا وعلم النبات والقدَر. شرعوا يلعبون. راح السيد بيب وفريدي يتراشقان بالماء. كما رشقوا جورج مع بعض المراعاة. كان صامتاً: خشيا أن يكونا قد أزعجاه. ثم انفجرت قوى الشباب كافة. ابتسم، رمى بنفسه عليهما، ورشقهما بالماء، وغطسهما في الماء، ورفسهما، ورشقهما بالطين ثم أخرجهما من البركة.

صاح فريدي: "أسابقك من حولها إذاً". ثم تسابقوا تحت أشعة الشمس، اتخذ جورج مساراً مختصراً فلوّث قصبتي ساقيه، واضطر إلى الاستحمام مجدداً. ثم وافق السيد بيب على الجري... وكان مشهداً جديراً بالتذكر.

---

(1) "غسق الآلهة": مسرحية موسيقية لريتشارد فاغنر. المترجم.

جروا لتجفّ أجسادهم، ثم استحموا ليبرّدوها، ولعبوا دور الهنود في نباتات عشبة الخلاف والخنشار؛ ثم نظفوا أجسادهم. وطوال الوقت كانت ثلاثة أكوام فوق الأرض المعشوشبة تعلن بحذر:

"كلا، نحن أصحاب الأهمية. من دوننا لن يبدأ أي مشروع. إلينا سيعود كل اللحم ستعود جميع الأجساد في النهاية".

"محاولة! محاولة"! هكذا صاح فريدي وهو يختطف كومة ملابس جورج وبضعها قرب عمود الهدف المتخيّل.

أجاب جورج وهو ينثر كومة ملابس فريدي برفسة من قدمه: "قواعد لعبة كرة القدم".

"هدف"!

"هدف"!

"تمريرة"!

صرخ السيد بيب: "انتبه لساعتي"!

راحت الملابس تطير في كل الاتجاهات.

"انتبها لقبعتي! كلا، هذا يكفي يا فريدي. ارتد ملابسك الآن. أقول لك كلا"!

ولكن الشابين كانا في حالة من الجذل. انطلقا مبتعدين نحو الأشجار، وفريدي يحمل صدرة القساوسة تحت ذراعه، وجورج يرتدي قبعة اللباد العريضة فوق شعره الذي يقطر الماء منه.

صرخ السيد بيب: "هذا كاف"! وهو يتذكر أنه ما يزال ضمن حدود أبرشيته. ثم تغير صوته وكأن كل شجرة صنوبر كانت الكاهن الكبير المسئول عن الأبرشية. "هاي! اثبتا! أرى أشخاصاً قادمين، أنتما أيها الشابان"!

كانت هناك صرخات ودوائر تتسع فوق الأرض المرقشة.

"هاي! هاي! يا سيداتي"!

لم يكن جورج ولا فريدي مهذبين حقاً. ومع ذلك، فهما لم يسمعا آخر تحذير أطلقه السيد بيب، وإلا لكانا قد تجنّبا السيدة هنيتشيرتش وسيسيل ولوسي الذين كانوا يتمشون في طريقهم لزيارة السيدة بترويرث العجوز. أسقط فريدي الصدرة عند أقدامهم واختبأ في نبتة خنشار. شهق جورج في وجوههم، والتفت وركض هابطاً الممر نحو البركة، وهو ما يزال يعتمر قبعة السيد بيب.

صاحت السيدة هنيتشيرتش: "يا إلهي الحيّ! من هؤلاء الأشخاص المشؤومين؟ يا عزيزيّ، أشيحا بنظركما بعيداً! والسيد بيب المسكين أيضاً! ما الذي جرى يا ترى؟".

"تعاليا من هذه الطريق على الفور"، هكذا أمرهما سيسيل الذي كان يشعر دوماً أن عليه أن يقود النساء، على الرغم من أنه لم يكن يعرف إلى أين، وأن يحميهنّ على الرغم من أنه لم يكن يعرف ممّا. قادهما الآن نحو نبتة الخنشار حيث كان فريدي يجلس مختبئاً.

"أوه، يا للسيد بيب المسكين! هل كانت تلك صدرته التي تركناها في الممر؟ سيسيل، إنها صدرة السيد بيب..".

قال سيسيل وهو ينظر إلى لوسي التي كانت قد اختبأت خلف مظلتها وهي تتخذ حذرها بجلاء: "ليس الأمر من شأننا".

"أتخيل أن السيد بيب قد عاد وقفز إلى البركة".

"من هذه الطريق من فضلك يا سيدة هنيتشيرتش، من هذه الطريق".

تبعتاه صعوداً إلى الضفة، وهما تحاولان أن تلبسا التعبير المتوتر إنما اللامبالي الذي هو ملائم للسيدات في مناسبة كهذه.

"حسناً، لا أستطيع مغالبة ذلك"، هذا ما قاله صوت قريب إلى الأمام منهم، ورفع فريدي وجهه المغطى بالنمش وكتفيه الثلجيي البياض من بين أوراق النباتات. "لا يمكنني أن أُداس، هل يمكنني ذلك؟".

"يا للرب الرحيم يا عزيزي، إذاً هذا أنت! يا له من تصرف بائس! لم لا تستحم في المنزل براحة، ولديك هناك الماء الساخن والبارد؟".

"انتبهي إليّ يا أمي: على المرء أن يغتسل، وعليه أن يجفّف نفسه، ولكن لو أن شخصاً آخر..".

"يا عزيزي، لا شك أنك على صواب كالعادة، ولكنك لست في موقف يجيز لك الجدال. تعالي يا لوسي". التفتتا. "أوه، انظري... أوه، لا تنظري! أوه، يا للسيد بيب المسكين! لكم هذا مشئوم فعلاً"!

فقد كان السيد بيب يزحف للتوّ خارجاً من البركة التي كانت تطفو على سطحها ملابس ذات صفة حميمة؛ بينما صرخ جورج الذي سئم من الحياة مخاطباً فريدي بأنه اصطاد سمكة.

"وأنا ابتلعت واحدة"، هكذا جاء ردّ الذي كان بين نباتات الخنشار. "لقد ابتلعت بيضة ضفدعة. وهي تتلوى في بطني. سأموت يا إمرسون، يا أيها الوحش، أنت ترتدي لباسي الداخلي".

قالت السيدة هنيتشيرتش التي شعرت أنه من المستحيل أن تبقى في حالة صدمة: "صمتاً يا أعزائي. وتأكدوا من أن تجففوا أنفسكم جيداً أولاً. فكل الزكام يأتي من عدم تجفيف الجسم جيداً.

قالت لوسي: "هيا بنا نذهب يا أمي. بحقّك، هيا بنا"!

قال جورج: "مرحباً"! فتوقفت السيدتان مجدداً.

اعتبر جورج نفسه على أنه مرتد لملابسه. كان حافي القدمين وعاري الصدر، متألقاً وحسن المظهر أمام الغابة الظليلة، فصاح: "مرحباً يا آنسة هنيتشيرتش! مرحباً"!

"انحني يا لوسي، الأفضل أن تـنحني. مـن يكـون هـذا الـشخص؟ سأنحني أنا؟".

انحنت الآنسة هنيتشريتش.

في ذلك المساء وطوال الليل كان الماء يجري. في الصباح، كانـت البركة قد تقلصت لتعـود إلى حجمهـا العـادي وفقـدت مجـدها. لقـد كانت نداءاً للحياة وللإرادة المتحررة، بركة عابرة لم يـنقضِ تأثيرهـا، قداسة، تعويذة، كأساً مقدسة آنيّة للشباب.

* * *

# الفصل [13]

## كيف كان مرجل الآنسة بارتلت متعباً

لكم أعادت لوسي تدريبها على تلك الانحناءة وذلك اللقاء! ولكنها كانت تعيدهما داخل البيت، مع إكسسوارات معينة. ومن المؤكد أنه يحق لنا أن نفترضها. من كان سيتنبأ أن لقائها بجورج سيكون في أعقاب هزيمة بحضارة ما، بين جيش من المعاطف والياقات والجزمات التي كانت ملقاة على الأرض التي تنيرها الشمس؟ كانت تتخيل إمرسون الشاب كشخص خجول أو كئيب أو لامبال أو وقح ماكر. كانت مستعدة لكل هذه الأمور. ولكنها لم تتخيّل أبداً شخصاً سعيداً يحييها بصرخة كنجم الصباح.

حين وصلت إلى البيت المقصود، شربت الشاي مع السيدة بترويرث العجوز، وفكرت في أنه من المستحيل التنبؤ بالمستقبل بأي درجة من الدقة، وأنه من المستحيل التدرب على مواجهة الحياة. هناك خطأ في المشهد، وجه بين الجمهور، اقتحام لخشبة المسرح، وكل إيماءاتنا المخطط لها بعناية لن تعني أي شيء، أو ستعني الكثير جداً. فكرت: "سأنحني له ولن أصافحه. سيكون هذا هو التصرف الصحيح". كانت قد انحنت... ولكن لمن؟ للآلهة، للأبطال، للغو طالبات المدرسة؟ لقد انحنت عبر الهراء الذي يثقل هذا العالم.

هكذا راحت أفكارها تجري، بينما كانت ملكاتها مشغولة بسيسيل. كانت تلك واحدة من الزيارات الكريهة المتعلقة بالخطوبة. لقد أرادت السيدة بترويرث أن تراه، ولم يكن هو راغباً في أن يُرى. لم يكن يريد

أن يسمع عن نباتات "كوب الماء" ولماذا تتغير ألوانها على شاطئ البحر. لم يكن راغباً في الانضمام إلى .C.O.S . حين يكون نزقاً فهو يحب التفاصيل ويقدم ردوداً طويلة وذكية حين تكفي "نعم" أو "لا". راحت لوسي تطمئنه وتحاول تصحيح المحادثة بأسلوب يعد بأن زواجهما سيعمّه السلام. لا أحد كامل، ومن المؤكد أنه أمر أكثر حكمة أن تتم مناقشة العيوب قبل الزواج. كانت الآنسة بارتلت، بالفعل وليس بالكلام، قد علّمت الفتاة أن هذه الحياة لا تحوي شيئاً يثير الرضا. وعلى الرغم من أن لوسي كانت تكره هذه المعلّمة، فقد اعتبرت التعليم عميقاً وراحت تطبّقه على حبيبها.

قالت أمها حين وصلتا إلى البيت: "لوسي، هل هناك خطب ما في سيسيل؟".

كان السؤال منذراً بالسوء: فحتى الآن كانت السيدة هنيتشيرتش تتصرف بإحسان وانضباط.

"لا أعتقد ذلك يا أمي. سيسيل على ما يرام".

"ربما هو مرهَق".

وافقتها لوسي: سيسيل كان مرهقاً بعض الشيء.

"لأني خلاف ذلك" ـ وجذبت دبابيس قبعتها باستياء متصاعد ـ لأني خلاف ذلك لا أستطيع فهمه".

"أعتقد بالفعل أن السيدة بترويرث متعِبة بالأحرى، إن كنت تعنين ذلك".

"إن سيسيل هو من طلب منك أن تفكري على هذا النحو. كنتِ مخلصة لها منذ صغرك، ولا شيء يمكنه أن يصف طيبتها تجاهك خلال إصابتك بالتيفوئيد. كلا... يتكرر هذا الأمر نفسه في كل مكان".

"هل لي أن آخذ منك تلك القبعة؟".

"بكل تأكيد كان يمكنه أن يرد عليها بتهذيب لمدة نصف ساعة".

"لدى سيسيل معيار عال جداً للناس"، هكذا تلعثمت لوسي، وهي ترى المتاعب قادمة. "هذا جزء من مسئولياته... إنها حقاً ما تجعله يبدو أحياناً..".

"أوه، هراء! إن كانت المثاليات العليا تجعل الشاب فظاً، فالأجدر به أن يتخلص منها بسرعة". هذا ما قالته السيدة هنيتشيرتش وهي تناولها القبعة".

"هيا يا أمي! اقد رأيتك وأنت تعاملين السيدة بترويرث بنزق"!

"ليس بتلك الطريقة. أحياناً أستطيع أن أدق عنقها. ولكن ليس بتلك الطريقة. كلا. إن سيسيل يتصرف على هذا النحو المشابه في كل المناسبات".

"بالمناسبة، لم يسبق لي قط أن أخبرتك. لقد وصلتني رسالة من شارلوت حين كنتُ في لندن".

هذه المحاولة لتغيير مجرى الحديث كانت صبيانية جداً، ولم تعجب السيدة هنيتشيرتش.

"منذ عودة سيسيل من لندن، لا يبدو أي شيء وكأنه يرضيه. وكلما تكلمتُ معه يجفل... أنا أراه يا لوسي. لا طائل من معارضتي. لا شك أني لست من الفنانات أو الأديبات أو المثقفات ولا الموهوبات موسيقياً، ولكني لا أستطيع فعل شيء تجاه أثاث غرفة الاستقبال: لقد اشتراها والدك وعلينا أن نتأقلم معها؛ كما على سيسيل أن يتذكر ذلك إذا ما أراد أن يكون لطيف المعشر".

"أنا... أنا أفهم ما تعنينه، وبالتأكيد فإن سيسيل ليس عليه فعل ذلك. ولكنه لا يتعمّد أن يكون فظاً ـ لقد شرح لي ذلك ذات مرة ـ إن **الأشياء** هي التي تزعجه ـ فهو يستثار بسهولة من الأشياء القبيحة ـ ولكنه لا يعامل الناس بفظاظة".

"حين يغنّي فريدي، فهل هو شيء أم شخص؟".

"لا يمكنك بالفعل أن تتوقعي من شخص موهوب موسيقياً أن يستمتع بالأغاني الكوميدية كما نفعل نحن".

"إذاً، لم لا يغادر الغرفة؟ لم يجلس وهو يتلوى ويسخر ويفسد على الجميع سرورهم؟".

تلعثمت لوسي قائلة: "لا يجب أن نظلم الناس". كان شيء ما قد أضعفها، وكانت حجة سيسيل المقنعة والتي تضلعت فيها في لندن على ذلك النحو المتصف بالكمال، لم تعد تجدي بفعالية. لقد تصادمت المدنيتان ـ كان سيسيل قد ألمح إلى أنهما قد تتصادمان ـ وكانت هي ذاهلة ومحتارة، وكأن كل الشعاع الذي يكمن خلف المدنية كلها قد أعمى عينيها. كان الذوق الجيد والذوق الرديء مجرد كلمات دارجة فحسب، ملابس ذات تفصيلات متنوعة؛ والموسيقى نفسها قد انحلّت لتتحول إلى همسة عبر أشجار الصنوبر، حيث لا يمكن تمييز الأغنية العادية عن تلك الكوميدية.

بقيت في حالة من الارتباك الشديد، بينما كانت السيدة هنيتشيرتش تبدل ثيابها من أجل وجبة العشاء. وبين الحين والآخر، كانت تتلفظ بكلمة، فلا تصبح الأمور في حالة أفضل. لم يكن هناك مجال لإخفاء الحقيقة: لقد تعمّد سيسيل أن يكون متكبّراً، وقد نجح في مسعاه هذا. أما لوسي ـ وهي لم تعرف السبب ـ فقد تمنّت لو أن المشكلة حدثت في وقت آخر.

"اذهبي وبدّلي ملابسك يا عزيزتي، وإلا ستتأخرين".

"حسناً، يا أمي..".

"لا تقولي (حسناً) وتوقفي عن ذلك. اذهبي".

أطاعت، ولكنها راحت تتلكأ بحزن عند نافذة منبسط الدرج. كانت تطل على جهة الشمال، لذا لم تكن هناك سوى إطلالة صغيرة، ولا مجال لمشاهدة السماء. والآن، كما في فصل الشتاء، كانت أشجار الصنوبر تتدلى قريباً من عينيها. كان يمكن ربط نافذة منبسط الدرج بالكآبة. لم تكن هناك مشكلة محددة تتهددها، ولكنها تنهدت وخاطبت نفسها قائلة: "يا إلهي، ماذا أفعل، ماذا أفعل؟" بدا لها أن كل شخص آخر كان يتصرف على نحو رديء جداً؛ وما كان ينبغي لها أن تذكر رسالة الآنسة بارتلت. عليها أن تكون أكثر حذراً: كانت أمها فضولية على نحو ما، وربما سألتها عن مضمون الرسالة. يا إلهي، ما الذي ستفعله؟ وهاهو فريدي يصعد قافزاً إلى الطابق العلوي وينضم إلى صفوف رديئي السلوك.

"حسب رأيي، فإن هذين الشخصين ممتازان".

"يا طفلي العزيز، لكم كنت متعِباً! ما كان يجدر بك أن تصطحبهما للاستحمام في (البحيرة المقدسة)، فهي ليست مخفية عن الأنظار. كان الأمر حسناً بالنسبة إليك، ولكن ذلك كان محرجاً للجميع. كن أكثر حذراً. أنت تنسى أن المكان يتحول إلى شيء أشبه بأن يكون نصف ما تتصف به الضواحي".

"أودّ أن أعرف إن كانت هناك مخططات للأسبوع الذي يبدأ غداً".

"لا أعرف شيئاً عن ذلك".

"إذاً، سأدعو السيدين إمرسون إلى لعب التنس يوم الأحد".

"أوه، ما كنت لأفعل ذلك يا فريدي، ليس مع كل هذه اللخبطة الحالية".

"ما الخطب في الملعب؟ لن يكترثا بوجود مطبّ أو اثنين، كما أني طلبت شراء كرات جديدة".

"أعني أنه من الأفضل عدم حدوث ذلك. أعني ذلك حقاً".

أمسك بها من مرفقيها وراقصها بمرح ذهاباً وجيئة عبر الممر. تظاهرت بأنها لم تأبه بذلك، ولكنها كانت قادرة على الصراخ من حدة انفعالها. نظر إليها سيسيل وهو في طريقه إلى الحمام، فقاما بإعاقة ماري وهي تحمل صفائح الماء الحار. ثم فتحت السيدة هنيتشيرتش بابها وقالت: "يا لوسي، ما هذه الضجة التي تحدثانها! لديّ ما أقوله لك. هل سبق وذكرت أنك تلقيت رسالة من شارلوت؟" فهرب فريدي.

"أجل، وأنا لا أستطيع التوقف فعلاً. عليّ أن ارتدي ملابس الخروج".

"كيف هي شارلوت؟".

"في حال حسنة".

"لوسي"!

عادت الفتاة البائسة.

"تتحلين بعادة سيئة فتستعجلين في منتصف الجملة. هل ذكرت شارلوت شيئاً عن مرجلها؟".

"عن ماذا؟".

"ألا تتذكرين أن مرجلها كان من المفروض أن يُصلّح في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وأن يُنظف خزان الماء في حمامها، مع كل أصناف التصليحات الرهيبة؟".

قالت لوسي بمرارة: "لا أستطيع أن أتذكر كل متاعب شارلوت. لديّ ما يكفي منها، خاصة الآن وأنت غير راضية عن سيسيل".

ربما كان في وسع السيدة هنيتشيرتش أن تلتهب غضباً. ولكنها لم تفعل. قالت: "تعالي إلى هنا أيتها السيدة العجوز... شكراً لأنك أودعت قلنسوتي في مكانها... قبّليني". ورغم أنه لا شيء كامل، إلا أن لوسي شعرت في تلك اللحظة أن أمها ووندي كورنر والـ"ويلد" تحت نور الشمس الغاربة كانوا يتحلّون بالكمال.

وهكذا تلاشت الشجاعة من الحياة. وكان ذلك يحدث في ويندي كورنر. في الدقيقة الأخيرة، حين تتعطّل الآلة بلا أمل في إصلاحها، كان أحد أعضاء الأسرة يصبّ نقطة من الزيت فيها. احتقر سيسيل أساليبهم... وربما كان على حق. وعلى أي حال، لم تكن هذه الأُسرة أُسْرته.

كان موعد العشاء السابعة والنصف. هذر فريدي بدعاء المائدة، وسحبوا كراسيهم الثقيلة وجلسوا. من حسن الحظ أن الرجلين كانا جائعين. ولم يحدث أي شيء مشئوم حتى تم تقديم البودينغ. ثم قال فريدي:

"لوسي، كيف هو إمرسون؟".

"لقد شاهدته في فلورنسه"، هذا ما قالته لوسي وهي تأمل أن يكون كلامها مقبولاً كجواب.

"وهل هو من النوع الذكي، أو هل هو شاب مهذب؟".

"إسأل سيسيل. إن سيسيل هو من أحضره إلى هنا".

قال سسيل: "إنه من النوع الذكي، شأني أنا".

نظر إليه فريدي دون ريبة.

سألت السيدة هنيتشيرتش: "إلى أي حد عرفتِهما في بنسيون برتوليني؟".

"أوه، إلى حد طفيف جداً. أعني حتى شارلوت تعرفهما حتى أقل مما أعرفهما أنا"!

"أوه، هذا يذكرني... لم تذكري لي قط عما قالته شارلوت في رسالتها".

"شيء ما وشيء آخر". هذا ما قالته لوسي وهي تتساءل في نفسها إن كانت ستنهي عشاءها دون إطلاق كذبة ما. "بين الأمور الأخرى، ذكرت أن صديقة رهيبة لها مرت بالدراجة عبر شارع سمر، وهي تتساءل إن كانت قد زارتنا، والحمد لله أنها لم تفعل".

"لوسي، أنا أعتبر بالفعل أسلوبك في الكلام على أنه غير لطيف".

قالت لوسي: "كانت هذه الصديقة روائية". وكانت هذه الملاحظة من حسن الحظ، فلا شيء يثير السيدة هنيتشيرتش مثل الأدب بين يدي أنثى. كان من شأنها أن تتخلى عن أي موضوع حتى تندّد بأولئك النسوة اللواتي (بدلاً عن العناية بمنازلهن وأطفالهن) ينشدن سوء الشهرة بنشر الكتب. كان موقفها هو: "إن توجب تأليف الكتب، فليكتبها الرجال". وراحت تطيل في شرح هذا الموقف حتى تثاءب سيسيل ولعب فريدي لعبة بذور الخوخ التنبؤية: "هذا العام، العام التالي، الآن، أبداً"؛ وراحت لوسي تغذي غضب أمها بمهارة. ولكن سرعان ما هدأ الغضب وبدأت الأشباح تتجمع في الظلام. كان من حولهم الكثير جداً من الأشباح. كان الشبح الأصلي ـ لمسة الشفتين على وجنتها ـ قد تموضع منذ وقت طويل. ما كانت هناك أهمية أن يكون رجل قد قبّلها فوق جبل ذات مرة. ولكن الشبح ولد أسرة شبحية ـ السيد هاريس، رسالة الآنسة بارتلت، ذكريات السيد بيب عن أزهار البنفسج ـ وكان واحد أو أكثر من هذه الأشباح سينتابها أمام عيني سيسيل. كانت الآنسة بارتلت هي التي عادت الآن، وبحيوية مرعبة.

"كنت أفكر يا لوسي في رسالة شارلوت تلك. كيف حالها؟".

"لقد مزقت الرسالة".

"ألم تقل لك كيف حالها؟كيف كان أسلوبها، مرحاً؟".

"أوه، أجل. أفترض ذلك ـ كلا ـ ليس مرحاً جداً على ما أفترض".

"إذاً، كوني واثقة من أن المرجل هو السبب. أعرف أنا بنفسي كيف يفترس موضوع الماء العقل. أفضّل أن يحدث لي أي شيء آخر، حتى ولو كان حادثاً مشؤوماً مع اللحم".

وضع سيسيل يديه على عينيه.

قال فريدي مؤكداً وهو يدعم موقف والدته، ويدعم روح ملاحظتها وليس مادتها: "وأنا كذلك".

أضافت هي بعصبية إلى حد ما: "وأنا كنت أفكر أننا نستطيع بالتأكيد أن نحشر شارلوت هنا بيننا في الأسبوع القادم، وأن نمنحها إجازة لطيفة بينما ينهي السمكريون في تنبريدج ويلز عملهم. لم أر شارلوت المسكينة منذ زمن طويل".

كان ذلك أكثر مما يمكن أن تتحمله أعصاب لوسي. ومع ذلك، لم تستطع أن تعترض بعنف بعد معاملة أمها الطيبة لها في الطابق العلوي.

توسلت قائلة: "كلا يا أمي! هذا مستحيل. لا يمكن أن نحشر شارلوت ضمن كل هذه الفوضى. نحن محشورون حتى الموت الآن. لدى فريدي صديق قادم يوم الثلاثاء، وهناك سيسيل أيضاً، وأنت وعدت باستضافة (ميني) بسبب الخوف من عدوى الدفتريا. لا يمكنك بكل بساطة أن تفعلي هذا".

"هراء! يمكن ذلك".

"هذا إذا نامت ميني في الحمام، وليس هناك من حلّ آخر".

"تستطيع ميني النوم معك".

"لن أرضى بذلك".

"إذاً، لو كنت أنانية إلى هذا الحد، فعلى السيد فلويد أن يشارك فريدي غرفته".

"الآنسة بارتلت، الآنسة بارتلت، الآنسة بارتلت"، هكذا أعول سيسيل ثم وضع يديه فوق عينيه مجدداً.

كررت لوسي: "هذا مستحيل. لا أريد أن أصعّب الأمور، ولكن ليس هناك عدل تجاه الخادمات في أن نملأ البيت بالضيوف على هذا النحو".

يا للحسرة!

"الحقيقة هي يا عزيزتي أنك لا تحبين شارلوت".

"كلا، لا أحبها. ولا يحبها سيسيل. إنها تثير أعصابنا. لم تشاهديها مؤخراً، ولا تدركين كم يمكن أن تكون مرهقة للأعصاب رغم كل طيبتها. لذلك، أرجوك، يا أمي، لا تقلقينا في هذا الصيف الأخير، بل دلّعينا بعدم دعوتها للقدوم".

قال سيسيل: "اسمعوا! اسمعوا"!

أجابت السيدة هنيتشيرتش بجدية أكثر من المعتاد وبعاطفة أكثر مما تسمح عادة لنفسها بالتعبير عنها: "هذا ليس لطيفاً منكما، كليكما. لدى كل منكما شريك، ولديكما كل هذه الغابات للتمشي فيها، وهي المليئة بالأشياء الجميلة. أما شارلوت المسكينة فليس لديها سوى الماء المقطوع والسمكريون. أنتما شابان يا عزيزيّ، ومهما كنتما شابين وذكيين، ومهما كان عدد الكتب التي تستطيعان قراءتها، فهي لن تعطيكما تلك المعرفة المتعلقة بشعور الشخص بأنه قد شاخ".

فتّت سيسيل رغيف الخبز.

قال فريدي: "عليّ أن أقول إن ابنة العم شارلوت كانت لطيفة جداً معي في ذلك العام حين ذهبت لزياراتها مستخدماً دراجتي. لقد ظلت تشكرني على الزيارة حتى شعرت أني أحمق؛ وقد أثرتُ الهرج والمرج بسبب أني أردت بيضة مسلوقة بالطريقة الصحيحة لأتناولها مع فنجان الشاي".

"أعرف يا عزيزي. إنها لطيفة مع الجميع. ومع ذلك، فهي تصعّب الأمر حين نحاول أن نردّ بعض الجميل".

ولكن لوسي بقيت متحجرة الفؤاد. لم يكن أمراً جيداً أن تُعامل الآنسة بارتلت بودّ. لقد جربت هي ذلك بنفسها مرات عديدة ومؤخراً. يمكن للمرء أن يدّخر كنزاً له في الجنة بهذه المحاولة، ولكن هذا لا يعني لا الآنسة بارتلت ولا أي شخص آخر على هذه الأرض. لقد اضطرت إلى أن تقول: "لا أستطيع مغالبة الأمر يا أمي. أنا لا أحب شارلوت. أعترف بأنه تصرف رهيب من قبلي".

"حسب ما تقولين، فأنت قلت لها ذلك".

"حسناً، لقد جعلتنا نغادر فلورنسه بأسلوب شديد الغباء. لقد أصابها الاضطراب..".

هاهي الأشباح تعود؛ هاهي تملأ إيطاليا، وهاهي تغتصب حتى الأماكن التي عرفتها وهي ما تزال طفلة بعد. لن تعود "البحيرة المقدسة" مرة أخرى كما كانت؛ وفي يوم الأحد سيحدث شيء ما لويندي كورنر. كيف ستحارب الأشباح؟ هاهو العالم المرئي يتلاشى لبرهة فلا يبدو حقيقياً سوى الذكريات والعواطف.

"أفترض أن الآنسة بارتلت يجب أن تحضر، بما أنها تسلق البيض جيداً جداً". هذا ما قاله سيسيل وهو يفكر بسعادة من خلال الطبخ المثير للإعجاب.

صحّح له فريدي: "لم أعن أن البيضة كانت تُسلق **جيداً**، ولكن الحقيقة أنها كانت تنسى أن ترفعها من الماء المغلي، وأنا في الواقع لا يهمني البيض كثيراً. لقد قصدت أن أقول لكم كم كانت طيبة معي".

قطب سيسيل جبينه مجدداً. يا لهم آل هنيتشيرتش! البيض والمراجل ونباتات كوب الماء والخادمات... إن حياتهم مترعة مفعمة حتى الاكتظاظ بكل هذه الأمور. قال بوقاحة تكاد تكون مكشوفة: "هل لي وللوسي أن نقوم من على كرسيينا؟ لا نريد أي حلوى".

* * *

# الفصل [14]

## كيف واجهت لوسي الحالة الظاهرية بشجاعة

طبعاً قبلت الآنسة بارتلت الدعوة، وشعرت أنها متأكدة على حد سواء ـ بالطبع ـ من أنها ستكون سبباً للإزعاج، وتوسلت أن تُمنح غرفة احتياطية أقل شأناً: غرفة دون إطلالة، أي شيء. أرسلت حبها إلى لوسي. وعلى حد سواء طبعاً، يمكن لجورج أن يأتي للعب التنس يوم الأحد.

واجهت لوسي الوضع بشجاعة، على الرغم من أنها ـ كمعظمنا ـ لم تواجه سوى الوضع الذي كان يحيط بها. لم تحدق في داخلها قط. وحين كانت صور غريبة تبرز من الأعماق أحياناً، كانت تعزو ذلك إلى أعصابها. حين أحضر سيسيل السيدين إمرسون إلى شارع سمر، فقد أثار ذلك أعصابها. يمكن لشارلوت أن تلمّع الحماقة الفائتة، ويمكن لهذا أن يثير أعصابها. كانت عصبية المزاج في الليل. حين كانت تحادث جورج ـ التقيا مجدداً وعلى الفور تقريباً في منزل القسيس ـ فإن صوته أثّر فيها بعمق وتمنّت لو تبقى إلى جواره. لكم هو أمر كريه أن تتمنى بالفعل لو تبقى إلى جواره! طبعاً، كان السبب وراء هذه الأمنية هو الأعصاب التي تحب أن تلعب بمثل هذه الحيل المنحرفة علينا. في إحدى المرات عانت من "أمور برزت من لا شيء ولم تستطع معرفة مغزاها". والآن شرح لها سيسيل علم النفس في عصر يوم ماطر، وبالتالي فإن كل متاعب الشباب في عالم مجهول يمكن أن تُطرد بعيداً.

من الواضح بما فيه الكفاية للقارئ أن يستنتج: "أنها تحب إمرسون الشاب". أما إذا أخذنا قارئاً حلّ محل لوسي، فهو لن يجد الأمر واضحاً. من السهل تأريخ الحياة، ولكن ممارستها أمر محيّر، ونحن نرحب بـ "الأعصاب" أو أي عبارة أخرى تخفي رغباتنا الشخصية. كانت تحب سيسيل؛ أما جورج فيثير أعصابها. هل للقارئ أن يشرح لها أنه كان يتوجب قلب معنى هاتين الجملتين [**أي أنها تحب جورج وسيسيل يثير أعصابها**]؟

أما فيما يخص الحالة الظاهرية... فهي ستواجهها بشجاعة. كان اللقاء في بيت القسيس قد مرّ على نحو جيد بما فيه الكفاية. وبينما كانت واقفة بين السيد بيب وسيسيل، أشارت إلى إيطاليا بتلميحات قليلة ومعتدلة، وأجاب جورج. لقد حرصت على أن تبدو له غير خجولة، وقد سرّت لأنه لم يبد عليه الخجل هو أيضاً.

قال السيد بيب لاحقاً: "شخص لطيف. سرعان ما سيتخلص من فجاجاته. أنا أشك إلى حدّ ما بالشبان الذين ينزلقون في الحياة برشاقة".

قالت لوسي: "يبدو أكثر ابتهاجاً. وهو يضحك أكثر".

قال القسيس: "أجل. إنه يستفيق".

كان هذا كل ما جرى. ولكن مع مرور الأسبوع، راح المزيد من دفاعاتها يتهاوى، وراحت تحمل له صورة يتمتع فيها بجمال جسدي.

وعلى الرغم من التوجيهات الأشد وضوحاً، خططت الآنسة بارتلت لوصولها على نحو غير متقن. فقد كان من المفروض أن تصل إلى المحطة الجنوبية الشرقية في دوركينغ، وإلى هناك كانت السيدة هنيتشيرتش ستذهب لملاقاتها. إلا أنها وصلت إلى محطة لندن أند برايتون، من هناك استقلّت عربة أجرة. لم يكن من أحد في المنزل

سوى فريدي وصديقه الذي جاء للعب التنس، والذي راح يسليها لمدة ساعة كاملة، وصل سيسيل ولوسي في الساعة الرابعة، وهذان مع ميني بيب الصغيرة، عزفا مع الثلاثة الأوائل لحناً سداسياً كئيباً فوق المرج العالي من أجل تناول الشاي.

قالت الآنسة بارتلت التي استمرت في نهوضها من كرسيها، والتي كان على المجموعة المتحدة أن ترجوها البقاء: "لن أغفر لنفسي قطّ. لقد أفسدت كل شيء. وأن أفرض نفسي فجأة على الشبان! ولكنني أصرّ على أن أدفع أجرة العربة. امنحوني هذا بأي حال من الأحوال".

قالت لوسي: "لا يفعل زوارنا مثل هذا الفعل الرهيب". بينما صرخ فريدي، الذي كانت البيضة المسلوقة قد تلاشت من ذاكرته على أنها شيء تافه، وقال بلهجة غاضبة: "هذا ما كنت أحاول أن أقنع به ابنة عم والدتنا شارلوت، يا لوسي، خلال نصف الساعة الفائتة".

قالت الآنسة بارتلت: "لا أشعر أني زائرة عادية". ثم نظرت إلى قفازيها الباليين.

"حسناً، إن كنت تفضلين ذلك بالأحرى، فالمبلغ هو خمسة شلنات مع بقشيش للسائق".

نظر الآنسة بارتلت في كيس دراهمها. لم يكن معها سوى جنيهات ذهبية وبنسات. هل يمكن لأي شخص أن يصرف لها جنيهاً؟ كان مع فريدي نصف جنيه، ومع رفيقه أربع أنصاف الكراون. قبلت الآنسة بارتلت نقودهما، ثم قالت: "ولكن لمن أعطي الجنيه؟".

اقترحت لوسي: "فلنترك الأمر حتى تصل أمي".

"أوه يا عزيزتي، سيطول الطريق بأمك الآن وهي غير معوّقة بشخصي. لدينا جميعاً نقاط ضعفنا الصغيرة، ونقطة ضعفي هي أن أسدد الحسابات بأسرع وقت ممكن".

وهنا قام السيد فلويد، صديق فريدي، بالتلفظ بالملاحظة الوحيدة التي تستحق أن نذكرها: لقد عرض أن ينقر الجنيه الذهبي بظفره ليروا من سيربح. **[أي طرّة أم نقش]** . بدا أن هناك حلاً للأمر، وحتى سيسيل، الذي كان يشرب الشاي بتفاخر وهو يتفرج على المنظر الطبيعي، شعر بالانجذاب الأبدي إلى "الحظ"، والتفت إليهم.

ولكن هذا لم ينجح أيضاً.

"أرجوكم ـ أرجوكم ـ أعرف أني ثقيلة الدم وأفسد متع الآخرين، ولكن هذا سيجعلني بائسة، إذ سيكون عليّ عملياً أن أسرق الشخص الذي سيخسر".

تدخل سيسيل قائلاً: "فريدي مدين لي بخمسة عشر شلناً. إذاً، ستصح الأمور كلها لو أعطيتني الجنيه".

قالت الآنسة بارتلت بريبة: "خمسة عشر شلناً. كيف حصل هذا يا سيد ڤايز؟".

"لأنه ألا ترين أن فريدي دفع عنك أجرة العربة؟ ناوليني الجنيه وسوف نتجنب هذه المقامرة البائسة".

أصبحت الآنسة بارتلت، وكانت ضعيفة في حساب الأرقام، في حالة من الحيرة. قدمت الجنيه، بين كركرات مكبوتة للشابين الآخرين. لبرهة، كان سيسيل سعيداً. فقد كان يلعب بالسفاسف بين نظرائه. ثم نظر إلى لوسي التي كانت دواعي القلق الصغيرة قد شوهت ابتساماتها. في كانون الثاني (يناير) سينقذ لوحة ليوناردو التي تخصه من هذا الهذر المخبِّل.

صاحت ميني بيب التي كانت تراقب بدقة الصفقات الظالمة: "لماذا على السيد ڤايز أن ينال الجنيه؟".

قالوا بوقار: "لأن الخمسة عشر شلناً والخمسة شلنات تؤلف جنيهاً واحداً، ألا ترين ذلك؟".

"ولكني لا أرى..".

حاولوا كبحها بحشر الكعك في فمها.

"كلا، شكراً، لقد شبعت. ولكني لا أرى... يا فريدي لا تلكزني. يا آنسة هنيتشيرتش، أخوك يؤلمني. آخ! وماذا عن العشرة شلنات خاصة السيد فلويد؟ آخ! لا أرى ولن أرى أبداً لماذا على الآنسة (كائناً ما يكون اسمها) ألا تدفع البقشيش الذي أخذه السائق".

قالت الآنسة بارتلت ووجهها يتضرج: "لقد نسيت السائق. شكراً يا عزيزتي لأنك ذكّرتني بذلك. هل كان ذلك شلناً؟ هل هناك من يستطيع أن يصرف لي نصف كراون؟".

قالت المضيفة الشابة وهي تنهض من مكانها بتصميم: "سأصرفه لك. أعطني يا سيسيل ذلك الجنيه. كلا... أعطني ذلك الجنيه. سأجعل يوفيميا تصرفه، وسوف نعود بالأمر كله مجدداً إلى بدايته".

"لوسي ـ لوسي ـ يا لي من مزعجة"! هكذا اعترضت الآنسة بارتلت، ثم لحقت بها عبر المرجة. سبقتها لوسي وهي تطفر في مشيتها وتتظاهر بالمرح. وحين أصبحتا بعيدتين عن مرمى السمع، توقفت الآنسة بارتلت عن النحيب وقالت بجدية: "ألم تحكي له عن جورج؟".

أجابت لوسي: "كلا، لم أفعل". ثم أصبح بإمكانها أن تعض لسانها لأنها فهمت على الفور ما قالته ابنة عم أمها. "دعيني أحسب... كم عدد قطع النقود التي يساويها الجنيه الواحد؟".

هربت نحو المطبخ. كانت تحولات الآنسة بارتلت الفجائية غريبة جداً. يبدو الأمر لها أحياناً وكأنها خططت لكل كلمة تقولها أو تتسبب

في أن تقال. وكأن كل هذا القلق حول عربات الأجرة والفراطة كان مجرد خدعة لمفاجأة الروح.

قالت حين عادت: "كلا، لم أخبر سيسيل ولا أحداً غيره. لقد وعدتك بأني لن أفعل. هاهي نقودك... كلها شلنات، باستثناء نصفي كراون. هل لك أن تعدّيها؟ تستطيعين الآن سداد دينك بلطف".

كانت الآنسة بارتلت في غرفة الاستقبال، وقد راحت تحدق إلى صورة القديس يوحنا وهو صاعد إلى السماء، وقد وضعت في إطار.

همهمت: "لكم هذا مريع! لكم هو أكثر من مريع لو صدف وسمع السيد ڤايز بما جرى من مصدر آخر".

"أوه، كلا يا شارلوت"، هذا ما قالته الفتاة وهي تخوض المعركة. "جورج إمرسون شخص طيب. ومن هو المصدر الآخر يا ترى؟".

فكرت الآنسة بارتلت: "مثلاً، الحوذي. رأيته ينظر عبر الشجيرات إليك. أتذكّر لأنه كان يضع زهرة بنفسج بين أسنانه".

ارتعد جسد لوسي قليلاً. "سنجعل هذه المسألة السخيفة تدمر أعصابنا إن لم نلجأ إلى الحذر. كيف يمكن لحوذي من فلورنسه أن يصل إلى سيسيل؟"

"علينا أن نفكر بكل احتمال".

"أوه، حسناً".

"أو ربما أن السيد إمرسون العجوز يعرف. في الواقع إنه يعرف ما حدث بكل تأكيد".

"لا يهمني إن كان يعرف. لقد شعرت بالامتنان لرسالتك، لكن حتى لو أن الخبر قد انتشر، فأنا أعتقد أن سيسيل سيضحك عند سماعه".

"هل سيكذّبه؟".

"كلا، سيضحك منه". ولكنها عرفت في قلبها أنها لم تكن لتثق به، فقد كان يريدها طاهرة لم تُمس".

"حسناً يا عزيزتي، أنت تعرفين ما هو الأفضل. ربما يكون الرجال الآن مختلفين عما كانوا عليه حين كنتُ ما أزال شابة. والسيدات مختلفات الآن بالتأكيد".

"هيا يا شارلوت"! ضربتها كنوع من المداعبة. "أنت أيتها اللطيفة والقلقة! ما الذي تريدين مني فعله؟ أولاً تقولين:(لا تخبري أحداً)، ثم تقولين:(أخبريهم). ما الذي أختاره؟ أسرعي"!

تنهدت الآنسة بارتلت. "لست صنواً لك في الحوار يا أعز العزيزات. وأنا أحمر خجلاً حين أفكر كيف تدخلتُ في الأمر في فلورنسه، وأنت القادرة جداً على العناية بنفسك، والأذكى مني كثيراً في كل شيء. لن تسامحيني أبداً".

"هل نخرج إذاً؟ سيحطمون كل الأواني الخزف النفيسة إذا لم نخرج".

فقد كان الهواء يرنّ بصرخات ميني التي كانت تتعرض لسلخ فروة رأسها بملعقة شاي.

"يا عزيزتي، تمهّلي للحظة... فقد لا تتاح لنا فرصة أخرى لتبادل الحديث. هل حدث أن شاهدت إمرسون الشاب مجدداً؟".

"أجل، حدث ذلك".

"ما الذي جرى؟".

"تقابلنا في منزل القسيس".

"وما هو الأسلوب الذي اتبعه هو؟".

"لا يوجد أسلوب. تحدث عن إيطاليا كما قد يتحدث أي شخص آخر. الأمر على ما يرام حقاً. ما الفائدة التي سيجنيها لو تصرف كوغد، هذا لو تحدثنا عن الأمر بصراحة؟ أتمنى بالفعل أن أجعلك ترين الأمر حسب ما أراه أنا. لن يتسبب هو في أي إزعاج يا شارلوت".

"من يكن وغداً ذات مرة، سيظل وغداً على الدوام. هذا هو رأيي المسكين".

توقفت لوسي عن الكلام. ثم قالت: "قال سيسيل في أحد الأيام ـ وقد ظننتُ أنه كان كلاماً عميقاً جداً ـ إن هناك نوعين من الأوغاد: الواعي ودون الواعي". توقفت عن الكلام مجدداً حتى تكون متأكدة من تبرير مدى عمق سيسيل. عبر النافذة شاهدت سيسيل نفسه وهو يقلب صفحة من رواية. كانت رواية جديدة من مكتبة سميث. لا بد أن أمها قد عادت من محطة القطارات.

قالت الآنسة بارتلت بلهجة رتيبة: "من يكن وغداً ذات مرة، سيظل وغداً على الدوام".

"ما أعنيه بدون الواعي أن السيد إمرسون فقد رشده. لقد سقطتُ بين أزهار البنفسج تلك، وكان هو ساذجاً ومتفاجئاً. ولا أظن أن علينا أن نلومه كثيراً. وهناك فرق كبير علينا أن نأخذه في الحسبان حين نرى شخصاً ما وأشياء جميلة من خلفه وعلى نحو غير متوقع. وقد فقد السيد إمرسون رشده. ليس هو معجباً بي وليس صحيحاً كل ذلك الكلام الفارغ إطلاقاً. فريدي يحبه نوعاً ما، وقد دعاه لزيارتنا يوم الأحد، وعندها ستستطيعين أن تحكمي بنفسك. لقد تحسن: لم يعد يظهر دائماً وكأنه سيبكي فجأة. وهو موظف في مكتب المدير العام في إحدى شركات السكة الحديد الكبرى، وليس حمّالاً! وهو يزور أباه في عطل نهاية الأسبوع. كان أبوه يعمل في الصحافة، ولكنه تقاعد

بسبب الروماتيزم. هيا بنا إذاً! فلنتجه إلى الحديقة". أمسكت بضيفتها من ذراعها. "لنفترض أننا لن نتحدث عن هذا الأمر السخيف مرة أخرى. نريد منك أن تقضي زيارة لطيفة ومريحة في ويدي كورنر، دون أي دواع للقلق".

فكرت لوسي في أن كلامها كان جيداً. ربما يكون القارئ قد اكتشف زلة ما غير ملائمة فيه. لا يمكننا أن نعرف إن كانت الآنسة بارتلت قد اكتشفت الزلة، لأنه من المستحيل التوغل في أذهان العجائز. كان يمكن للآنسة بارتلت أن تتحدث أكثر، ولكن تمت مقاطعتها بدخول مضيفتها. تم التطرق إلى التفسيرات ونجت خلال ذلك لوسي، والصور تنبض على نحو أكثر حيوية بقليل في دماغها.

* * *

# الفصل [15]

## الكارثة في الداخل

كان يوم الأحد الذي تبع وصول الآنسة بارتلت يوماً رائعاً، كمعظم أيام ذلك العام. في "الويلد" اقترب الخريف وهو يكسر الرتابة الخضراء للصيف، ويلمس قمم المنتزهات بطبقة رمادية من السديم، وأشجار الزان باللون الخمري، وأشجار السنديان باللون الذهبي. إلى الأعلى فوق المرتفعات، كانت كتائب من أشجار الصنوبر الأسود تشهد تغييراً هي أيضاً، وهي التي لا تتغيّر. كان كلا الريفين يمتدان تحت سماء صافية، وفي كل منهما راح يعلو رنين أجراس الكنائس.

كانت حديقة ويندي كورنر قد هُجرت باستثناء كتاب أحمر كان قد رمي هناك وراح يتشمس فوق الممر المغطى بالحصى. من المنزل كانت تأتي أصوات متنافرة، كأنها لأناث يتحضرن للذهاب إلى الكنيسة. يقول الرجال إنهم لن يذهبوا ـ "حسناً، أنا لا ألومهم" ـ "ميني تقول هل هناك داع لذهابها؟" ـ "قولي لها لا نريد لغواً فارغاً" ـ "يا آن! يا ماري! ثبّتا خطافات ثوبي من الخلف"! ـ "يا أعز العزيزات يا لوسيا، هل لي أن أتطفل عليك فأطلب دبوساً؟" فقد كانت الآنسة بارتلت قد أعلنت أنها ستذهب إلى الكنيسة على أي حال.

ارتفعت الشمس أكثر في مسارها السماوي، ويقودها الآن ليس فايثون بل أبولو، بكفاءة ودون انحراف وبقدسية. كانت أشعتها تسقط على السيدات كلما تقدمن نحو نوافذ غرف النوم؛ كما على السيد بيب في شارع سمر وهو يبتسم خلال قراءته لرسالة من الآنسة كاثرين

آلان؛ كما على جورج إمرسون الذي كان ينظف حذاء والده؛ وأخيراً لإكمال كاتالوغ الأشياء الجديرة بالتذكر، على الكتاب الأحمر المذكور أعلاه. السيدات يتحركن، والسيد بيب يتحرك، وجورج يتحرك، والحركة قد تُحدث ظلاً. ولكن هذا الكتاب كان لا يتحرك، وكانت الشمس تربت عليه طوال فترة الصباح، فيرفع غلافيه قليلاً، وكأنه يقرّ بالتربيتة.

في الوقت الحاضر تخرج لوسي من نافذة غرفة الاستقبال. كان ثوبها الجديد القرنفلي الزاهي اللون غير ملائم، ويجعلها تبدو مبهرجة وشاحبة. علقت فوق عنقها دبوس زينة من العقيق الأحمر ودست في أصبعها خاتماً مزيناً بأحجار الياقوت... خاتم الخطوبة. كانت عيناها مثبتتين على منظر الويلد. قطبت جبينها قليلاً ـ ليس من الغضب ـ ولكن كما يفعل طفل شجاع حين يحاول ألاّ يبكي. في كل ذلك الامتداد لم تكن هناك عين بشرية تراها، وكان بإمكانها أن تعبس دون توبيخ وأن تقيس المساحات التي ما زالت باقية بين أبولو والجبال الغربية.

"يا لوسي! يا لوسي! ما هو ذاك الكتاب؟ من أخذ كتاباً من على الرف وتركه هناك حتى يتلف؟".

"إنه مجرد كتاب من كتب الأدب كان سيسيل يقرأ فيه".

"هيا ارفعيه ولا تقفي هناك بتكاسل وكأنك طائر الفلامينغو".

التقطت لوسي الكتاب ونظرت إلى عنوانه بكسل: "تحت اللوغيا". كانت قد توقفت عن قراءة الروايات، إذ كانت تكرس كل أوقات فراغها للأدب الرصين حتى تلحق بسيسيل. لكم كان أمراً مريباً أنها لا تعرف سوى القليل، وحتى حين كانت تظن أنها تعرف شيئاً ما، مثلاً عن الرسامين الإيطاليين، كانت تجد نفسها وقد نسيته. هذا الصباح بالذات كانت قد خلطت بين فرنشسكو فرانتشيا وبييرو ديل

فرنشيسكا؛ وكان سيسيل قد قال: "ماذا؟ ها سبق لك ونسيت إيطالياكِ؟" وهذا تسبب أيضاً بالقلق لعينيها حين حيّتا المنظر الطبيعي العزيز والحديقة العزيزة في المقدمة، وفوقهما الشمس العزيزة، وهي التي لا تُرى إلا نادراً في أمكنة أخرى.

"لوسي، هل معك قطعة من فئة الستة بنسات لأجل ميني وأخرى من فئة الشلن لأجلك؟".

هرعت إلى أمها التي كانت تحضر نفسها لبهجة يوم الأحد.

"إنه من مجموعة خاصة... وقد نسيت ما هي. أرجوك، لا أريد رنيناً مبتذلاً في الطبق بأنصاف البنسات. احرصي على أن يكون لميني قطعة من ستة بنسات تكون جيدة ولامعة. أين الطفلة؟ يا ميني! هذا الكتاب قد تشوّه. (يا إلهي لكم تبدين في غاية الجمال!) ضعيه تحت كتاب الأطلس لينكبس. يا ميني"!

"أوه يا سيدة هنيتشيرتش..". جاء الصوت من المناطق الأعلى.

"ميني، لا تتأخري. هاهو الحصان قد وصل..". الحصان هو الذي يتأخر وليس العربة إطلاقاً. "أين شارلوت؟ أسرعي وعجّليها. لم تأخرت حتى الآن؟ ليس عليها أن تفعل أي شيء. وهي لا تحضر معها أي شيء سوى البلوزات . مسكينة شارلوت... لكم أكره البلوزات! يا ميني"!

عبادة الأوثان معدية ـ أكثر قابلية للعدوى من الدفتريا أو التقوى ـ وكانت ابنة شقيق القسيس قد اصطُحبت إلى الكنيسة وهي تحتج. وكالعادة لم تكن هي تعرف السبب. لم لا تبق تحت أشعة الشمس مع الشبان؟ كان الشبان، الذين ظهروا الآن، يسخرون منها بكلمات غير لطيفة. دافعت السيدة هنيتشيرتش عن الدين القويم، وفي وسط هذه الفوضى، هبطت الآنسة بارتلت الدرج ببطء وهي ترتدي آخر صرعات الموضة.

"عزيزتي ماريان، أنا آسفة جداً، ولكن ليس معي فكّة صغيرة - وليس معي سوى جنيهات ذهبية وأنصاف الكراون. هل يمكن لأي شخص أن...".

"أجل، بسهولة. هيا أسرعي. يا إلهي، لكم تبدين أنيقة. يا له من ثوب جميل! لقد أخجلتنا جميعاً".

"إن لم أرتد أفضل أسمالي وخرقي البالية الآن، فمتى سأرتديها؟" هذا ما قالته الآنسة بارتلت بلهجة مشوبة باللوم. صعدت إلى العربة وجلست وظهرها إلى الحصان. صدرت الضجة الضرورية، ثم انطلقت العربة.

صاح سيسيل: "وداعاً! مع السلامة"!

عضت لوسي على شفتها، فقد كانت لهجته ساخرة. وكانا قد دخلا في حوار حول موضوع "الكنيسة وما يتعلق بها" ولم يكن مرْضياً. قال لها إن على الناس أن يصلحوا أنفسهم، ولم تكن هي راغبة في أن تصلح نفسها: لم تكن تعرف كيف تفعل ذلك. كان سيسيل يحترم الدين القويم الصادق، ولكنه كان يفترض على الدوام أن الاستقامة هي نتيجة لأزمة روحية: لم يكن قادراً على تخيّلها كحق طبيعي بالمولد يمكنه أن ينمو باتجاه السماء شأن الورود. كل ما قاله عن هذا الموضوع كان مؤلماً لها، على الرغم من أنه كان يفرز التسامح من كل مسام من مسامات جلده. على نحو ما، كان السيدان إمرسون مختلفين.

شاهدت السيدين إمرسون بعد الصلاة. كان هناك صفٌّ من العربات على امتداد الطريق، وصدف أن وقفت عربة آل هنيتشيرتش مقابل ڤيلا سيسي. ولتوفير الوقت، فقد سرن كلهن على العشب باتجاهها، ووجدن الأب والابن يدخنان في الحديقة.

قالت أمها: "عرّفيني عليهما ما لم يعتبر الشاب أنه يعرفني مسبقاً".

ربما كان الأمر كذلك؛ ولكن لوسي تجاهلت حادثة "البحيرة المقدسة" وعرّفت أمها رسمياً على السيدين. استقبلها السيد إمرسون العجوز بحماسة كبيرة، وقال إنه شديد السرور لأن لوسي على وشك الزواج. أجابت بأنها سعيدة أيضاً. ثم وبينما كانت الآنسة بارتلت وميني تتسكعان خلفهما مع السيد بيب، فقد حولت لوسي الحديث إلى موضوع أقل إثارة للإزعاج، وسألته إن كان قد أحبّ منزله الجديد.

أجاب: "كثيراً"، ولكن كانت هناك نبرة استياء في صوته: لم يسبق أن عرفته مستاء من قبل. أضاف: "لقد وجدنا، على الرغم من كل شيء، أن الآنستين آلان كانتا آتيتين إلى هذا المنزل، ونحن طردناهما. تنزعج النساء من مثل هذا الأمر. أنا قلق جداً بسبب هذا".

قالت السيدة هنيتشيرتش بارتباك: "أعتقد أن سوء تفاهم ما قد حدث".

"لقد قيل لمالك منزلنا إننا سنكون نمطاً آخر من الأشخاص"، هذا ما قاله جورج الذي بدا عليه أنه يعزّز هذا الرأي. "لقد ظنّ أننا من أصحاب الميول الفنية. وهو خائب الرجاء الآن".

"وأنا أتساءل إن لم يكن علينا أن نراسل الآنستين آلان ونعرض عليهما أن نتخلى عن المنزل. ما رأيكِ؟" وهنا وجّه الكلام إلى لوسي.

قالت لوسي بخفة: "هيا توقفا عن هذا طالما قدمتما وانتهى الأمر". كان عليها أن تتجنب انتقاد سيسيل. كان سيسيل هو المسئول عن انقلاب هذه الحادثة الصغيرة، على الرغم من أن اسمه لم يُذكر قط.

"هذا ما يقوله جورج. يقول إن علينا أن ننسى أمر الآنستين آلان، ولكن الأمر يبدو في منتهى عدم اللطف".

قال جورج وهو يراقب نور الشمس وهو ينعكس من على زجاج العربات المارة: "هناك كمية معينة من اللطف في العالم".

صاحت السيدة هنيتشيرتش: "أجل، هذا هو بالضبط رأيي. لم كل هذا الانشغال الفارغ بالآنستين آلان والثرثرة عنهما؟".

"هناك كمية معينة من اللطف، كما أن هناك كمية معينة من النور"، هكذا تابع جورج كلامه بلهجة ملائمة. نحن نرمي ظلاً على شيء ما وذلك كلما وقفنا منتصبين، وليس بالأمر الجيد أن نتحرك من مكان إلى آخر لإنقاذ الأمور؛ لأن الظل يتبعنا دائماً. اختاروا مكاناً لا تتسببون فيه بالأذى... أجل، اختاروا مكاناً لا تتسببون فيه بالكثير من الأذى، وقفوا فيه بقدر ما تستطيعون، وأنتم تواجهون الشمس".

"أوه يا سيد إمرسون، أرى أنك بارع في الكلام"!

"ماذا...؟".

"أرى أنك ستصبح بارعاً. آمل أنك لم تتصرف على هذا النحو مع فريدي المسكين".

ضحكت عينا جورج، وارتابت لوسي في أنه وأمها سيتفاهمان جيداً بالأحرى.

قال: "لا، لم أفعل. ولكنه تصرف على هذا النحو معي. هذه فلسفته. إلا أنه يبدأ الحياة بها. وقد جربت معه لهجة الاستفسار أولاً".

"ما الذي تعنيه حقاً؟ كلا، لا يهم ما تعنيه. لا تشرح لي. إنه يتطلع إلى مقابلتك عصر هذا اليوم. هل تلعب التنس؟ هل تمانع في لعب التنس يوم الأحد...؟".

"أتعنين أن جورج يجد مانعاً في لعب التنس يوم الأحد!؟ جورج بعد أن أنهى تعليمه يميز ما بين الأحد..".

"حسناً، جورج لا يمانع في لعب التنس يوم الأحد، ولا أنا أيضاً. هذا أمر محسوم. يا سيد إمرسون، إذا حضرت مع ابنك فسوف نكون مسرورين جداً".

"شكراً، ولكن المسافة تبدو بعيدة لقطعها سيراً على الأقدام: إنه لا يستطيع سوى أن يتسكع ببطء في هذه الأيام".

التفتت إلى جورج: "إذاً هو يريد أن يسلم منزله إلى الآنستين الآن".

قال جورج: "أعرف ذلك"، ثم طوّق عنق أبيه بذراعه. كان اللطف الذي عرف السيد بيب ولوسي دائماً أنه موجود فيه قد برز فجأة، كنور الشمس الذي ينصب فوق منظر طبيعي ريفي رحب...أهي لمسة من شمس الصباح؟ تذكرت أنه رغم كل تصرفاته الغريبة إلا أنه لم يعترض قط على العاطفة.

اقتربت الآنسة بارتلت.

"أنتما تعرفان ابنة عمنا، الآنسة بارتلت. لقد قابلتماها في فلورنسه مع ابنتي".

"أجل، بالفعل"! هذا ما قاله الرجل العجوز. وبدا عليه وكأنه سيخرج من الحديقة ليحيي المرأة. ولكن الآنسة بارتلت هرعت لتصعد إلى العربة. وبعد أن تحصّنت هناك، أطلقت انحناءة رسمية. كان بنسيون بارتوليني قد عاد مجدداً، وكذلك مائدة العشاء وعليها زجاجات الماء والنبيذ. كانت تلك هي المعركة القديمة حول الغرفة ذات الإطلالة.

لم يردّ جورج على الانحناءة. وكأي فتى، فقد احمر وجهه وشعر بالخجل: كان يعرف أن الوصيفة المرافقة تذكرت. قال: "أنا... أنا

سأحضر للعب التنس إن استطعت". ثم دخل إلى المنزل. ربما كان أي شيء يفعله قد يسر لوسي، ولكن ارتباكه وصل مباشرة إلى قلبها: إذاً الرجال ليسوا بالآلهة على أي حال، وإنما هم بشر ويتصرفون بخراقة كالفتيات. حتى أن الرجال قد يعانون من رغبات لا تفسير لها، وهم في حاجة إلى العون. وبالنسبة إلى فتاة تلقت ذلك النوع من التربية ولها تلك الغاية، فإن ضعف الرجال كان حقيقة غير مألوفة. ولكن سبق لها وحدست ذلك في فلورنسه، حين رمى بالصور في نهر الأرنو.

صاح أبوه الذي كان يظن أنه لو تحدث ابنه مع الناس، فسيكون في ذلك متعة كبيرة لهم: "جورج، لا تبتعدْ. كان جورج في حالة ابتهاج كبيرة اليوم، وأنا واثق من انه سيحضر إليكم عصر هذا اليوم".

لاحظت لوسي أن ابنة عم أمها كانت تنظر إليها. كان هناك شيء ما في توسّلها الصامت قد جعلها تتصرف بتهور. قالت وهي ترفع صوتها: "أجل، آمل أنه سيحضر". ثم مضت إلى العربة وهمهمت: "لم يتم إبلاغ الرجل العجوز بما حدث في فلورنسه؛ لقد عرفت أن الأمر على ما يرام". لحقت بها السيدة هنيتشيرتش، ثم انطلقت بهن العربة.

كان أمراً ساراً بالنسبة إلى لوسي أن السيد إمرسون لم يبلّغ بمغامرة فلورنسه، ومع ذلك، فإن معنوياتها ما كانت ستتحسن وكأنها شاهدت أسوار الجنة. كان أمراً ساراً، ولكنها رحبت به بالتأكيد بفرح غير متكافئ. وطوال الطريق إلى البيت كانت حوافر الحصان تغنّي لها لحناً ما: "لم يخبر أباه، لم يخبر أباه". أطلق اللحن دماغها: "لم يخبر أباه... وهو الذي يحكي له كل شيء. لم تكن تلك مأثرة. لم يضحك عليّ بعد أن رحلت". رفعت يدها إلى وجنتها. "هو لا يحبني. كلا، لكم هو أمر رهيب لو أنه يحبني. ولكنه لم يخبر أباه. ولن يفعل".

تاقت إلى أن تصرخ بتلك الكلمات: "الأمر على ما يرام. إنه سرّ بيننا نحن الاثنين إلى الأبد. سيسيل لن يعرف أبداً". كانت مسرورة حتى لأن الآنسة بارتلت جعلتها تطلق وعدها بأن تبقي الأمر سراً في تلك الأمسية الأخيرة المعتمة في فلورنسه، حين ركعتا لتوضيب الحقائب في غرفتها. السر، كبيراً كان أم صغيراً، محميّ. لا يعرفه سوى ثلاثة أشخاص من الإنكليز في هذا العالم كله.

هكذا فسّرت فرحتها. حيّت سيسيل ببهاء غير عادي، لأنها شعرت بالأمان إلى حد كبير. وحين ساعدها على النزول من العربة، قالت:

"لقد كان السيدان إمرسون في منتهى اللطف. وقد تحسن جورج إمرسون إلى حدّ هائل".

سأل سيسيل الذي لم يكن لديه اهتمام حقيقي بهما، وكان قد نسي منذ فترة طويلة قراره بإحضارهما إلى ويندي كورنر لأغراض تعليمية: "أوه، وكيف هما ربيباي؟".

صاحت ببعض الحماسة: "ربيباك؟".

فقد كانت العلاقة الوحيدة التي كان سيسيل يفهمها هي العلاقة الإقطاعية، علاقة الحامي والمحمي. لم يكن يتحلى بلمسة الرفاقية التي كانت روح الفتاة تصبو إليها.

"سترى بنفسك كيف هما ربيباك. سيحضر جورج إمرسون هذا العصر. إنه شخص ذو حديث مثير للاهتمام جداً. ولكن لا..". ربما كادت تقول: "لا تحمِه". ولكن الجرس كان يرنّ لوجبة الغداء، وكما يحدث غالباً، لم ينتبه سيسيل كثيراً إلى ملاحظاتها، فالفتنة وليس الجدال هي حصنها.

كان الغداء وجبة مرحة. في العادة تكون لوسي مكتئبة خلال الوجبات؛ فهناك دائماً شخص يتوجب تهدئة خاطره ـ إما سيسيل أو الآنسة بارتلت أو "كائن" غير مرئي للعين الفانية ـ "كائن كان يهمس لروحها قائلاً: "لن يدوم هذا المرح. في كانون الثاني (يناير) عليك أن تذهبي إلى لندن لتسلّي أحفاد رجال شهيرين". ولكنها شعرت هذا اليوم بأنها قد تلقت ضمانة ما. كانت أمها تجلس هناك دائماً، وأخوها هنا، والشمس على الرغم من تحركها قليلاً منذ الصباح، لم تختفِ قط خلف الجبال الغربية. بعد الغداء طلبوا منها العزف. كانت قد حضرت عرض أرميد" لغلوك[1] في ذلك العام، فعزفت من الذاكرة موسيقى "الحديقة المسحورة" ـ الموسيقى التي يقاربها "رينو" تحت نور فجر أبدي، الموسيقى التي لا تشتدّ أبداً ولا تضعف أبداً، بل تتموج إلى الأبد مثل بِحار الجنّ التي لا مدّ فيها ولا جزر. مثل هذه الموسيقى لا تصلح للبيانو، وبدأ جمهورها يصاب بالضجر، وصاح سيسيل الذي شعر بالامتعاض أيضاً: "والآن اعزفي لنا الحديقة الأخرى... تلك التي في بارسيفال[2]".

أغلقت غطاء البيانو.

قال صوت أمها: "لستِ مطيعة جداً".

ولخشيتها من أن تكون قد أهانت مشاعر سيسيل، فقد التفتت بسرعة إلى الخلف. كان جورج هناك. لقد تسلّل دون أن يقاطعها.

صاحت ووجهها يتضرج بلون أحمر قان: "أوه، لم أكن أعلم"! ثم ودون كلمة ترحيب، أعادت فتح غطاء البيانو. سينال سيسيل البارسيفال وأي شيء آخر يريده.

---

(1) أوبرا للموسيقار كريستوف غلوك (1714-1787). المترجم.

(2) أوبرا لريتشارد فاغنر. المترجم.

قالت الآنسة بارتلت: "لقد غيرت عازفتنا رأيها"، ويبدو أنها كانت تعني أن تقول: "ستعزف للسيد إمرسون". لم تعرف لوسي ما يمكن أن تفعله، ولا حتى ما كانت تريد فعله. عزفت بعض الفواصل الموسيقية من "عذارى الزهور" على نحو رديء جداً، ثم توقفت عن العزف.

قال فريدي، فقد اشمأز من هذه التسلية المتقطعة: "أنا أصوّت للعب التنس".

"أجل، وأنا كذلك". ومن جديد أغلقت غطاء البيانو البائس. "أصوّت على أنه لديك أربعة لاعبين من الذكور".

"حسناً".

قال سيسيل: "ليس أنا. شكراً. لن أفسد المباراة". لم يدرك قط أن لاعباً رديئاً قد يشارك في لعبة الزوجي كنوع من المجاملة.

"أوه، هيا يا سيسيل. أنا لاعب رديْ وفلويد أيضاً. وكذلك هو إمرسون على ما أظنّ".

صحح له جورج: "لست لاعباً رديئاً".

كان من شأن أي شخص ألا يتنازل أمام هذا الحوار. قال سيسيل: "إذاً، لن ألعب". بينما أضافت الآنسة بارتلت، وهي تظن أنها تزجر جورج: "أتفق معك يا سيد ڤايز. الأجدر بك ألا تلعب. هذا أفضل بكثير".

اندفعت ميني حيث كان سيسيل يخشى الاقتحام وأعلنت أنها ستلعب". ستفوتني كل كرة على أي حال، ولكن ما أهمية ذلك؟" ولكن يوم الأحد تدخَّلَ بقوة وداس على هذا الاقتراح اللطيف.

قالت السيدة هنيتشيرتش: "إذاً ستلعب لوسي. عليكم أن تلجؤوا إلى لوسي. لا حلّ أمامكم سوى هذا. اذهبي يا لوسي وبدّلي ثوبك".

كان يوم الراحة عند لوسي من هذا الصنف ذي الطبيعة البرمائية. فقد كانت تحافظ على الراحة دون رياء في الصباح، وتنتهكها دون تردد بعد الظهر. وبينما كانت تبدل ثوبها، تساءلت ما إذا كان سيسيل يسخر منها: عليها فعلاً أن تصلح نفسها وأن تسوّي الأمور كلها قبل أن تتزوج منه.

كان السيد فلويد هو شريكها في اللعب. كانت تحب الموسيقى، ولكم بدا لها التنس أفضل منها بكثير. لكم كان أفضل لها أن تجري بثياب مريحة على أن تجلس إلى آلة البيانو وتشعر بأنها مطوقة بحزام تحت ذراعيها. ومرة أخرى بدت الموسيقى كمهنة للأطفال. أرسل جورج الكرة، وفاجأها بتلهّفه على الربح. تذكرت كيف تنهّد بين القبور في كنيسة سانتا كروتشه لأن الأمور لم تكن ملائمة؛ وكيف حدث بعد موت ذلك الإيطالي المجهول أن انحنى فوق الحاجز على نهر الأرنو وقال لها: "سأرغب في أن أحيا، هذا ما أقوله لكِ". كان يريد الآن أن يحيا، وأن يربح شوط التنس، وأن يؤكد على مكانته تحت الشمس التي بدأت تغرب، وكانت تشع في عينيها. وقد ربح بالفعل.

آه، لكم يبدو "الويلد" جميلاً! انتصبت الجبال عالياً فوق إشعاعها، كما يقف جبل "فيزوله" فوق سهل "توسكانيا"؛ كما يمكن لجبال "ساوث داونز" ـ لو اختار المرء ذلك ـ أن تكون مثل جبال "كارارا". ربما أخذت تنسى إيطاليا كما عرفتها، ولكنها كانت تلاحظ أشياء أكثر في إنكلترا، موطنها. يمكن للمرء أن يلعب لعبة جديدة مع المنظر الطبيعي، ويحاول أن يجد في طياته العديدة بلدة ما أو قرية ما ستحلّ محل فلورنسه. آه، لكم يبدو "الويلد" جميلاً!

ولكن سيسيل لفت انتباهها الآن. لقد صدف أنه كان في مزاج ناقد جليّ، ولن يتعاطف مع الإثارة. لقد كان بالأحرى مزعجاً خلال لعبة التنس كلها، فالرواية التي كان يتلوها بصوت مرتفع للآخرين كانت

رديئة جداً. كان يتمشى من حول حدود ملعب التنس وينادي: "أقول، استمعي إلى هذا يا لوسي. ثلاثة صيغ متباعدة للمصدر [كما في النحو]. قالت لوسي: "هذا رهيب"! وفاتها أن تردّ الكرة. وبعد أن أنهوا المجموعة، كان هو ما يزال يتابع القراءة. كان هناك مشهد لجريمة قتل، وكان على كل شخص أن يصغي إليه. اضطر فريدي والسيد فلويد إلى البحث عن كرة ضائعة بين شجيرات الغار، ولكن اللاعبين الآخرين وافقا على الإصغاء.

"المشهد يجري في فلورنسه".

"يا له من أمر مسلّ يا سيسيل! إقرأ. تعال يا سيد إمرسون، أجلس بعد كل تلك الطاقة التي بذلتها". لقد سامحت لوسي جورج، كما عبّرت عن الموضوع، وأوضحت أنها تتصرف معه بلطف.

قفز من فوق الشبكة، وجلس عند قدميها، وسأل: "وأنت... هل أنت متعبة؟".

"طبعاً لست متعبة"!

"هل تنزعجين إن تعرضتِ للخسارة؟".

كانت ستجيبه بلا، حين خطر لها أنها ستنزعج فعلاً، وأجابت بنعم. ثم أضافت بمرح: "لا أرى **فيك** لا عباً رائعاً على الرغم من كل شيء. كان النور خلفك، وكان يشع في عينيّ أنا".

"لم يسبق أن قلت قط إني لاعب رائع".

"عجباً، بل فعلتَ ذلك".

"أنت لم تنتبهي".

"لقد قلتَ أنت ذلك...أوه، لا تستمع بالقول إننا كنا دقيقين في هذا البيت. نحن جميعاً نبالغ، كما نغضب بشدة من الأشخاص الذين لا يبالغون".

"كان المشهد في فلورنسه"، هكذا كرر سيسيل بصوت مرتفع.

تمالكت لوسي نفسها.

"(الوقت غروب. كانت ليونورا تمشي مسرعة)".

قاطعته لوس: "ليونورا؟ هل ليونورا هي البطلة؟ من مؤلف الكتاب؟".

"جوزيف إيميري برانك. (غروب. كانت ليونورا تمشي مسرعة عبر الساحة. وكانت ترجو من القديسين ألا تصل متأخرة جداً. غروب... غروب إيطاليا. تحت أورغانيا لوغيا ـ لوغيا دي لانتسي، كما ندعوها أحياناً الآن...".

انفجرت لوسي بالضحك. "جوزيف إيميري برانك بالفعل! عجباً! إنها الآنسة لاڤيش! هذه رواية الآنسة لاڤيش، وهي تنشرها تحت اسم شخص آخر".

"ومن هي الآنسة لاڤيش؟".

"أوه، شخصية غريبة... يا سيد إمرسون، ألا تتذكر الآنسة لاڤيش؟" وبما أنها كانت مستثارة من فترة العصر البهيجة هذه، فقد صفّقت بيديها.

رفع جورج نظره. "طبعاً أتذكرها. لقد شاهدتها يوم أن وصلتُ إلى شارع سمر. كانت هي التي أخبرتني أنك تسكنين هنا".

"ألم تسرّ بذلك؟" كانت تعني..". ألم تسر برؤية الآنسة لاڤيش؟"، ولكنه حين انحنى نحو العشب دون جواب، فقد شعرت أنها يمكن أن تكون قصدت شيئاً آخر. راقبت رأسه التي كانت ترتاح تقريباً فوق ركبتها، وفكرت في أن أذنيه كانتا تحمران. أضافت: "لا عجب أن الرواية رديئة. لم أحب الآنسة لاڤيش قط. ولكنني أفترض أن علينا قراءتها طالما أننا قابلناها".

قال سيسيل الذي انزعج من عدم انتباهها إليه، فصبّ غضبه على الأدب: "كل الكتب رديئة. الكل يكتب لأجل المال في هذه الأيام".

"أوه، سيسيل...".

"الأمر على هذا المنوال. لن أبتليك بجوزيف إيميري برانك بعد الآن".

بدا سيسيل في عصر هذا اليوم كسنونو مغرد. وكانت ملحوظة تلك النبرات العالية والمنخفضة في صوته، ولكنها لم تؤثر على لوسي. لقد سبق لها وعرفت اتساق الأصوات والحركة، ورفضت أعصابها أن تستجيب لرنين صوته. تركته وهو غاضب، وراحت تحدق إلى الرأس ذات الشعر الأسود مجدداً. لم تكن تريد أن تربت عليها، ولكنها رأت نفسها راغبة في أن تربت عليها: كان ذلك الإحساس مثيراً للفضول.

"كيف ترى هذا المنظر الطبيعي أمام بيتنا يا سيد إمرسون؟".

"أنا لا ألاحظ فرقاً كبيراً بين المناظر الطبيعة".

"ما الذي تعنيه؟".

"لأنها كلها متشابهة. لأن كل ما له أهمية فيها هو المسافة والهواء".

قال سيسيل وهو غير متأكد مما إذا كانت تلك الملاحظة لافتة للاهتمام أم لا: "هاهه"!

"أبي"، رفع نظره إليها (وكان متضرج الوجه قليلاً) "يقول إنه لا يوجد سوى منظر طبيعي واحد يتصف بالكمال: وهو منظر السماء فوق رؤوسنا، وأن كل هذه المناظر على الأرض ما هي إلا نسخ غير متقنة منه".

قال سيسيل وهو يقلبّ الرواية بأصابعه، وهذا ما كان يسمح له بإدارة الحوار: "أتوقع أن يكون أبوك قد قرأ دانتي".

"لقد حكى لنا في أحد الأيام أن المناظر الطبيعية مجرد حشود ـ حشود من الأشجار والمنازل والجبال ـ وبالتالي سيشبه كل منظر المنظر الآخر، شأن الحشود من البشر ـ وأن التأثير الذي تحدثه فينا شيء خارق للطبيعة، وللسبب نفسه".

انفرجت شفتا لوسي.

"فالحشد أكبر من الأشخاص الذين يؤلفونه. سيضاف إليه شيء ما ـ لا يعرف أحد كيف يحدث ذلك ـ وكأنما أضيف شيء ما إلى تلك الجبال".

وأشار بمضرب التنس إلى جبال ساوث داونز.

همهمت: "يا لها من فكرة رائعة! سأستمتع بالإصغاء إلى أبيك وهو يتكلم مرة أخرى. أنا آسفة جداً أن صحته ليست ما يرام".

قال سيسيل: "هناك وصف سخيف لمنظر طبيعي في هذا الكتاب".

"وكذلك أن الرجال صنفان: صنف ينسى المناظر وآخر يتذكرها، حتى في الغرف الصغيرة".

"يا سيد إمرسون، هل لك أي أخوة أو أخوات؟".

"كلا، لماذا؟".

"كنت تتحدث عن أنه (حكى لنا)".

"عنيت أمي وأنا".

أغلق سيسيل الرواية بقوة محدثاً صوتاً قوياً.

"أوه، يا سيسيل... كيف تجعلني أجفل"!

" لن أبتليكم بجوزيف إيميري برانك بعد الآن".

"أستطيع أن أتذكر للتوّ ثلاثتنا ونحن نشق طريقنا في الريف خلال النهار، وكيف كنا قادرين على أن نرى كل شيء واضحاً أمامنا حتى (هايندهِد)[1]. إنه أول شيء أتذكره".

نهض سيسيل واقفاً: كان هذا الرجل [جورج] غير مهذب ـ فهو لم يرتد سترته بعد لعب التنس ـ لم يفعل. وكان سيسيل سيبتعد لولا أن لوسي أوقفته.

"يا سيسيل، اقرأ ذلك المقطع عن المنظر الطبيعي".

"لن أفعل ما دام السيد إمرسون هنا ليسلّينا".

"هيا اقرأ. لا أعتقد أن هناك شيئاً أكثر مدعاة للتسلية من سماع أشياء سخيفة تُتلى بصوت مرتفع. وإن كان السيد إمرسون يعتبرنا تافهين، يستطيع أن يذهب".

وهذا ما فاجأ سيسيل ووجده حاذقاً، كما بثّ فيه السرور، ووضع زائرهم في موقع المتزمّت الذي يميل إلى ازدراء الآخرين. وبما أن غضبه قد سكن بعض الشيء، فقد عاد إلى الجلوس.

"يا سيد إمرسون، اذهب وابحث عن كرات التنس". ثم فتحت هي الكتاب. سيحظى سيسيل بقراءته وأي شيء آخر يريده. ولكن اهتمامها اتجه إلى أم جورج التي ـ حسب ما قاله السيد إيغر ـ قد قُتلت تحت أنظار الربّ و ـ وفقاً لابنها ـ فقد رأت المنظر الطبيعي ممتداً أمامها حتى هايندهد.

سأل جورج: "هل عليّ فعلاً أن أذهب؟".

أجابت: "كلا، طبعاً ليس بالفعل".

---

(1) قرية في مقاطعة سري في إنكلترا. المترجم.

قال سيسيل وهو يتثاءب: "الفصل الثاني. افتحي على الفصل الثاني، إن لم يكن هذا يزعجك".

وُجد الفصل الثاني، فنظرت إلى الجمل الافتتاحية.

ظنت أنها قد تُصاب بالجنون.

"هيا... ناوليني الكتاب".

سمعت صوتها يقول: "لا يستحق القراءة ـ إنه سخيف جداً لا يستحق التلاوة ـ لم يسبق لي أن قرأت مثل هذا الهراء... ما كان يجب أن يُسمح بطباعته".

أخذ الكتاب منها.

بدأ يتلو: "(جلست ليونورا متأملة ووحيدة. أمامها كانت زجاجة الشمبانيا خاصة توسكانيا، وقد رسم على لصاقتها الكثير من القرى المبتسمة. كان الفصل ربيعاً)".

لقد عرفت الآنسة لافيش الحكاية على نحو ما، وهاهي قد طبعت الزمن الماضي بنثر رطب وقذر حتى يقرأه سيسيل ويصغي جورج إليه.

راح يقرأ: "(سديم ذهبي)". وقرأ: "(بعيداً عن أبراج فلورنسه، كانت الضفة التي جلست عليها مغطاة بسجادة من أزهار البنفسج. ودون أن يُلاحظ، انسل أنطونيو من خلفها..)"..

وحتى لا يرى سيسيل وجهها، التفتت إلى جورج ورأت وجهه.

قرأ: "(لم يصدر عن شفتيه أي احتجاج كلامي كالذي يستخدمه العشاق التقليديون. لم يكن فصيحاً، ولم يكن يعاني من نقص في الفصاحة. بل لفّها ببساطة بين ذراعيه القويتين)".

ساد الصمت.

قال لهم: "ليس هذا هو المقطع الذي أردت تلاوته. هناك مقطع آخر أكثر إثارة للضحك، بعد هذا". راح يقلب الصفحات.

قالت لوسي التي بقي صوتها هادئاً: "هل ندخل لنشرب الشاي؟".

قادت الطريق صعوداً عبر الحديقة، وسيسيل يلحق بها، ثم جورج أخيراً. فكرت في أنه تم تجنب كارثة ما. ولكنهم حين دخلوا ضمن الأيكة، حلّت الكارثة. لقد تم نسيان الكتاب، وكأنه لم يحدث ما يكفي من الشرّ، فعاد سيسيل لجلبه. وأما جورج، الذي كانت عاطفته مشبوبة، فكان عليه أن يخطئ في حقها في الممر الضيق.

شهقت: "كلا.."، وللمرة الثانية كان قد قبّلها.

ولما لم يكن المزيد من القبل ممكناً، فقد عاد إلى الخلف متسللاً. لحق سيسيل بها، ووصلا إلى المرجة العليا وحيدين.

* * *

# الفصل [16]

## الكذب على جورج

ولكن لوسي كانت قد نضجت منذ ذلك الربيع، أي أنها أصبحت أكثر قدرة على كبح الانفعالات التي لم تكن التقاليد توافق عليها ولا العالم كذلك. وعلى الرغم من أن الخطر عليها كان أكبر، إلا أنها لم تكن لترتعش من نوبات البكاء العميقة. قالت لسيسيل: "لن ادخل لتناول الشاي ـ قل ذلك لأمي ـ عليّ كتابة بعض الرسائل"؛ ثم صعدت إلى غرفتها. وهناك استعدت للعمل. عاد الحب الذي تشعر به وتتبادله، الحب الذي تتطلبه أجسادنا وتمجده قلوبنا، الحب الذي هو أكثر الأمور التي سنواجهها واقعية على الإطلاق؛ عاد هذا الحب للظهور مجدداً وكأنه عدو العالم، وعليها أن تكبته.

أرسلت تطلب الآنسة بارتلت.

لم يكن النزاع نزاعاً بين الحب والواجب. ربما لم يسبق أن وجد هذا النزاع. كان يكمن بين ما هو حقيقي وزائف، وكان هدف لوسي الأول هو أن تهزم نفسها. وحين غام عقلها، وراحت ذكرى المناظر تعتم وكلمات الكتاب تتلاشى، عادت إلى كلمة سرها القديمة الخاصة بالأعصاب. لقد "هزمت انهيارها". راحت تتلاعب بالحقيقة، فنسيت أن الحقيقة وجدت على الإطلاق. تذكرت أنها كانت مخطوبة لسيسيل، وأجبرت نفسها على الخوض في ذكريات مختلطة لها مع جورج. لم يكن يمثل لها أي شيء. ولم يسبق له أن كان أي شيء: لقد تصرفت على نحو مقيت، وهي لم تشجعه قط. إن درع الزيف محبوك

برقة من الظلام، ويخفي الشخص ليس عن الآخرين فحسب، بل عن روحه بالذات. خلال لحظات قليلة، أضحت لوسي مستعدة للمعركة.

ما أن وصلت ابنة عم أمها، حتى قالت لها: "لقد حدث شيء رهيب. هل تعرفين أي شيء عن رواية الآنسة لافيش؟".

بدت الآنسة بارتلت مندهشة، وقالت إنها لم تقرأ الكتاب، ولم تكن تعرف أيضاً أنه قد نُشر. كانت إلينور متكتمة بطبيعتها".

"هناك مشهد في الرواية. البطل والبطلة يمارسان الحب. هل تعرفين شيئاً عن هذا؟".

"عزيزتي...؟".

كررت: "هل تعرفين شيئاً عنه، من فضلك؟ هما على سفح جبل، وفلورنسة تُرى من بعيد".

"يا لوسيا الطيبة، أنا مشوشة تماماً. لا أعرف عنه أي شيء إطلاقاً".

"هناك أزهار بنفسج. لا أستطيع أن أصدق أنها مجرد صدفة، يا شارلوت. شارلوت، كيف **أمكنك** أن تحكي لها ذلك؟ لقد فكرت في الأمر قبل أن أكلمك. لا بدّ أنك هي".

سألت شارلوت باستثارة متصاعدة: "ما الذي قلتُه لها؟".

"عن عصر ذلك اليوم الكريه في شباط (فبراير)؟".

كانت الآنسة بارتلت قد تأثرت فعلاً. "أوه، لوسي، يا أعز الفتيات، لم تذكر هي ذلك في كتابها، أليس كذلك؟".

أومأت لوسي برأسها.

"ليس على نحو يجعل المرء يميزه؟".

"بلى".

"إذاً، لن ولن ولن تكون إلينور لافيش صديقة لي".

"إذاً، فقد أخبرتِها بما حدث".

"لقد حدث الأمر فحسب ـ حين تناولت الشاي معها إلى روما ـ خلال مجرى حوار ما..".

"ولكن يا شارلوت...ماذا عن الوعد الذي قدمته لي حين كنا نوضب حقائبنا؟ لم أخبرت الآنسة لافيش وأنت التي ما كنت لتخبري أمي؟".

"لن أغفر لإلينور أبداً. لقد خانت ثقتي".

"ولمَ أخبرتها على الرغم من كل شيء؟ هذا أمر خطير جداً".

وما السبب في أن يخبر المرء الآخرين بأي شيء؟ هذا السؤال أبديّ، ولم يكن أمراً مفاجئاً أن تطلق الآنسة بارتلت مجرد تنهيدة خفيفة كجواب على السؤال. لقد أخطأت... أقرّت بذلك. ولكنها كانت تأمل في أنها لم تتسبب في أي أذى. لقد حكت لإلينور شريطة عدم الإفشاء.

ضربت لوسي الأرض بقدمها من الغضب.

"لقد جرى أن تلا سيسيل ذلك المقطع علّيّ وعلى السيد إمرسون. وهذا ما أزعج السيد إمرسون، فأهانني مجدداً، دون أن ينتبه سيسيل. آخ! هل من الممكن أن يكون الرجال بكل هذه الفظاظة؟ لقد فعلها من خلف ظهر سيسيل ونحن نعبر الحديقة".

انفجرت الآنسة بارتلت في سلسلة من اتهامات للذات والندم.

"ما الذي يمكن فعله الآن؟ هل يمكنك أن تقولي لي؟".

"أوه يا لوسي... لن أغفر لنفسي أبداً، حتى يوم مماتي. تصوري لو أن إمكانيات نجاح مشروع زواجك...".

قالت لوسي وهي تجفل من وقع الكلمة: "أرى الآن السبب في أنك أردت مني أن أخبر سيسيل، وما الذي عنيتِه بكلمة (مصدر آخر). لقد عرفتِ أنك قد أخبرت الآنسة لاڤيش وأنها ليست موضع ثقة".

كان قد حان دور الآنسة بارتلت لتجفل.

قالت الفتاة وهي تستخف بخداع ابنة عم أمها: "على أي حال، ما جرى قد جرى. لقد وضعتِني في موقف أشد ما يكون إرباكاً. كيف سأخرج منه؟".

لم تستطع الآنسة بارتلت التفكير. كانت أيام حيويتها قد أفِلت. هي مجرد زائرة الآن وليست وصيفة مصاحبة، وهي زائرة مثقلة بالخزي إضافة إلى ذلك. وقفت بيدين مشبكتين بينما راحت الفتاة تلعب دور الغضب المتصاعد.

"عليه... على ذلك الرجل أن ينال تقريعاً لا ينساه أبداً. ومن ذا الذي سيفعل ذلك به؟ لا أستطيع أن أخبر أمي الآن... بسببك. ولا أستطيع أن أخبر سيسيل يا شارلوت وذلك أيضاً بسببك. وأنا عالقة في الفخّ على أي حال. أعتقد أني سأجنّ. ليس هناك من يقدم لي يد العون. لذلك طلبت منك القدوم إلى هنا. المطلوب رجل لديه سوط".

"أجل... ولكن لا فائدة من الموافقة على ما أقول. ما الذي يمكن **فعله؟** نحن النساء نستمر في الهذيان. ما الذي يمكن أن **تفعله** الفتاة حين تصادف وغداً؟".

لقد قلت لك دائماً إنه وغد يا عزيزتي. امنحيني فضل ذلك على أي حال. منذ اللحظة الأولى... حين قال إن أباه كان يستحم".

"أوه، اللعنة على الفضل ومن هو على صواب أو على خطأ! لقد لخبطنا كلتانا الأمر. ما يزال جورج إمرسون هناك في الأسفل في الحديقة، وقد تُرِك دون عقاب، أليس كذلك؟ أريد أن أعرف".

شعرت الآنسة بارتلت بالعجز تماماً. كان انكشافها قد أفقدها صوابها، وراحت الأفكار تتصادم بشكل مؤلم في دماغها. تحركت بضعف نحو النافذة، وحاولت أن تميّز الملابس الصوفية البيضاء للوغد بين شجيرات الغار.

"لقد كنت جاهزة بما فيه الكفاية في بنسيون بارتوليني حين جعلتني أندفع إلى السفر على عجل إلى روما. ألا تستطيعين أن تتحدثي إليه مجدداً الآن؟".

"سأحرّك السماء والأرض عن طيب خاطر..".

قالت لوسي بلهجة ازدراء: "أريد شيئاً أكثر تحديداً. هل ستتحدثين إليه؟ هذا أقل ما يمكنك فعله، بكل تأكيد، مع الأخذ في الحسبان أن كل هذا جرى لأنك حنثت بوعدك".

"لن تكون إلينور لاڤيش صديقتي بعد الآن".

"كانت شارلوت تتفوق على نفسها فعلاً".

"نعم أم لا، من فضلك: نعم أم لا".

"هذا هو ذلك النوع من الأمور الذي لا يمكن سوى لجنتلمان أن يفعله".

كان جورج إمرسون يصعد من الحديقة وكرة تنس في يده.

"حسناً"، قالت لوسي بلهجة وهي تومئ بإشارة يشوبها الغضب. "لن يساعدني أحد. أنا سأكلمه بنفسي". وعلى الفور أدركت أن هذا ما كانت ابنة عم أمها تقصده طوال الوقت.

قال فريدي من الأسفل: "مرحباً يا إمرسون! هل وجدت الكرة الضائعة؟ يا لك من رجل طيب! هل تريد تناول الشاي؟"" ثم جرى اقتحام المنزل باتجاه الشرفة.

"أوه يا لوسي، ولكن هذه شجاعة منك! أنا معجبة بك..".

كانوا قد تجمعوا من حول جورج الذي أومأ، كما شعرت، من فوق الهراء والأفكار القذرة والإشفاقات الماكرة التي كانت ترهق روحها. لقد هدأ غضبها لمرآه. آه! كان السيدان إمرسون خصمين رائعين حسب أسلوبهما الخاص بهما.كان عليها أن تكبح فورة في دمائها قبل أن تقول:

"لقد اصطحبه فريدي إلى غرفة الطعام. والآخرون سينزلون إلى الحديقة. تعالي. فلننته من هذا الأمر بسرعة. تعالي. أريدك أن تكوني في الغرفة، طبعاً".

"لوسي، هل تنوين فعل ذلك؟".

"كيف يمكنك أن تطرحي مثل هذا السؤال المضحك؟".

"يا لوسي المسكينة..". مدت يدها". يبدو أني لا أجلب سوى سوء الحظ أنّى ذهبت". أومأت لوسي برأسها. تذكرت آخر أمسية لهما في فلورنسه... التوضيب والشمعة وظل قبعة الآنسة بارتلت على الباب. لن تسمح بأن تقع في فخ العناصر المثيرة للشفقة مرة ثانية. تملصت من عناق ابنة عم أمها، وقادت الطريق نحو الطابق السفلي.

كان فريدي يقول: "تذوّق المربّى. إنه جيد جداً"!

كان جورج، الذي بدا ضخماً ومشعثاً يذرع أرض غرفة الطعام جيئة وذهاباً.

"لا...لا أريد أن أتناول أي شيء".

قالت لوسي: "اذهب إلى الآخرين. شارلوت وأنا سنقدم للسيد إمرسون ما يريده. أين أمي؟".

"لقد شرعت في كتابة رسائل يوم الأحد. إنها في غرفة الاستقبال".

"هذا حسن. اذهب أنت من هنا".

خرج وهو يغنّي.

جلست لوسي إلى المائدة، أما الآنسة بارتلت التي كانت خائفة جداً، فأمسكت بكتاب وتظاهرت بالقراءة.

لن تتورط في خطاب مطوّل. قالت فحسب: "لا أستطيع تحمل ذلك يا سيد إمرسون. لا أستطيع حتى التحدث إليك. اخرج من هذا المنزل ولا تعد إليه مرة أخرى طالما كنتُ أعيش فيه"... وهنا احمرّ وجهها وهي تتكلم وتشير إلى الباب".أكره الشجار. اذهب من فضلك".

"ماذا..".



لا جدال".

"ولكني لا أستطيع..".

هزت رأسها. "اذهب. أرجوك. لا أريد أن أنادي على السيد ڤايز ليدخل إلى هنا".

قال وهو يتجاهل تماماً وجود الآنسة بارتلت: "أنت لا تعنين... أنت لا تعنين أنك ستتزوجين من ذلك الرجل".

كان هذا الأسلوب غير متوقع.

هزت كتفيها، وكأن سوقيته قد أقلقتها. قالت بهدوء: "أنت مضحك لا غير".

ثم قال بصوت جدي علا فوق صوتها: "لا يمكنك العيش مع ڤايز. إنه لا يصلح إلا كواحد من المعارف، كشخص يلائم المجتمع الراقي والحوار المهذب. لا يجب عليه أن يكون على علاقة حميمة مع أي شخص، وليس مع امرأة على الإطلاق".

كانت هذه إضاءة جديدة على شخصية سيسيل.

"هل سبق لك أن تكلمت مع ڤايز دون أن تشعري بالتعب؟".

"لا أستطيع مناقشة الأمر إطلاقاً".

"كلا، ولكن هل سبق لك ذلك؟ إنه ذلك النوع من الناس الذي يكون على ما يرام وعلى الدوام، طالما اقتصرت الحال على أشياء بعينها ـ الكتب واللوحات ـ ولكنه يَقْتلُ حين يتعامل مع الناس. ولهذا السبب سأجهر صوتي بالكلام عبر كل هذه الفوضى، بل وحتى الآن. إنه لأمر مؤلم أن أخسرك في أي حال من الأحوال، ولكن على العموم، فإنه يجب على الرجل أن ينكر على نفسه السعادة؛ وكنت سأنسحب لو كان سيسيلـ(ك) هذا شخصاً مختلفاً. ما كنت لأسمح لنفسي بالتدخل. ولكني رأيته أولاً في الناشنال غاليري، وذلك حين أجفل عندما أساء أبي لفظ أسماء الرسامين الكبار. ثم جلبنا هو إلى هنا، واكتشفنا أنه أراد أن يمارس حيلة سخيفة على جار كريم. هذا هو الرجل في مجمله: يمارس الحيل على الناس وعلى أكثر أشكال الحياة قدسية مما قد يجده أمامه. ثم، قابلتكما معاً، ووجدته يحميك ويعلّمك، وأمك تتلقى الصدمات، بينما كان عليك **أنت** أن تقرري: هل تصابين بالصدمة أم لا؟ هذا هو سيسيل مجدداً. إنه لا يجرؤ على السماح لامرأة بأن تتخذ قراراً. إنه النمط الذي أبقى أوربا متخلّفة ألف عام. في كل لحظة من حياته يقوم هو بتشكيلك، ويقول لك ما هو الفاتن أو المسلّي أو الجدير بالسيدات؛ ويقول لك ما يجده الرجل

لائقاً بالمرأة. وأنت، أنت بين كل النساء، تصغين إلى صوته بدلاً عن الإصغاء إلى صوتك أنت. هذا ما جرى في منزل القسيس، حين قابلتكما معاً مجدداً. لذلك... ليس أني (قبّلتك بالتالي) لأن الكتاب جعلني أفعل ذلك، وأتمنى فعلاً لو كنت أكثر قدرة على ضبط نفسي. لا أشعر بالخجل. ولا أعتذر. ولكن هذا أخافك، وربما لم تلاحظي أني أحبك. وإلا فهل كنت ستطلبين مني الرحيل، وتتعاملين مع أمر هائل الأهمية بكل هذه الخفة؟ ولكن لأنك... لذلك قررت أن أحاربه".

فكرت لوسي بملاحظة جيدة جداً.

"تقول إن السيد ڤايز يريد مني أن أصغي إليه يا سيد إمرسون. سامحني، لا أريد أن أقول إنك قد أصبت بعدوى هذه العادة".

وقد تناول هذا التأنيب الرديء وحوّله إلى خلود. قال:

"أجل لقد فعلت". ثم جلس وكأنه أصيب بالإرهاق فجأة. "أنا من الصنف نفسه من الرجال البهيميين في الأعماق. هذه الرغبة في التحكم بالمرأة ـ إنها تكمن في أعمق الأعماق، وعلى الرجال والنساء محاربتها معاً قبل دخول الجنة. ولكني أحبك حقاً ـ لا شك في أني أحبك على نحو أفضل منه". فكّر. "أجل ـ حقاً على نحو أفضل. أريد منك أن تكون لك أفكارك الخاصة بك حتى حين تكونين بين ذراعيّ". مدّ ذراعيه باتجاهها. "لوسي ـ أسرعي ـ لا وقت أمامنا للتحدث الآن ـ تعالي إليّ كما جئتِ في الربيع، وبعد ذلك سأكون لطيفاً وسأشرح كل شيء. لقد اهتممت بأمرك منذ أن قُتل ذلك الرجل. لا أستطيع العيش من دونك. لقد فكرت: (لا فائدة، هي ستتزوج من شخص آخر)، ولكن هاأنذا أقابلك مجدداً والعالم كله رائع، ماء وشمساً. حين رأيتك تعبرين الغابة، عرفت أنه لا شيء آخر يهمّ. ناديت عليك. أردتً أن أعيش وأن تتاح لي فرصة الفرح خاصتي".

قالت لوسي التي بقيت هادئة على نحو يستحق المديح: "وماذا عن السيد ڤايز؟ ألا يهم أمره هو أيضاً؟ ألا يهم أن أحب سيسيل وأني سأصبح زوجته قريباً؟ هل هذا تفصيل عديم الأهمية، على ما أفترض؟

ولكنه مدّ ذراعيه من فوق المائدة باتجاهها.

"هل لي أن أسأل ما الذي ستكسبه من هذا الاستعراض؟".

قال: "هذه هي فرصتنا الأخيرة. سأفعل كل ما بوسعي". وكأنه كان قد فعل أي شيء آخر، فقد التفت نحو الآنسة بارتلت التي كانت تجلس كمعجزة أمام سماء المساء. "لن تقفي في طريقنا هذه المرة لو فهمتِ ما قلته. لقد كنت في جهل مطبق وسأعود إليه، ما لم تحاولي أن تفهمي".

تحركت رأسها الطويلة والضيقة إلى الخلف ثم إلى الأمام، وكأنها تدمر كائناً غير مرئي. لم ترد عليه.

قال بهدوء وهو يرفع مضربه من على الأرض ويستعد للذهاب: "الأمر وما فيه أني في مقتبل العمر، وأني واثق من أن لوسي تهتم بأمري فعلاً. والمسألة وما فيها أن الحب والشباب يعنيان الكثير فكرياً".

راقبته المرأتان في صمت. كانت ملاحظته الأخيرة ـ كما كانتا تعرفان ـ مجرد لغو فارغ، ولكن هل سيفعلها أم لا؟ ألن يحاول هو ... الوغد والدجال أن يصنع نهاية أشد دراماتيكية؟

كلا، كان على ما يبدو قانعاً. غادرهما، وأغلق بعناية الباب الأمامي. وحين نظرتا عبر نافذة البهو، شاهدتاه يذهب إلى الدرب المؤدي إلى المنزل ثم وهو يبدأ بصعود المنحدرات التي تغطيها نباتات الخنشار الذاوية خلف المنزل. انطلق لساناهما، وانفجرتا في احتفال مختلس.

"أوه يا لوسيا ـ عودي إلى هنا ـ أوه، يا له من رجل رهيب"!

لم يبدر عن لوسي أي رد فعل... على الأقل ليس بعد. قالت: "حسناً، هو يتهمني. إما أنا مجنونة أو هو المجنون. وأنا أميل إلى الظن بأنه هو كذلك. هاهي عاصفة أخرى تمر بنا معاً يا شارلوت. شكراً جزيلاً. وأظن، على الرغم من ذلك، أنها آخر العواصف. لن يزعجني هذا المعجب بي مرة أخرى".

وراحت الآنسة بارتلت تحاول أيضاً لعب دور المرأة الخبيثة.

"حسناً، ليس بمقدور أي أحد أن يتفاخر بغزوته على هذا النحو يا أعز العزيزات، أليس كذلك؟ أوه، علينا ألا نضحك، حقاً. ربما يكون الأمر خطيراً جداً. ولكنك تصرفت بمنتهى العقلانية والشجاعة... على نحو لا يشبه إطلاقاً تصرفات الفتيات في أيامي".

"فلننزل وننضم إليهم".

ولكن، ما إن خرجت إلى الهواء الطلق، حتى توقفت. طغى انفعال ما عليها ـ أهو شفقة، رعب، حب؟ إلا أنه انفعال قوي ـ فأدركت أنه الخريف. كان الصيف يقارب على الانتهاء، وجلب لها المساء روائح العفونة، وهذا أمر أكثر مدعاة للحزن لأنه يذكّر بالربيع. هل يعني شيء ما أو آخر الكثير فكرياً؟ هاهي ورقة هزتها الريح بعنف ترقص مارة بها، بينما كانت أوراق أخرى مطروحة على الأرض دون حراك. هل كانت الأرض تسرع للدخول في العتمة، وهل ستزحف ظلال هذه الأشجار فوق ويندي كورنر؟

"هالو يا لوسي! لا يزال هناك نور كاف لمباراة أخرى، إذا أسرعت".

"لقد اضطر السيد إمرسون للرحيل".

"هذا أمر مزعج. لقد أفسد علينا لعبة الزوجي. أقول هيا العب معنا يا سيسيل، وكن شاباً طيباً. هذا آخر يوم لفلويد معنا. العب التنس معنا، هذه المرة فحسب.

وجاء صوت سيسيل: "عزيزي فريدي، لست بالشخص الرياضي. وكما لاحظت جيداً هذا الصباح بالذات. (هناك بعض الشبان لا يصلحون لأي شيء سوى الكتب)، وأنا أعترف بذنبي كوني من هذا النوع من الشبان، ولن أزعجكم كلاعب تنس".

هبطت كفة الميزان في عيني لوسي. كيف احتملت سيسيل ولو للحظة واحدة؟ لقد كان شخصاً لا يحتمل إطلاقاً، وفي المساء نفسه فسخت خطوبتها منه.

* * *

# الفصل [17]

## الكذب على سيسيل

أصيب بالذهول. لم يجد لديه ما يقوله. لم يشعر بالغضب حتى، بل وقف، وكأس من الويسكي بين يديه، محاولاً أن يفكر فيما جعلها تصل إلى هذا القرار.

لقد اختارت اللحظة التي تسبق الذهاب إلى السرير، حين وزعت كؤوس الشراب على الرجال حسب عادتهم البورجوازية، وهي تفعل ذلك دائماً. كان فريدي والسيد فلويد سيذهبان للنوم بالتأكيد وهما يحملان كأسيهما، بينما كان من عادة سيسيل التمهّل، فقد راح يرتشف الكأس بينما كانت هي تقفل البوفيه.

قالت: "أنا آسفة جداً بشأن ذلك، ولكني تأملت في الأمور بعناية. نحن مختلفان جداً. عليّ أن أطلب منك أن تعتقني من وعدي، وأن تحاول نسيان وجود تلك الفتاة الحمقاء نهائياً".

كان ذلك خطاباً مناسباً، ولكنها كانت غاضبة أكثر منها آسفة، وقد ظهر ذلك في صوتها.

"مختلفان... كيف... كيف...؟".

"أنا لم أتلقّ تعليماً جيداً بالفعل، وهذا أحد الأسباب". ثم استأنفت وهي ما تزال جاثية على ركبتيها قرب البوفيه: "لقد جاءت رحلتي الإيطالية متأخرة جداً، وأنا أنسى الآن كل ما تعلمتُه هناك. لن أتمكن أبداً من التحاور مع أصدقائك أو التصرف كما يليق بزوجتك".

"لا أفهم ما ترمين إليه. أنت لست على طبيعتك. أنت مرهقة يا لوسي".

"مرهقة"! هكذا ردت عليه بسرعة، واحتدم غضبها فوراً. "هكذا أنت بالضبط. فأنت تظن دائماً أن النساء لا يعنين ما يقلنه".

"حسناً، صوتك يوحي بالإرهاق، وكأن هناك شيئاً ما يقلقك".

"وماذا لو كان الأمر كذلك؟ هذا لن يمنعني من أن أدرك الحقيقة. لا أستطيع الزواج منك، وسوف تشكرني في يوم من الأيام لأني قلت هذا".

"لقد عانيتِ من ذلك الصداع الكريه البارحة... حسناً... فقد أطلقت صيحة سخط..". أرى أنه أكثر من مجرد صداع. ولكن امنحيني بعض الوقت". أغمض عينيه. "عليك أن تعذريني إن قلتُ أشياء حمقاء، ولكن دماغي قد انفجر. فجزء منه يعيش ما قبل ثلاث دقائق حين كنت متأكداً من أنك تحبينني، والجزء الآخر ـ أجد صعوبة في الأمر ـ أني قد أخطئ القول".

لقد راعها أنه لم يكن يتصرف على نحو رديء، مما زاد من غضبها. ومن جديد أرادت أن تكافح، وليس في أن تناقش. أرادت أن تتسبّب في أزمة. قالت:

"هناك أيام يرى فيها المرء بوضوح، وهذا يوم من تلك الأيام. لا بدّ أن تصل الأمور إلى نقطة الانهيار في وقت من الأوقات، وقد جرى ذلك في هذا اليوم. إن أردت أن تعرف، فإن شيئاً صغيراً جداً جعلني أقرر أن أتحدث إليك... حين رفضت أن تلعب التنس مع فريدي".

قال سيسيل بارتباك وألم: "أنا لا ألعب التنس إطلاقاً. لم أستطع لعب التنس قط. لا أفهم كلمة واحدة مما تقولينه".

"تستطيع أن تلعب بحيث تكمل لعبة الزوجي جيداً. لقد رأيت ما حدث على أنه تصرف أناني جداً منك".

"كلا، لا أستطيع... حسناً، لا تكترثي بالتنس. ولمَ لمْ تتمكني ... تتمكني من تحذيري لو شعرت أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام؟ لقد تحدثتِ عن زفافك على وجبة الغداء... على الأقل، لقد تركتني أتكلم".

قالت لوسي بنزق شديد: "عرفت أنك لن تفهم. ربما عرفتُ أنه ستكون هناك تلك التفاسير الرهيبة. طبعاً، ليس هو التنس... بل كان التنس هو القشة الأخيرة لكل ما كنت أشعر به منذ أسابيع. بالتأكيد كان من الأفضل ألا أتكلم حتى شعرت بأني واثقة". ثم طورت موقفها كما يلي: "في مرات كثيرة من قبل تساءلت إن كنتُ ملائمة لأكون زوجة لك... مثلاً في لندن، وهل أنت ملائم لتكون زوجاً لي؟ لا أظن ذلك. أنت لا تحب فريدي، ولا تحب أمي أيضاً. كان هناك على الدوام أمور كثيرة معاكسة لخطوبتنا يا سيسيل، ولكن جميع معارفنا بدوا مسرورين، وكنا نلتقي كثيراً، ولم يكن جيداً ذكر الأمر حتى... حسناً، حتى وصلت الأمور إلى نقطة معينة. وهي وصلت اليوم. أرى الآن بجلاء، عليّ أن أتكلم. وهذا كل ما في الأمر".

قال سيسيل بلطف: "لا أستطيع التفكير في أنك كنت على حق. لا استطيع أن أعرف السبب، ولكن على الرغم من أن كل ما تقولينه يبدو صحيحاً، إلا أني أشعر أنك لا تعاملينني بعدل. هذا كله رهيب جداً".

"ما الفائدة من الشجار؟".

"لا فائدة منه. ولكن يحق لي بكل تأكيد أن أسمع ولو بعض المزيد منه".

وضع كأسه على المائدة وفتح النافذة. استطاعت، من حيث كانت تجثو راكعة، وهي ترن بالمفاتيح، أن ترى شق ظلام؛ وحين حدقت إليه، وكأن هذا الشق من الظلام سيقول له "بعض المزيد منه"، رأت وجهه الطويل المتأمّل.

"لا تفتح النافذة، والأجدر بك أن تغلق الستائر أيضاً. ربما يكون فريدي أو أي شخص آخر في الخارج". امتثل لما قالته. "أعتقد حقاً أنه من الأفضل أن يؤوي كل منا إلى فراشه، إن لم يكن لديك مانع. فأنا لن أقول بعد الآن سوى أشياء ستجعلني تعيسة لاحقاً. وكما قلت أنت، فالأمر كله رهيب جداً، ولا جدوى من الكلام".

ولكنها راحت تبدو لسيسيل، الذي كان على وشك أن يخسرها الآن، وفي كل لحظة، أكثر جاذبية. كان ينظر إليها، وليس من خلالها، لأول مرة منذ خطوبتهما. ومن لوحة ليوناردو تحولت الآن إلى امرأة حية، لها ألغازها وقواها الخاصة بها، مع صفات كانت تراوغ الفن حتى. استعاد هو عقله بعد الصدمة، وفي انفجار من التفاني الحقيقي، صرخ: "ولكني أحبك، وكنت أظن أنك تحبينني"!

قالت: "لم أحببك. ظننت أني كذلك في البداية. أنا آسفة، وكان عليّ أن أرفضك في تلك المرة الأخيرة أيضاً".

بدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وبدأت هي تتحير أكثر فأكثر بسبب سلوكه الذي يستحق الاحترام. كانت قد اعتمدت على أنه سيتصرف بتفاهة. وكان من شأن ذلك أن يجعل الأمر أكثر سهولة عليها. وبسخرية مؤلمة راحت هي تستخرج كل ما هو أشد رهافة في سلوكه.

"أنت لا تحبينني، وهذا أمر جلي. وأجرؤ على القول إنه يحق لك ألا تحبيني. ولكن الأمر من شأنه أن يثبت أنه أقل إيلاماً لو عرفتُ السبب".

"السبب هو" ـ خطرت لها جملة فقبلتها ـ "أنك من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن يتعرف على الناس بحميمية".

بدت في عينيه نظرة تدلّ على الرعب.

"لا أعني ذلك بالضبط، ولكنك سوف تستجوبني على الرغم من أني أرجو حدوث ذلك. وعليّ أن أقول شيئاً ما. الأمر هو كذلك تقريباً. حين كنا مجرد شخصين متعارفين، كنت تتركني لأتصرف على هواي، ولكنك تقوم الآن بحمايتي على الدوام". ارتفعت نبرة صوتها. "لن أحتمل أن تتم حمايتي. سأختار لنفسي ما هو ملائم للسيدات وما هو صادق. حمايتي إهانة لي. ألا يمكن الثقة بي لأواجه الحقيقة، إنما عليّ أن أحصل عليها (مستعملةً) من خلالك؟" مكانة المرأة! أنت تحتقر أمي ـ أعرف أنك تحتقرها ـ لأنها تقليدية، وتتذمر فيما يخص البودينغ. ولكن أوه، يا للرب"! ـ نهضت على قدميها ـ لأنها تقليدية يا سيسيل، أنت التقليدي، فأنت قد تفهم الأشياء الجميلة، ولكنك لا تعرف كيف تستخدمها. وأنت تغطي نفسك بالفنون والكتب والموسيقى، وتحاول أن تغطيني. لن أقبل بأن أختنق، حتى ليس بأروع الموسيقى، فالناس أكثر روعة، وأنت تخفيهم عني. لذا أفسخ خطوبتي. كنتَ على ما يرام طالما كنتَ تتعامل مع الأشياء، أما عندما تعاملتَ مع الناس..". توقفت هنا عن الكلام.

ساد هدوء، ثم قال سيسيل بانفعال كبير:

"هذا صحيح".

"صحيح من كل النواحي"، هكذا صححت له كلامه، وقد امتلأت نفسها بخجل غامض.

"هذا صحيح في كل كلمة منه. هذا بوح. إنه...أنا".

"على أي حال، هذه هي أسباب عدم رغبتي في أن أكون زوجة لك".

ردّد: "(أنك من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن يتعرف على الناس بحميمية.) هذا صحيح. لقد فقدت تمالكي لنفسي منذ اليوم الأول لخطوبتنا. تصرفتُ كوغد مع السيد بيب ومع أخيك. أنت أعظم حتى

مما كنت أظنّه". تراجعت هي خطوة نحو الخلف. "لن أزعجك. أنت أفضل بكثير من أن تكوني لي. لن أنسى بصيرتك قطّ؛ ويا عزيزتي، أنا لا ألومك إلا على التالي: كان عليك أن تحذريني في مراحل مبكرة، قبل أن تشعري بأنك لن تتزوجي مني، وكان يمكن أن تمنحيني فرصة لأتحسّن. لم أعرفك أبداً حتى هذا المساء. لقد استخدمتك كمشجب لأفكاري الحمقاء المتعلقة بما يجب أن تكون عليه المرأة. ولكن في هذا المساء أنت شخص آخر مختلف: أفكار جديدة... وصوت جديد حتى..".

سألت وقد اعتراها غضب لا يمكن التحكم به: "ما الذي تعنيه بصوت جديد؟".

قال: "أعني أن شخصاً جديداً يبدو وكأنه يتكلم من خلالك".

عند ذلك فقدت توازنها. صرخت: "إن كنت تظن أني أحب شخصاً آخر، فأنت مخطئ إلى حد كبير".

"طبعاً. أنا لا أظن ذلك. لست من هذا الصنف من النساء يا لوسي".

"أوه، أجل، أنت تظن ذلك حقاً. إنها فكرتك القديمة، الفكرة التي أبقت أوربا متخلفة... أعني فكرة أن النساء يفكرن دائماً بالرجال. لو فسخت فتاة خطوبتها، سيقول الجميع: "(أوه، لديها شخص آخر في ذهنها: هي تأمل في الحصول على خطيب آخر). هذا مثير للاشمئزاز ووحشي! وكأنه لا يحق للفتاة أن تفسخ خطوبتها بناء على حريتها".

أجاب بوقار: "ربما قلت هذا الكلام في الماضي. لن أقوله مرة أخرى. لقد علمتِني ما هو أفضل منه".

بدأ وجهها يتضرج، وتظاهرت بأنها تتفحص النوافذ مجدداً.

"طبعــاً، لا مجــال لـــ(شـــخص آخــر) في هـــذا الأمــر، ولا لـ(نكث للعهد) أو أي حماقة تثير الغثيان من هذا النوع. وأنا أرجو بكل تواضع أن تغفري لي لو أوحت كلماتي بوجود مثل ذلـك. وكـل ما عنيته أن هناك قوة فيك لم أكن أعرفها حتى الآن".

"حسناً يا سيسيل. هذا يكفي. لا تعتذر لي. تلك كانت غلطتي أنا".

"إنها مسألة بين مثلين أعليين، مثلك ومثلي... مُثل عليـا مجـردة، ومُثلك أنت أنبل. لقد كنت عالقاً في الأفكار الشريرة العتيقـة، وكنـت أنت طـوال الوقـت رائعـة وجديـدة". انهـار صـوته. "علـيّ بالفعـل أن أشكرك على مـا فعلتهِ... لأنـك أريـتني مـن أنـا علـى حقـيقتي. وأنـا أشكرك بجدّ لأنك أريتِني امرأة حقيقية. هل لنا أن نتصافح؟".

قالت لوسي وهي تلف بيدها الأخرى الستائر: "طبعـاً سـأفعل. طابـت ليلتك يا سيسيل. وداعاً. هذا حسن. أنا آسفة. شكراً جزيلاً للطفك".

"هل تسمحين لي أن أشعل شمعتك؟".

دخلا إلى البهو.

"شكراً. ليلتك طيبة مجدداً. ليباركك الله يا لوسي"!

"وداعاً يا سيسيل".

راقبته وهو يتسلل صاعداً إلى الطابق العلـوي، بينمـا كانـت ظـلال الأعمدة فوق وجهها تبـدو كأجنحـة تخفـق. توقـف هـو عنـد فـسحة الدرج، قوياً في نكرانه للذات، ونظر إليها نظرة ذات جمال جدير بأن يُذكر. فعلى الرغم من ثقافته، كان سيسيل زاهداً في دخيلة نفسه. ولم يكن هناك شيء في حبه يليق به سوى هجره لذلك الحب.

لن تـستطيع الـزواج أبـداً. في اضـطراب روحهـا، كـان هـذا أمـراً راسخاً. كان سيسيل قد آمن بها. وعليها في يـوم مـن الأيـام أن تـؤمن

هي بنفسها. عليها أن تكون واحدة من النساء اللواتي أثنت عليهن بأسلوب بليغ جداً، اللواتي يحرصن على الحرية وليس على الرجال. عليها أن تنسى أن جورج يحبها، وأن جورج كان يفكر من خلالها وأنه أتاح لها أن تكسب هذا التحرر المشرِّف، وأن جورج قد ابتعد ودخل ـ فيما؟ ـ في الظلام.

أطفأت المصباح.

لم يكن من شأن قيامها بفعل أي شيء، ولا بشعورها بأي شيء، أن يكون مثمراً. تخلّت عن محاولة فهم نفسها، وانضمت إلى تلك الجحافل الكبيرة من الجهلة الذين لا يتّبعون ما تقوله قلوبهم ولا ما تقوله أدمغتهم، ويسيرون نحو مصائرهم بكلمات أشبه بالشعارات، والجيوش مليئة بأشخاص لطيفين وورعين، ولكنهم قد استسلموا إلى العدو الوحيد الذي يهم ـ العدو الداخلي. لقد أثموا ضد العاصفة وضد الحقيقة، وسيكون نضالهم من أجل الفضيلة عبثاً. ومع مرور السنين، يتم لومهم وانتقادهم. تبدأ الشقوق بالظهور على لطفهم وورعهم، ويصبح ظُرفهم سخرية، وغيريّتهم نفاقاً. وهم يشعرون بالانزعاج ويتسببون به أينما حلّوا. لقد أثموا ضد "إيروس" وضد "بالاس أثينا"، وهذان الإلهان المتحدان سيتم أخذ الثأر لهما ليس بتدخل من السماء ولكن بالمسار العادي للطبيعة.

انضمت لوسي إلى هذا الجيش حين ادعت أمام جورج بأنها لا تحبه، وادعت أمام سيسيل بأنها لا تحب أحداً. استقبلها الليل، كما سبق له واستقبل الآنسة بارتلت قبل ثلاثين عاماً.

* * *

الفصل [18]

# الكذب على السيد بيب وعلى السيدة هنيتشيرتش وفريدي والخادمات

لم يكن ويندي كورنر واقعاً على قمة جبل، بل كان على أسفل منحدر جنوبي، عمقه بضع مئات من الأقدام، وذلك عند انبثاق الأكتاف العظيمة التي تدعم الجبل. على كلا جانبيه، كان واد ضحل مليء بنباتات الخنشار وأشجار الصنوبر، وفي أسفل الوادي على الجهة اليسرى كان يمر الطريق العام المؤدي إلى "ويلد".

كلما كان السيد بيب يعبر متن الجبل، ويلمح هذه السمات النبيلة للأرض، وقد تموضع في وسطها ويندي كورنر... كان ينتابه الضحك. فالموقع رائع جداً، والمنزل مألوف وعادي إلى حد كبير، هذا إن لم نقل إنه لا علاقة له بالمكان. كان السيد هنيتشيرتش المتوفي قد تدبر الأمر بحيث جعله أفضل ملاءمة لما معه من نقود، والإضافة الوحيدة التي قامت بها أرملته، كانت بريجاً صغيراً له شكل قرن وحيد القرن، بحيث تستطيع الجلوس في الطقس الماطر ومراقبة العربات وهي تصعد الطريق وتهبط منه. لم يكن للمنزل أي علاقة بالمكان وإلى حد كبير ...ومع ذلك فإنه "لاءم المكان" كونه بيت أشخاص أحبوا محيطه بصدق. كانت المنازل الأخرى في الحيّ قد شيّدت بفن عمارة مكلف، وكان سكانها يتململون باستمرار من الآخرين، إنما كان هذا كله يوحي بما هو عرضيّ، بما هو مؤقّت؛ بينما بدا ويندي كورنر وكأنه شيء محتوم شأن شيء قبيح خلقته الطبيعة نفسها. ويمكن للمرء أن يضحك على هذا المنزل، ولكنه لن يرتعد منه.

كان السيد بيب يقود دراجته خلال عصر يوم الاثنين هذا وقد تزود بمادة صغيرة للحوار. كانت الآنستان آلان قد راسلتاه. وهاتان السيدتان المثيرتان للإعجاب، وبما أنهما لم تتمكنا من استئجار فيلا سيسي، إلا أنهما غيرتا خططهما. كانت تنويان الذهاب إلى اليونان بدلاً عن ذلك.

كتبت الآنسة كاثرين: "بما أن فلورنسه أفادت شقيقتي المسكينة إلى حد كبير، فإننا لا نرى ما يمنع مشاهدة أثينا في هذا الشتاء. بالطبع أثينا مغامرة خطرة، وقد أمر الطبيب شقيقتي بتناول خبز خاص يساعد على الهضم. إلا أننا نستطيع، على أي حال، أن نأخذ هذا الخبز معنا. ونحن سنركب الباخرة أولاً، ثم نستقل القطار. ولكن هل هناك كنيسة إنكليزية هناك؟" ثم أضافت الرسالة: "لا أتوقع أن نزور سوى أثينا، ولكن لو أنك تعرف بنسيوناً مريحاً بالفعل في القسطنطينية، فسوف نكون ممتنتين لك".

لا بدّ أن لوسي ستستمتع بقراءة هذه الرسالة، والابتسامة التي حيّا بها السيد بيب ويندي كورنر كانت من أجل لوسي إلى حدّ ما. سترى فيها روح المرح وبعض الجمال، فهي لا بدّ أن ترى بعض الجمال. وعلى الرغم من أنه كان ميئوساً منها من حيث اللوحات الفنية، وأنها كانت ترتدي ملابس على نحو متفاوت الجودة ـ أوه، يا لذلك الثوب القرنفلي اللون الذي ارتدته البارحة في الكنيسة ـ إلا أن عليها أن ترى جمالاً ما في الحياة، أو أنها ما كانت ستتمكن من العزف على البيانو كما تفعل عادة. كانت لديه نظرية مفادها أن الموسيقيين معقدون إلى حد لا يصدق، ويعرفون على نحو أقل بكثير من الفنانين الآخرين ما يريدونه وما هم عليه؛ وأنهم يحيرون أنفسهم وأصدقاءهم أيضاً؛ وأن تركيبهم النفساني عبارة عن تطور معاصر لم يتم فهمه بعد. وهذه

النظرية لو أنه عرفها من قبل، ربما كانت ستتضح بالحقائق. ومع جهله بأحداث يوم أمس، فقد كان يزور المنزل لتناول بعض الشاي، وليرى ابنة شقيقه، ويلاحظ ما إذا كانت الآنسة هنيتشيرتش سترى أي شيء جميل في رغبة سيدتين عجوزين بزيارة أثينا.

كانت هناك عربة متوقفة خارج ويندي كورنر، وحين لمح هو المنزل فقد انطلقت العربة وقطعت الدرب القصير المؤدي إلى المنزل، ثم توقفت فجأة حين وصلت إلى الطريق العام. لذلك لا بد أنه الحصان، الذي كان يتوقع دائماً أن يصادف أشخاصاً يصعدون الجبل في حال أنهم أرهقوه. فُتح الباب بإذعان، وبرز منه رجلان ميّزهما السيد بيب على أنهما سيسيل وفريدي. كان أمراً مستغرباً وجودهما معاً في عربة واحدة، ولكنه شاهد صندوق ثياب قرب ساقي الحوذي. كان سيسيل يرتدي قبعة رسمية فلا بد أنه راحل، بينما كان فريدي الذي يرتدي قلنسوة، سيرافقه إلى محطة القطار على ما يبدو. سارا بسرعة، وراحا يمشيان وهما يقطعان الدروب المختصرة، ثم وصلا إلى القمة حيث كانت العربة ما تزال تتابع تعرجات الطريق.

تصافحا مع القسيس، ولكنهما لم يتكلما.

سأل: "إذاً أنت راحل لفترة قصيرة يا سيد ڤايز؟".

قال سيسيل: "أجل"، بينما تنحى فريدي قليلاً.

"كنت قادماً لأريك هذه الرسالة الممتعة من تينك الصديقتين، أعني صديقتي الآنسة هنيتشيرتش. ثم ذكر بعض محتوياتها. "أليست رائعة؟ أليست رومانسية؟" لا شك أنهما ستذهبان إلى القسطنطينية. إنهما واقعتان في شرك لا يمكن أن يخيب آمالهما. وسوف ينتهي بهما الأمر بالدوران من حول العالم".

أصغى سيسيل بتهذيب، ثم قال إنه متأكد من ان لوسي ستسرّ بالرسالة وتجدها مسلية.

"أليس الرومانس قُلَّباً! أنا لا ألاحظه فيكم أيها الشبان أبداً. أنتم لا تفعلون شيئاً سوى لعب التنس على المرجة؛ وتقولون إن الرومانس قد مات، بينما الآنستان آلان تناضلان بكل أسلحة اللباقة ضد الشيء الرهيب. (بنسيون مريح بالفعل في القسطنطينية!) هكذا تسميان الأمر بنوع من الاحتشام، ولكنهما في قلبيهما تريدان بنسيوناً ذا نوافذ سحرية تنفتح على رغوة بحار خطرة في بلاد الجن المهجورة! لن ترضي أي إطلالة عادية الآنستين آلان. إنهما تريدان بنسيون الشاعر كيتس.

قال فريدي: "آسف جداً لمقاطعتك، ولكن هل معك عود كبريت؟".

قال سيسيل: "أنا معي". إلا أنه لم يفت على السيد بيب أن سيسيل تحدث إلى الفتى بأسلوب أكثر لطفاً من المعتاد.

"أنت لم تقابل هاتين الآنستين آلان، هل فعلت يا سيد ڤايز؟".

"ليس على الإطلاق".

"إذاً، فأنت لن ترى روعة هذه الزيارة الإغريقية. لم أزر اليونان يوماً، ولا أنوي زيارتها، ولا أستطيع تصور أي من أصدقائي يزورها. إنها بكل ما في الكلمة من معنى أكبر بكثير من قدرنا الصغير. ألا ترى معي ذلك؟ إيطاليا حجمها بقدر ما نستطيع نحن تدبره. إيطاليا بطولية، ولكن اليونان أشبه بالآلهة أو الشيطان ـ لست متأكداً أي واحد منهما ـ وهي في كلتا الحالين خارج تركيزنا نحن سكان الضواحي إلى حد مطلق. حسناً يا فريدي ـ لستُ ذكياً وأنا واثق من ذلك ـ ولكني أخذت هذه الفكرة من شخص آخر. هيا أعطني عيدان الكبريت حين تنتهي منها". أشعل لفافة تبغ، واستأنف كلامه مع الشابين. "كنت أقول إنه لو كان لحيوات الكوكني المسكينة الصغيرة

خلفية ما، فلتكن تلك إيطالية. إنها كبيرة بما فيه الكفاية في كل ضمير. إن سقف مصلى السيستين هو لأجلي. هناك يكون التباين بقدر ما أستطيع تمييزه. ولكن ليس البارثنيون، وليس إفريز فيدياس بأي حال من الأحوال: وهنا تأتي الفيكتوريا".

قال سيسيل: "أنت على حق تماماً. اليونان ليست لقدرنا الصغير". وصعد إلى العربة. لحق به فريدي، وهو يومئ برأسه للقسيس الذي كان يؤمن بأنه لم يكن يسخر منه. وقبل أن يقطعا مسافة اثنتي عشرة ياردة، فقز فريدي خارجاًمن العربة ليستعيد علبة الكبريت للسيد ڤايز والتي لم تكن قد أعيدت له. وحين أخذها قال: "أنا سعيد جداً أنك تحدثت عن الكتب فقط. سيسيل في حالة صعبة جداً لأن لوسي لن تتزوج منه. لو كنت ستتحدث عنها كما تحدثت عن الكتب، لكان سينهار".

"ولكن متى...؟".

"الليلة الماضية في وقت متأخر. عليّ أن أذهب".

"ربما هنّ لا يردنني هناك".

"كلا... تابع. وداعاً".

قال السيد بيب لنفسه: "الحمد لله"، ثم ضرب سرج دراجته علامة الموافقة. "كانت تلك هي الحماقة الوحيدة التي سبق لها وفعلتها. أوه، يا له من خلاص رائع"! وبعد تأمل قصير، هبط المنحدر باتجاه ويندي كورنر، بقلب سعيد. عاد المنزل من جديد كما يجب أن يكون... منقطعاً إلى الأبد عن عالم سيسيل الذي يسوده الغرور والادعاء.

سيجد الآنسة ميني في الحديقة.

في غرفة الاستقبال كانت لوسي تعزف سوناتا لموتسارت. تردد للحظة، ثم ذهب إلى الحديقة حسب الطلب. وقد وجد هناك رفقة حزينة. كان يوماً عاصفاً، وقد كسرت الريح شجرة الدهلية. كانت السيدة هنيتشيرتش التي بدت غاضبة، تحاول أن تربط الشجرة، بينما راحت الآنسة بارتلت التي ارتدت ملابس غير ملائمة، تعيقها بعروض المساعدة. على مسافة قصيرة منهما وقفت ميني و"طفل الحديقة"، شيء صغير مستورد كان كل منهما يمسك بإحدى طرفي قطعة قماش طويلة.

"أوه، كيف حالك يا سيد بيب؟ يا إلهي، يا لهذه الفوضى! انظر إلى أزهار الكنفوشة القرمزية خاصتي، وهذه الريح التي تعصف بالتنانير، والأرض قاسية جداً حتى أن العمود لن يخترقها، ثم هاهي العربة قد خرجت وأنا التي كنت أتكل على (باوِل) الذي يعرف كيف يربط الدهلية جيداً، هذا إذا أعطينا كل امرئ حقه".

لا شك أن السيدة هنيتشيرتش كانت في حالة معنوية سيئة.

قالت الآنسة بارتلت بنظرة ذات مغزى، وكأنها تعبّر عما هو أكثر من الدهلية التي تكسرت بسبب رياح الخريف: "كيف حالك؟".

صاحت السيدة هنيتشيرتش: "هيا يا ليني، أعطني تلك القطعة من القماش". وقف طفل الحديقة الذي لم يكن يعرف ما هو القماش في الممر وقد تجمد من الرعب. انسلّت ميني إلى عمها وهمست بأن الجميع كانوا سيئي المزاج اليوم، وأنها لم تكن غلطتها أن فروع الدهلية تتمزق طولياً وليس عرضياً.

قال لها: "تعالي لتتمشي معي. لقد سببت لهم الإزعاج بقدر ما يستطيعون تحمله. يا سيدة هنيتشيرتش، لقد مررت بكنّ دون هدف. سأصطحبها لتناول الشاي في (مقهى بيهايف) لو سمحت لي".

"أوه، هل عليك فعل ذلك؟ أجل... افعل ذلك... ليس المقصّ، شكراً يا شارلوت، حين تكون يداي قد سبق لهما وامتلأتا... أنا واثقة تماماً من أن الصبار البرتقالي سيذبل قبل أن أصل إليه".

دعا السيد بيب، الذي كان خبيراً في تلطيف الأوضاع الصعبة، الآنسة بارتلت لترافقهما في تلك الاحتفالية اللطيفة.

"أجل يا شارلوت، لا أريد منك أي شيء... هيا اذهبي. لا يوجد ما يدعوك للتوقف لا في المنزل ولا في الخارج".

قالت الآنسة بارتلت إن واجبها يدعوها إلى أن تكون في حوض الدهلية. ولكنها بعد أن أغضبت الجميع برفضها، التفتت وأغضبت ميني بالقبول. وحين ساروا عبر الحديقة، سقط الصبار البرتقالي، وكانت آخر صورة رآها السيد بيب هي لطفل الحديقة وهو يعانقها كعاشق، ورأسه الداكنة اللون وقد دفنت في وفرة من البراعم.

علّق قائلاً: "هذا رهيب، هذا الدمار للأزهار".

"الأمر دائماً رهيب حين يكون وعد الشهور قد تدمر في لحظة واحدة"، هكذا أعلنت الآنسة بارتلت.

"ربما علينا أن نجعل الآنسة هنيتشيرتش تهبط إلى هنا لتكون مع أمها. أو هل ستأتي معنا؟"

"أعتقد أنه من الأفضل أن نترك لوسي لشؤونها ومساعيها".

همست ميني: "إنهم غاضبون من الآنسة هنيتشيرتش لأنها تأخرت عن الحضور إلى وجبة الفطور في الوقت الملائم، وقد رحل السيد ڤايز ورفض فريدي أن يلعب معي. في الحقيقة يا عم آرثر، المنزل ليس كما كان البارحة **إطلاقاً**".

قال عمها آرثر: "لا تكوني متصلفة. اذهبي وارتدي حذاءك".

دخل إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت لوسي تواصل باهتمام عزف سوناتات موتسارت. توقفت عن العزف حين دخل.

"كيف حالك؟ ستصطحبني الآنسة بارتلت وميني لتناول الشاي في مقهى بيهايف. هل تودين الانضمام إلينا؟"

"لا أعتقد أني سأفعل. شكراً".

"كلا، لم أفترض أنك ستهتمين بذلك كثيراً".

التفتت لوسي إلى البيانو وضربت بعض النغمات.

"لكم هي رقيقة هذه السوناتات"! هذا ما قاله السيد بيب، على الرغم من أنه كان، في أعماق قلبه، يظنها أشياء صغيرة تافهة.

انتقلت لوسي إلى شومان.

"يا آنسة هنيتشيرتش"!

"نعم".

"لقد قابلتهما عند التلة. أبلغني أخوك بما جرى".

"أوه، هل فعل حقاً؟" بدت منزعجة. شعر السيد بيب أنها جرحت مشاعره، فقد كان يظن أنها ودّت لو يعلم.

"لا حاجة إلى القول إني لن أخبر أحداً آخر".

قالت لوسي: "أمي، شارلوت، سيسيل، فريدي وأنت"، وهي تضرب البيانو عند ذكر كل اسم كان يعرف بما جرى، ثم ضربت البيانو للمرة السادسة.

"لو تسمحين لي أن أقول ما أريده، فسأكون سعيداً جداً، وأنا على ثقة من أنك فعلت الشيء الصحيح".

"هذا ما أملت من الآخرين أن يعتقدوه، ولكنه لا يبدو أنهم كذلك".

"أرى أن الآنسة بارتلت تعتبره قراراً غير حكيم".

"وأمي أيضاً. إنها تعترض على ذلك إلى حد رهيب".

"أنا آسف جداً لهذا"، هذا ما قاله السيد بيب بحرارة.

كانت السيدة هنيتشيرتش التي تكره كل التغييرات تعترض على الوضع فعلاً، ولكن ليس بالقدر الذي تنبأت به ابنتها، ومؤقتاً فحسب. كانت تلك حيلة من لوسي في الواقع لتبرير قنوطها، وهي حيلة لم تكن هي نفسها واعية بها، فقد كانت تسير عبر جحافل الظلام.

"كما أن فريدي يعترض أيضاً".

"ومع ذلك، فإن فريدي لا يتفق كثيراً مع السيد ڤايز، أليس كذلك؟ لقد لاحظت أنه لم يعجب بالخطوبة، وشعر أنها قد تبعده عنك".

"الفتيان غريبون جداً".

كان ممكناً سماع ميني وهي تجادل الآنسة بارتلت عبر الطابق نفسه.

كان الشاي في مقهى بيهايڤ يتضمن على ما يبدو تبديلاً كاملاً في الملابس. لاحظ السيد بيب أن لوسي ـ على نحو ملائم جداً ـ لم تكن راغبة في أن تناقش ما فعلته، لذلك وبعد تعبير صادق عن التعاطف، قال: "لقد استلمتُ رسالة عجيبة من الآنسة آلان. هذا هو بالفعل ما جلبني إلى منزلكم. ظننت أنها قد تسلّيكم جميعاً".

قالت لوسي بصوت فاتر: "لكم هذا ممتع"!

وحتى يفعل شيئاً ما، بدأ بتلاوة الرسالة عليها. وبعد كلمات قليلة، بدأت عيناها تبدوان متنبهتين، وسرعان ما قاطعته قائلة: "ستسافران إلى خارج البلاد؟ متى ستنطلقان؟".

"في الأسبوع القادم".

"هل قال فريدي إن كان سيعود مباشرة؟".

"كلا، لم يذكر ذلك".

"لأني آمل أنه لن يذهب وينشر الإشاعات".

لم تكن هي راغبة في التحدث حول خطوبتها المفسوخة. وبما أنه كان لطيفاً على الدوام، فقد وضع الرسالة في جيبه. ولكنها صاحت على الفور: "أوه، احك لي المزيد عن الآنستين آلان! لكم هو رائع جداً منهما أن تسافرا إلى خارج البلاد"!

"أريدهما أن تبدأا من البندقية، ثم تركبان باخرة شحن إلى الشاطئ الإليري".

ضحكت من كل قلبها. "أوه، ممتع! أتمنى لو تصطحبانني معهما".

"هل ملأتك إيطاليا بحمى السفر؟ ربما يكون جورج إمرسون على حق. فهو يقول إن (إيطاليا مجرد أسلوب منمق لعبارة القدَر)".

"أوه، ليس إيطاليا، وإنما القسطنطينية. لقد تقت دوماً إلى السفر إلى القسطنطينية، فهي عملياً آسيوية، أليس كذلك؟".

ذكّرها السيد بيب بأن القسطنطينية كانت بعيدة عن الاحتمال، وأن الآنستين آلان تهدفان فقط إلى الوصول حتى أثينا، وربما حتى دلفي، إن كانت الطرق آمنة. ولكن هذا لم يغير كثيراً من حماستها. لقد تاقت دوماً إلى الذهاب إلى اليونان، على ما يبدو، وإلى حد أكبر. لقد لاحظ مندهشاً أنها كانت جدية على نحو واضح.

"لم أدرك أنك ما تزالين صديقة للآنستين آلان على الرغم من حكاية ڤيلا سيسي".

"أوه، تلك لم تكن شيئاً هاماً. أؤكد لك أن ڤيلا سيسي لا تعنيني إطلاقاً. وأنا مستعدة لإعطاء أي شيء مقابل أن أسافر معهما".

"وهل يمكن لأمك أن تستغني عنك بهذه السرعة؟ فأنت لم تعودي إلى الوطن إلا منذ ثلاثة أشهر".

قالت لوسي وقد ازدادت حماستها: "**عليها** أن تستغني عني! **عليّ** فعلاً أن ارحل. أنا مضطرة إلى ذلك". مررت أصابعها خلال شعرها على نحو هستيريّ. "ألا ترى أني **مضطرة** إلى الرحيل؟ لم أدرك ذلك في حينه... والآن بالطبع أنا أريد أن أرى القسطنطينية على وجه الخصوص".

"أتعنين أنك بسبب فسخك لخطوبتك، فأنت تشعرين...".

"أجل، أجل. لقد عرفت أنك ستفهم ذلك".

لم يفهم السيد بيب تماماً. لم لا تستريح الآنسة هنيتشيرتش في حضن أسرتها؟ لقد سلك سيسيل سلوكاً محترماً على ما يبدو، ولن يزعجها بعد الآن. ثم خطر له أن أسرتها نفسها قد تكون مصدر إزعاج لها. ألمح لها إلى ذلك، وقبلت هي تلميحه بتوق.

"أجل، طبعاً الذهاب إلى القسطنطينية ريثما يعتادون على الفكرة، ثم سيكون كل شيء قد هدأ".

قال برقة: "أخشى أن هذه المسألة كلها مثيرة للقلق".

"كلا، ليس على الإطلاق. لقد تصرف سيسيل بلطف كبير حقاً. ولكن من الأفضل أن أقول لك الحقيقة كلها، بما أنك لم تسمع سوى القليل... الأمر وما فيه أنه كان مستبداً. وجدت أنه ما كان سيترك لي المجال لأتصرف حسب هواي. كان سيحسّنني في أمور لا يمكنني التحسّن فيها. ما كان سيسيل ليترك امرأة تتخذ قراراتها بنفسها... وفي الواقع، ما كان ليجرؤ على فعل ذلك. ما هذا الهراء الذي أقوله! ولكن هكذا هي الأمور".

"إنه نتيجة لما فهمته من خلال مراقبتي للسيد فايز؛ ونتيجة لما فهمته من خلال معرفتي بك، فأنا أتعاطف وأتفق معك بكل عمق. أوافق إلى حد كبير على أن عليك أن تسمحي لي بانتقاد صغير واحد: هل يستحق الأمر أن تندفعي بالذهاب إلى اليونان؟".

صرخت: "ولكن عليّ أن اذهب إلى مكان ما! لقد كنت في حالة من القلق طوال الصباح، وهاهو الأمر نفسه يعود إليّ". ضربت ركبتيها بقبضتي يديها وكررت: "عليّ فعل ذلك! والوقت الذي سأقضيه مع أمي، وكل النقود التي أنفقتْها عليّ في الربيع الماضي. أنتم جميعاً تقدرونني إلى حد كبير جداً. وأتمنى لو لم تكونوا لطيفين إلى هذا الحد". في هذه اللحظة دخلت الآنسة بارتلت فزادت عصبية لوسي. "عليّ أن ابتعد إلى مكان قصي جداً. عليّ أن أقرر وأعرف إلى أين سأذهب". قال السيد بيب: "هيا بنا إلى الشاي، الشاي، الشاي"، وأخرج ضيفتيه من الباب الأمامي. وقد جعلهما تحثان الخطو إلى حدّ أنه نسي قبعته. حين عاد لإحضارها سمع صوت عزف سوناتا لموتسارت، فشعر براحة ودهشة.

قال للآنسة بارتلت: "إنها تعزف مجدداً".

كان الجواب اللاذع: "إنها تستطيع العزف دائماً".

"لا يسع المرء سوى أن يكون ممتناً كونها تتمتع بهذا النوع من التسلية. إنها قلقة جداً وهذا جليّ، وهو أمر لا بدّ منه. أعرف المسألة كلها. كان الزواج وشيكاً جداً حتى أن الصراع كان قاسياً قبل أن تستطيع أن تقرر النطق بمكنون قلبها".

تلوّت الآنسة بارتلت نوعاً ما، واستعدّ هو لإجراء نقاش. لم يسبق له أن سبر غور الآنسة بارتلت. وكما سبق له وفكر في فلورنسه، "ربما ستكشف هي فيما بعد عن أعماق من الغرابة، إن لم يكن من المغزى". ولكنها كانت غير متعاطفة إلى حد لا يمكن معه أن تكون جديرة بالثقة. لقد افترض هذا الافتراض ولم يكن ليتردد في مناقشة مسألة لوسي معها. كانت ميني لحسن الحظ تجمع زهور الخنشار.

افتتحت النقاش قائلة: "الأفضل أن نترك المسألة وشأنها".

"أتساءل وأتعجب".

"من المهم جداً ألا يكون هناك قيل وقال في شارع سمر. سيكون أمراً مميتاً أن تسري الإشاعات حول التخلص من السيد فايز في الوقت الحاضر".

رفع السيد بيب حاجبيه. الموت كلمة قوية ... قوية جداً بكل تأكيد. لم تكن مسألة تراجيدية. قال: "طبعاً، فالآنسة هنيتشيرتش ستعمم الأمر بأسلوبها الخاص، ومتى اختارت ذلك. لقد أخبرني فريدي وذلك لأنه يعرف أنها لن تبالي لو عرفت أنا بالأمر".

قالت الآنسة بارتلت بتهذيب: "أعرف ذلك، ولكن لم يكن على فريدي أن يخبر أحداً ولا حتى أنت. لا يمكن للمرء أن يكون شديد الحرص".

"هذا صحيح تماماً".

"ألتمس منك السرية المطلقة؛ فكلمة بالصدفة تقال لصديق ثرثار، و..".

"بالضبط". كان معتاداً على مثل أولئك العذراوات العجائز العصبيات والأهمية المبالغ بها التي يولينها للكلام. فالقسيس يعيش ضمن شبكة من الأسرار الصغيرة والخصوصيات والتحذيرات، وكلما كان أكثر حكمة، كلما كان اهتمامه بها أقل، ومن دأبه أن يغيّر الموضوع، كما فعل الآن السيد بيب، إذ قال بأسلوب مرح: "هل وصلتك مؤخراً أنباء عن جماعة بنسيون برتوليني؟ أعتقد أنك تراسلين الآنسة لاڤيش. إنه لأمر غريب كيف أننا، نحن الذين التقينا في ذلك البنسيون، ما نزال نتلاقى في هذه الحياة. اثنان بل ثلاثة بل أربعة بل ستة منا... كلا بل ثمانية منا. لقد نسيت آل إمرسون... قد بقينا على اتصال تقريباً. علينا بالفعل أن نقدم للسنيورة برتوليني هدية تقدير".

ولأن الآنسة بارتلت لم تعجب بالخطة، فقد صعدوا الجبل في صمت لم يكسره سوى القسيس وهو يذكر اسم نوع من الخنشار. توقفوا على القمة. كانت السماء أكثر اضطراباً الآن عما كانت عليه قبل ساعة حين وقف هناك، مما أعطى الأرض عظمة تراجيدية نادرة في مقاطعة "سَري". كانت غيوم رمادية تمرّ عبر صفائح من النسيج الأبيض كانت تمتد وتتقطع وتتمزق ببطء، حتى ومض عبر طبقاتها شيء من اللون الأزرق المتلاشي. هاهو الصيف يتقهقر. زمجرت الريح وأنّت الأشجار، ومع ذلك فإن الضجيج بدا غير كاف لتلك العمليات الجارية في السماء. كان الطقس متقلباً، آخذاً بالتقلب وبالتناثر، وكان هناك حسّ بالأمر الملائم وليس بما فوق الطبيعي يزوّد مثل هذه الأزمات المفاجئة برشقات من المدفعية الملائكية. استقرت عينا السيد بيب على ويندي كورنر حيث كانت لوسي تجلس وهي تتمرن على عزف مقطوعات لموتسارت. لم تبتسم شفتاه، فغيّر الموضوع مجدداً، وقال: "لن تمطر، ولكنها ستعتم. لذا هيا بنا نسرع. كان الظلام في الليلة الماضية رهيباً".

وصلوا إلى مقهى بيهايف حوالي الساعة الخامسة. كان لهذا النزل الأنيس شرفة يحب أن يجلس فيها الشبان وعديمي الحكمة، بينما كان الزبائن من أصحاب السن الأنضج يفضلون الغرفة التي أرضها أكثر تغطية بالرمل، ويتناولون فيها الشاي براحة وهم جالسون إلى منضدة. لاحظ السيد بيب أن الآنسة بارتلت ستصاب بالبرد لو جلست في الشرفة، وأن ميني ستصاب بالملل لو جلست في الداخل، لذلك اقترح حلاً وسطاً، سيناولان الطفلة طعامها عبر النافذة. وهكذا سيتمكن بالصدفة من مناقشة مصير لوسي.

قال: "لقد كنت أفكر في هذا الموضوع يا آنسة بارتلت، وما لم يكن لديك الكثير من الاعتراض، فإني أود أن أعيد فتح ذلك للنقاش". أومأت برأسها".لا شيء يتعلق بالماضي. أعرف القليل ولا أهتم كثيراً بذلك. أنا متأكد تماماً من أن ما جرى هو لصالح قريبتك. لقد تصرفت بنبل وعلى النحو الصحيح، ونحن نقدرها تقديراً عالياً بسبب تواضعها اللطيف. ولكن ماذا عن المستقبل؟ لنتكلم بجدية: ما رأيك في خطتها للسفر إلى اليونان؟" ثم أخرج الرسالة مجدداً. "لا أعرف إن كنت قد سمعت بذلك، ولكنها تريد الانضمام إلى الآنستين آلان في مغامرتهما المجنونة. وهذا كله ـ لا أستطيع أن أشرح ذلك ـ خطأ".

قرأت الآنسة بارتلت الرسالة في صمت، ثم وضعتها على المنضدة وبدت مترددة. ثم قرأتها مرة أخرى.

"أنا شخصياً لم أفهم المغزى من سفرها"!

ولدهشته، أجابت قائلة: "لا استطيع الاتفاق معك في هذه الناحية. فأنا أرى فيها خلاصاً للوسي".

"حقاً، ولماذا؟".

"لأنها تريد أن تغادر ويندي كورنر".

"أعرف ـ ولكن الأمر يبدو غريباً جداً ولا يتلاءم مع طبعها ـ لذلك كنت أقول إنه تصرف أناني".

"من الطبيعي بكل تأكيد ـ بعد تلك المشاهد المؤلمة ـ أن ترغب في حصول تغيير ما".

هنا اتضح موقف من تلك المواقف التي تفوت على الذكاء الذكوري عادة. صاح السيد بيب: "هذا ما تقوله هي، وبما أن سيدة أخرى تتفق معها في هذا الرأي، فعليّ أن أقتنع بذلك جزئياً. ربما

يجب عليها أن تعرف تغييراً ما. ليست لديّ شقيقات أو... أنا لا أفهم مثل هذه الأمور. ولكن لمَ عليها أن تذهب بعيداً حتى اليونان؟".

أجابت الآنسة بارتلت التي كانت مهتمة بالموضوع على نحو واضح، وكادت تنسى أسلوبها المراوغ: "يمكنك فعلاً أن تطرح هذا السؤال. لماذا اليونان؟ (ما الذي تريدينه يا ميني العزيزة، المربّى؟) لم لا تذهب إلى تنبريدج ويلز؟ أوه يا سيد بيب! لقد أجريت حواراً طويلاً وغير مرضٍ مع لوسي العزيزة هذا الصباح. لا أستطيع مساعدتها. لن أقول المزيد. ربما سبق لي وقلت ما هو أكثر من اللازم. ليس عليّ أن أتكلم عن أمر تجده هي مريراً تقريباً. ليس عليّ أن أتكلم. لقد طلبت منها أن تنفق ستة أشهر معي في تنبريدج ويلز ورفضت".

نخز السيد بيب كسرة خبز بسكينه.

"ولكن مشاعري ليست ذات أهمية. أعرف جيداً أني أُقلق أعصاب لوسي. كانت سياحتنا معاً فاشلة. لقد أرادت أن تغادر فلورنسه، وحين وصلنا إلى روما لم تكن تريد البقاء هناك، وشعرت طوال الوقت أني كنت أنفق نقود أمها..".

قاطعها السيد بيب قائلاً: "فلنبق في موضوع المستقبل. أريد نصيحتك".

قالت شارلوت بفجائية مختنقة كانت جديدة عليه، إلا أنها مألوفة عند لوسي: "أنا من جهتي سأساعدها على الذهاب إلى اليونان. هل ستفعل أنت ذلك؟".

راح السيد بيب يفكر.

استأنفت هي الكلام وهي تخفض خمارها وتهمس عبره بانفعال وبحدة أدهشتاه: "هذا ضروري إلى حد مطلق. أنا أعرف. أنا **أعرف**". كان الظلام قد بدأ يخيّم، وشعر أن هذه المرأة غريبة الأطوار تعرف حقاً.

"ليس عليها أن تتوقف هنا ولو لبرهة واحدة، وعلينا أن نبقى صامتين حتى ترحل. أثق أن الخادمات لا يعرفن شيئاً. وفيما بعد... ولكن يبدو أنه سبق لي وقلت الكثير جداً. ولكن لوسي وأنا لا حيلة لنا وحدنا بمواجهة السيدة هنيتشيرتش. لو ساعدتنا فقد ننجح، وإلا...".

"وإلا...؟".

كررت كلمة: "وإلا"، وكأنها كانت تعني الفعل النهائي".

"أجل، سأساعدها"، هذا ما قاله القسيس وهو يطبق على فكّه بقوة. "هيا بنا، فلنعد أدراجنا الآن، ولنجد حلاً لهذه المسألة كلها".

انفجرت الآنسة بارتلت بفيض من الامتنان. كانت لافتة المقهى ـ وهي عبارة عن خلية نحل مزينة بالنحل ـ تصدر صريراً بفعل الريح في الخارج، خلال شكرها له. لم يفهم السيد بيب الوضع تماماً؛ ولكنه لم يكن يرغب في فهمه آنئذ، ولا في أن يقفز إلى استنتاج بوجود "رجل آخر"، وهو الأمر الذي كان من شأنه أن يجذب اهتمام ذهن أكثر فظاظة. ولكنه شعر فحسب أن الآنسة بارتلت كانت على علم بتأثير غامض ما يتوجب تخليص الفتاة منه، ويمكن إلباسه جسداً. كان غموضه بالذات هو الذي حثّه على التصرف بروح الفروسية. كان إيمانه بالتبتّل المتحفظ جداً والمخفي جيداً تحت تسامحه وثقافته، قد برز إلى السطح الآن، وتفتح كزهرة رقيقة. "من يتزوجون يفعلون خيراً، ولكن من يحجمون عن ذلك هم الأفضل". هكذا كان اعتقاده، وهو لم يسبق له أن سمع أن خطوبة قد فُسخت إلا وانتابه شعور لطيف بالسرور. في حالة لوسي، كان الشعور قد تعزز عبر كرهه لسيسيل. وكان هو ينوي أن يفعل المزيد ـ أن يضعها بعيداً عن الخطر حتى تستطيع أن تؤكد قرارها بأن تبقى على عذريتها. كان الشعور رقيقاً جداً وغير حازم بالضبط، وهو لم يكشف عنه إلى أي شخص آخر ضمن هذه المجموعة. ولكنه كان موجوداً، وهذا

يفسر وحده عمله بالتالي، وتأثيره على تصرف الآخرين. كان الاتفاق الذي أبرمه مع الآنسة بارتلت في المقهى لا يهدف إلى مساعدة لوسي فحسب، بل ونصرة لدِينه أيضاً.

أسرعوا بالسير نحو المنزل عبر عالم من اللونين الأسود والرمادي، وقد راح هو يتحدث عن مواضيع غير ذات أهمية: حاجة آل إمرسون إلى مدبرة منزل، الخادمات، الخادمات الإيطاليات، الروايات حول إيطاليا، الروايات ذات الهدف، هل يمكن للأدب أن يؤثر على الحياة؟ كانت ويندي كورنر مومضة. في الحديقة كانت السيدة هنيتشيرتش، بمساعدة فريدي الآن، ما تزال تتصارع مع حياة أزهارها.

قالت بلهجة يائسة: "لقد خيّم الظلام. وهذه نتيجة التأجيل. لقد كان علينا أن نعرف أن الطقس سيسوء عاجلاً. والآن هاهي لوسي تريد السفر إلى اليونان. لا أعرف كيف ستنتهي إليه الحال في هذا العالم".

قال: "يا سيدة هنيتشيرتش، يجب أن تسافر إلى اليونان. هيا بنا ندخل إلى المنزل ونناقش الموضوع. هل تمانعين أولاً في فسخها لخطوبتها من السيد ڤايز؟".

"يا سيد بيب، أنا ممتنة... ممتنة بكل بساطة".

قال فريدي: "وأنا أيضاً".

"حسناً، والآن هيا بنا إلى المنزل".

اجتمعوا في غرفة الطعام لنصف ساعة. ما كانت لوسي لتشنّ خطة اليونان وحدها. فقد كانت الرحلة مكلفة ودراماتيكية... وهما صفتان تكرههما أمها. كما لم تكن شارلوت لتنجح في الأمر. لقد وقعت المهمة على عاتق السيد بيب. فهو بلباقته وحسّه السليم وتأثيره كرجل دين ـ فلرجل الدين الذي لا يتصف بالحماقة تأثير كبير على السيدة هنيتشيرتش ـ استطاع هو أن يقنعها.

قالت: "لا أرى السبب في أن رحلة اليونان ضرورية. ولكن بما أنك تراها كذلك، فأنا أفترض أنه لا بأس بها. لا بدّ وأنها شيء لا أفهمه. يا لوسي! فلنخبرها. يا لوسي"!

قال السيد بيب: "إنها تعزف على البيانو". فتح الباب وسمع كلمات أغنية:

**"لا تنظر أنت إلى سحر الجمال".**

"لم أكن أدري أن الآنسة هنيتشيرتش تغنّي أيضاً".

**"اجلس هادئاً حين يتسلّح الملوك،**

**ولا تتذوق حين يلتمع قدح النبيذ"**

"إنها أغنية أعطاها سيسيل إياها. لكم هن الفتيات غريبات الأطوار".

"ما الأمر؟" قالت لوسي وهي تتوقف عن الغناء.

قالت السيدة هنيتشيرتش بلطف: "حسناً يا عزيزتي". دخلت إلى غرفة الاستقبال، وسمعها السيد بيب تقبّل لوسي وتقول: "أنا آسفة. كنت أعارض بقوة موضوع اليونان، ولكنه جاء ليزيد من أزمة أزهار الدهلية".

قال صوت قاس إلى حد ما: "شكراً يا أمي. الأمر لا أهمية له على الإطلاق".

"أنت على حق أيضاً... ستكون اليونان مفيدة لك. يمكنك تذهبي إن وافقت الآنستان آلان على اصطحابك".

"أوه، رائع! أوه، شكراً"!

لحق السيد بيب بهم. كانت لوسي ما تزال جالسة إلى البيانو ويداها فوق المفاتيح. كانت سعيدة، ولكنه توقع سعادة أكبر.

انحنت أمها فوقها. أما فريدي الذي كان يغنّي، فاستلقى على الأرض وأحنى رأسه على لوسي، وغليون مطفأ بين شفتيه. ومن العجيب أن هذه المجموعة بدت جميلة. أما السيد بيب الذي يحب فنون الماضي فقد تذكر موضوعاً مفضلاً لديه: "سانتا كونفرساسيونه"[1] التي صُوِّر فيها أشخاص يهتمون بأمور بعضهم البعض، وهم يتحدثون معاً حول أمور نبيلة ـ وهذه موضوعة لا هي بالحسية ولا بالمثيرة، وبالتالي يتم تجاهلها من قبل فناني هذه الأيام. لماذا تريد لوسي إما أن تتزوج أو أن تسافر وهي التي لديها مثل هؤلاء الأصدقاء في بيتها؟

**"لا تتذوق حين يلتمع قدح النبيذ،**

**لا تتكلم حين يصغي الناس".**



هكذا استأنفت الغناء.

"هاهو السيد بيب".

"يعرف السيد بيب تصرفاتي الوقحة".

قال: "إنها أغنية جميلة وحكيمة. تابعي".

قالت بقلق: "ليست جيدة جداً. أنا أنسى السبب في ذلك... ربما الإيقاع أو شيء ما آخر".

"أشك في أنه تنقصها المعرفة. إنها جميلة جداً".

قال فريدي: "اللحن صحيح بما فيه الكفاية، ولكن الكلمات فاسدة. لم الاعتراف بالهزيمة؟".

---

(1) طراز من اللوحات الفنية كان دارجاً في عصر النهضة ويمثل عادة صورة العذراء وابنها ومجموعة من القديسين. المترجم.

قالت شقيقته: "لكم تتكلم بحماقة"! توقفت عن غناء "سانتا كونفرساسيونه". وعلى أي حال، لم يكن هناك سبب يجعل لوسي تتحدث عن اليونان أو تشكره على إقناع أمها، لذا ودّعهم السيد بيب.

أشعل فريدي مصباح دراجته من أجل السيد بيب في الرواق، وبلباقته المعهودة في الحديث قال: "كان هذا يوماً ونصف يوم".

**"امنع أذنك عن الاستماع إلى المغنّي..".**

"انتظر لحظة. إنها تنهي الأغنية".

**"عن الذهب الأحمر أبعدْ أصبعك،**

**قلب ويد وعين فارغة**

**عشْ بيسر ومتْ بهدوء".**

قال فريدي: "أحب مثل هذا الطقس".

خرج السيد بيب إليه.

كانت الحقيقتان الرئيسيتان واضحتين. لقد تصرفت على نحو رائع، وهو قد ساندها. لم يستطع أن يتوقع التضلّع في تفاصيل مثل هذا التغيير الكبير في حياة الفتاة. لو كان قد شعر بعدم الرضا أو الحيرة هنا أو هناك، فعليه أن يذعن: كانت تختار الآن الجزء الأفضل من الأغنية:

**"قلب ويد وعين فارغة..".**

ربما عبّرت الأغنية عن "الجزء الأفضل" بقوة أكبر من اللازم. تصوّر نصف تصور أن المرافقة المحوّمة - التي لم يفقدها في صرخة الرياح - تتفق مع فريدي، وكان ينتقد بلطف الكلمات التي زيّنتها:

قلب ويد وعين فارغة

عشْ بيسر ومتْ بهدوء".

وعلى أي حال، وللمرة الرابعة، كان ويندي كورنر يقبع متوازناً إلى الأسفل ... منارة في التيارات الهادرة للعتمة.

* * *

# الفصل [19]

## الكذب على السيد إمرسون

تم إيجاد الآنستين آلان في فندقهما المحبوب الذي يمنع فيه تناول المشروبات الروحية قرب بلومزبري... منشأة نظيفة عديمة التهوية تتلقى رعاية كبيرة من قبل الريف الإنكليزي. وكانتا تجثمان هناك دائماً قبل عبورهما للبحار العظيمة؛ ولفترة أسبوع أو اثنين، كانتا تتململان بوداعة فيما يخص الملابس وكتب الدليل السياحي والخرق المربعة المضادة للماء والخبز السهل على الهضم والحاجات الأخرى الضرورية في القارة الأوربية. ولم يكن يخطر لهما إطلاقاً وجود دكاكين هناك خارج البلاد، بل وحتى في أثينا، فقد كانتا تعتبران السفر كنوع من الحروب، ولا يمكن أن تخاض إلا من قبل من يتسلح بالكامل لها من مخزن "هايماركت ستورز". كما كانتا على ثقة من أن الآنسة هنيتشيرتش ستقوم بتجهيز نفسها بما هو ضروري وواجب. كان ممكناً الآن الحصول على الكينين بشكل أقراص، كما كان الصابون الورقي يساعد كثيراً على إنعاش الوجه في القطار. وصلت لوسي حسب الموعد، ولكنها كانت كئيبة بعض الشيء.

"ولكن بالطبع أنت تعرفين كل شيء عن هذه الأمور، ولديك السيد ڤايز ليساعدك. والجنتلمان نصير وفيّ إلى حد كبير.

بدأت السيدة هنيتشيرتش التي وصلت إلى البلدة مع ابنتها بالضرب بعصبية على محفظتها.

استأنفت الآنسة كاثرين الكلام فقالت: "نعتقد أن هذا التصرف من السيد ڤايز بأن يستغني عن حضورك إلى جانبه طوال هذه الفترة على أنه تصرف جيد جداً. لا يتمتع كل الشبان بمثل هذه الغيرية. ولكن ربما سيسافر هو ليلحق بك".

قالت الآنسة تيريزا، وهي الأكثر حدة والأقل لطفاً بين الأختين: "أو هل يجعله العمل يبقى في لندن؟".

"على أي حال سنراه حين يأتي ليودعك. أتوق كثيراً إلى رؤيته".

قاطعتهما السيدة هنيتشيرتش قائلة: "لن يودع لوسي أحد. هي لا تحب هذه الأمور".

قالت لوسي: "كلا، أكره الوداع".

"حقاً؟ لكم هذا مضحك؟ كنت سأظن أنه في مثل هذه الحالة..".

أوه يا سيدة هنيتشيرتش، لن ترحلي. لقد سررنا كثيراً بلقائك"!

لقد نجتا، وقالت لوسي بارتياح: "هذا حسن، لقد نجونا هذه المرة".

ولكن أمها كانت منزعجة. "سوف يُقال يا عزيزتي إني لست متعاطفة. ولكني لا أرى السبب في أنك لم تخبري صديقتيك عن سيسيل وتضعين حداً للأمر. سيكون علينا طوال الوقت أن نجلس في حالة مبارزة، وأن نروي الأكاذيب تقريباً، وأن نكشف أنفسنا، وهذا أمر كريه في رأيي".

كان لدى لوسي الكثير لتقوله رداً على هذا. وصفت شخصيتي الآنستين آلان على أنهما ثرثارتان، ولو أخبرتهما، فسوف ينتشر النبأ في كل مكان في أقصر وقت.

"ولم لا ينتشر في كل مكان وفي أقصر وقت؟".

"لأني اتفقت مع سيسيل على عدم الإعلان عنه حتى أغادر إنكلترا. عندها سأقول لهما. وهذا أمر أكثر مدعاة للسرور. لكم هو الجو ماطر! فلندخل إلى هنا".

كان "هنا" هو "المتحف البريطاني". رفضت السيدة هنيتشيرتش. لو كان عليهما أن تحتميا من المطر، فليكن ذلك في دكان. شعرت لوسي بالازدراء، فقد كانت تتابع الاهتمام بالنحت الإغريقي، وقد سبق لها واستعارت قاموساً عن الأساطير من السيد بيب، وذلك لتتعرف على أسماء الإلهات والآلهة.

"أوه، حسناً، فليكن في دكان إذاً. هيا بنا نذهب إلى محلات موديز. سأشتري دليل سياحة.

"تعرفين يا لوسي أنك وشارلوت والسيد بيب تقولون إني شديدة الغباء، لذا أفترض أني كذلك، ولكني لن أفهم قط هذا العمل السري والغامض. لقد تخلصتِ من سيسيل... حسناً فعلتِ وأنا ممتنة لأنه رحل عنا، على الرغم من أني أشعر بالغضب في هذه اللحظة. ولكن لم لا نعلن الأمر؟ لماذا هذا السكوت والمشي على رؤوس أصابع القدمين؟".

"سيدوم هذا أياماً قليلة فحسب".

"ولكن لماذا تفعلين هذا أصلاً؟".

صمتت لوسي. كانت تبتعد عن أمها. وكان من السهل القول: "لأن جورج إمرسون كان يضايقني، ولو سمع بأني تخليت عن سيسيل، فقد يبدأ مجدداً بمضايقتي"... أمر سهل تماماً، وله المزية العرضية بأنه حقيقي. ولكنها ما كانت قادرة على قول ذلك. كانت تكره الأسرار، فهي قد تؤدي إلى معرفة الذات، وإلى ملك الأشياء المرعبة: النور. منذ ذلك المساء في فلورنسه كانت تعتبر أنه من غير الحكمة أن تكشف عن روحها الحقيقية.

كانت السيدة هنيتشيرتش صامتة أيضاً. كانت تفكر: "ابنتي لن تجيبني على أسئلتي. إنها تفضل أن تكون مع تينك الآنستين العجوزين الفضوليتين على أن تكون مع فريدي ومعي. ينفع معها أن ترافق أي أشخاص من أدنى طبقة لو أنها تستطيع فحسب أن تغادر البيت". وبما أنه من عادتها ألا تبقي أفكارها لنفسها لمدة طويلة، فقد انفجرت قائلة: "لقد زهقتِ من ويندي كورنر".

كان هذا صحيحاً تماماً. كانت لوسي قد أملت في العودة إلى ويندي كورنر حين هربت من سيسيل، ولكنها اكتشفت أن بيتها لم يعد موجوداً. ربما هو موجود بالنسبة إلى فريدي الذي ما يزال يعيش فيه، ويفكر باستقامة، ولكنه لم يعد كذلك للشخص الذي ضلّ عقله. لم تقرّ بأن عقلها قد ضلّ، فعلى العقل نفسه أن يساعد في هذا الإقرار، وهي التي كانت تشوش وسائل الحياة ذاتها. كانت تشعر فحسب: "أنا لا أحب جورج. لقد فسخت خطوبتي لأني لا أحب جورج. عليّ أن أذهب إلى اليونان لأني لا أحب جورج. إن البحث عن أسماء الآلهة في القاموس أهم من مساعدتي لأمي. الآخرون كلهم يتصرفون على نحو رديء جداً". كانت تشعر بالغضب وبالنكد فحسب، وكان متوقعاً منها أن تفعل ما لا تريد فعله؛ وبهذه الروح بدأت بالحوار.

"أوه يا أمي، أي هذر هذا الذي تقولينه! بالطبع أنا لم أزهق من ويندي كورنر".

"إذاً لم لا تقولين ذلك على الفور، بدلاً عن التفكير فيه لنصف ساعة؟".

أطلقت ضحكة خفيفة: "نصف **دقيقة** أقرب إلى الصحة".

"ربما تودين الابتعاد عن بيتك نهائياً؟".

"صمتاً يا أمي! ربما يسمعك الناس؟" فقد كانتا قد دخلتا إلى محلات موديز. اشترت دليل بايدكر، ثم استأنفت قائلة: "بالطبع أود أن أكون بعيدة في المستقبل أكثر مما جرى حتى الآن. أنت تعرفين أني سأنال إرثي في العام القادم".

هطلت الدموع من عيني أمها.

قررت لوسي، بدافع من الحيرة المجهولة الاسم، والتي يسميها الأشخاص الأكبر سناً اصطلاحاً بـ "غرابة الأطوار"، أن توضح هذه المسألة. "لقد شاهدت القليل جداً من هذا العالم... لقد شعرت في إيطاليا بالغربة. أنا لم أر سوى القليل من الحياة. على المرء أن يأتي أكثر لزيارة لندن - ليس للمرور بها ببطاقة ركوب رخيصة كما حدث اليوم - بل ليقيم فيها. وقد أتشارك مع فتاة أخرى في استئجار شقة لفترة قصيرة.

انفجرت السيدة هنيتشيرتش قائلة: "وتختلطين مع ضاربات الآلة الكاتبة ومفاتيح السقّاطات، ثم تنفعلين وتصرخين وتُحملين من قبل رجال الشرطة وأنت ترفسين. وسوف تسمّينها (مهمة) حين لا يريدك أحدك! وتسمينها (واجباً) حين تعني أنك لا تستطيعين تحمل العيش في بيتك! وتسمينها (عملاً) بينما آلاف الرجال يجوّعون بسبب المنافسة على العمل! ثم تحضّرين نفسك، وتجدين سيدتين عجوزين راعشتين لتسافري معهما".

قالت لوسي بضعف: "أريد المزيد من الاستقلال". كانت تعرف أنها تريد شيئاً ما، والاستقلال صرخة مفيدة: نستطيع أن نقول دائماً إننا لم ننله. حاولت أن تتذكر عواطفها في فلورنسه: كانت تلك صادقة وحارة. وقد أوحت بالجمال وليس على الأصح بالتنانير القصيرة ومفاتيح السقاطات. ولكن الاستقلال كان بالتأكيد كلمة الإيعاز بالنسبة إليها.

"حسناً، خذي استقلالك وارحلي. دوري من حول العالم بسرعة وعودي نحيلة كمخرطة بسبب الطعام الرديء. احتقري البيت الذي شيّده والدك والحديقة التي زرعها، وإطلالتنا العزيزة على المنظر الطبيعي... شاركي فتاة في شقة".

لوت لوسي فمها وقالت: "ربما تسرعتُ في الكلام".

"آه، يا إلهي"! هكذا سارعت أمها إلى القول. لكم تذكرينني بشارلوت بارتلت"!

"سارعت لوسي إلى القول: "شارلوت؟" وقد اخترقها ألم حاد.

"أكثر فأكثر في كل لحظة".

"لا أعرف ما الذي تعنينه يا أمي: شارلوت وأنا لا نشبه بعضنا البعض إطلاقاً".

"حسناً، أنا أرى التشابه. إنه القلق الأبدي نفسه، والرجوع عن الكلام نفسه. أنت وشارلوت كنتما تحاولان تقسيم تفاحتين على ثلاثة أشخاص في الليلة الماضية، فكنتما أشبه بأختين".

"ما هذا الهراء! إن كنت لا تحبين شارلوت إلى هذا الحدّ، فإنه لأمر مثير للشفقة أنك طلبت أن تستضيفيها. لقد حذّرتك منها، ورجوتك وتوسلت إليك، ولكنك لم تصغي إليّ طبعاً".

"هذا ما أنت عليه".

"أرجو عفوك؟".

"إنها شارلوت مرة أخرى يا عزيزتي. هذا كل ما في الأمر. هذه كلماتها بالضبط".

أطبقت لوسي أسنانها. "وجهة نظري أنه ما كان عليك أن تستضيفي شارلوت. أتمنى ألا تخرجي عن الموضوع". ثم توقف الحوار في خصام.

تسوقت هي وأمها في صمت، وتكلمتا قليلاً في القطار [عائدتين إلى بيتهما]، ثم قليلاً مرة أخرى في العربة التي قابلتهما في محطة دوركينغ. كان المطر قد هطل طوال اليوم، وحين صعدت بهما عبر الطرق العميقة الوحل لـ "سَري"، كان وابل من الماء يتساقط من أشجار الزان التي تدلت أغصانها من فوق الطرق وراحت تضرب غطاء العربة. تذمّرت لوسي من أن الغطاء كان يخنق الأنفاس. انحنت إلى الأمام ونظرت إلى الغسق الذي كان يبث بخاراً، وراقبت مصباح العربة وهو يمر كنورٍ كشاف فوق الوحل وأوراق الشجر، ولا يكشف عن أي شيء جميلٍ. قالت: "سيكون الزحام حين ستنضم إلينا شارلوت رهيباً". فقد كان عليهما أن تقلا الآنسة بارتلت من شارع سمر، حيث كانت قد هبطت من العربة هناك لزيارة الأم العجوز للسيد بيب. "سنضطر إلى الجلوس ثلاثتنا على مقعد واحد، لأن الأشجار تنقط الماء، ومع ذلك ليس هناك مطر يهطل. آه! لكم أتمنى القليل من الهواء"! ثم أصغت إلى حوافر الحصان... "لم يخبر أباه... لم يخبر أباه..". ذلك اللحن كان قد تشوه بسبب الماء الذي أغرق الطريق. قالت: "ألا يمكن أن ننزل الغطاء؟" وقالت أمها برقة مفاجئة: "حسناً أيتها السيدة العجوز. أوقف الحصان". وتوقف الحصان، وصارعت لوسي ومعها "باوِل" مع الغطاء، ثم حدث أن انسلّ الماء إلى عنق السيدة هنيتشيرتش. ولكن مع إنزال الغطاء، كانت لوسي قادرة على رؤية شيء ما كان من شأنه أن يفوتها... لم يكن هناك أنوار في ڤيلا سيسي، وتصورت أنها رأت قفلاً على بوابة الحديقة.

صاحت: "هل سيؤجر هذا المنزل مجدداً؟".

أجاب: "نعم يا آنسة".

"هل رحلا ؟".

وكان الجواب: "لقد وجد الجنتلمان الشاب أن المكان بعيد جداً عن المدينة، كما أن الروماتيزم الذي يعاني منه أبوه قد عاوده، لذلك فلن يتمكن الأب من البقاء وحيداً، وبالتالي فهما يحاولان تأجيره مفروشاً".

"لقد رحلا إذاً؟".

"أجل يا آنسة، لقد رحلا".

غرقت لوسي في كرسيها. توقفت العربة عند منزل القسيس. خرجت لتنادي على الآنسة بارتلت. إذاً فقد رحل السيدان إمرسون، وكل هذا القلق حول اليونان لم يكن ضرورياً. ضياع! كانت هذه الكلمة تبدو وكأنها تلخص مجموع الحياة. خطط مضيّعة، نقود مضيعة، حب مضيع، كما أنها سببت جرحاً لأمها. هل كان ممكناً أنها قد لخبطت الأمور كلها إلى حد الضياع؟ ممكن تماماً. لقد فعل هذا أشخاص آخرون. حين فتحت الخادمة الباب، لم تكن لوسي قادرة على الكلام، وحدقت بغباء إلى البهو.

تقدمت الآنسة بارتلت فوراً، وبعد تمهيد طويل، طلبت منّة عظيمة: هل يمكن لها أن تذهب إلى الكنيسة؟ لقد سبق للسيد بيب وأمه أن ذهبا إلى هناك، ولكنها رفضت الشروع في ذلك قبل أن تحصل على موافقة كاملة من مضيفتها، لأن ذلك يعني إبقاء الحصان منتظراً لعشرة دقائق إضافية. قالت المضيفة بضجر: "بكل تأكيد. لقد نسيت أن اليوم هو الجمعة. فلنذهب جميعاً. يمكن لپاوِل أن يذهب إلى الإسطبل.

"لوسي يا أعز العزيزات..".

"لن أذهب إلى الكنيسة. شكراً".

تنهيدة، ثم غادرن. كانت الكنيسة غير مرئية، ولكن في الظلام وإلى اليسار كان هناك تلميح إلى لون ما. كان ذلك عبارة عن نافذة بزجاج معشّق، ومن خلالها كان نور ضعيف ما مومضاً، وحين فُتح الباب، سمعت لوسي صوت السيد بيب يسري عبر ابتهال إلى جماعة صغيرة جداً من المصلّين. حتى كنيستهم التي شُيّدت فوق منحدر الجبل على نحو بديع جداً، بجناحها الجميل السامق وبرجها ذي السقف الفضي... حتى كنيستهم تلك فقدت سحرها. والشيء الذي لا يتكلم المرء عنه قط - الدِّين - فقد كان يتلاشى شأن جميع الأشياء الأخرى.

تبعت الخادمة إلى داخل منزل القسيس.

هل تعترض على الجلوس في مكتب السيد بيب؟ فهو المكان الوحيد الذي يحوي ناراً موقدة.

لم تعترض.

كان هناك شخص ما مسبقاً في المكتب، فقد سمعت لوسي عبارة "سيدة تريد الانتظار يا سيدي".

كان السيد إمرسون العجوز جالساً قرب النار، وإحدى قدميه مرفوعة على المسند الخاص بمرضى النقرس.

"أوه، الآنسة هنيتشيرتش، من أنا مسرور بمجيئك"! وتهدج صوته، ورأت لوسي تغييراً فيه منذ يوم الأحد الماضي.

لم تستطع أن تتلفظ ولو بكلمة واحدة. كانت قد واجهت جورج، وهي مستعدة لمواجهته مجدداً، ولكنها نسيت كيف تتعامل مع أبيه.

" يا آنسة هنيتشيرتش، يا عزيزتي، نحن آسفان! جورج آسف جداً! لقد ظن أنه من حقه أن يحاول. لا أستطيع لوم فتاي، ومع ذلك أتمنى لو أنه أخبرني أولاً. ما كان عليه أن يحاول. لم أكن أعرف أي شيء عن الموضوع إطلاقاً".

لو أنها تستطيع أن تتذكر كيف عليها أن تتصرف!

رفع يده. "ولكن ليس عليك أن تقرّعيه".

أدارت لوسي ظهرها وبدأت تنظر إلى كتب السيد بيب.

تهدج صوته قائلاً: "لقد علمتُه أن يثق بالحب. قلت له:(حين يأتي الحب فهذه هي الحقيقة.) قلتُ: (العاطفة لا تعمي. كلا. العاطفة هي سلامة العقل، والمرأة التي تحبها هي الشخص الوحيد الذي ستفهمه فعلاً على الإطلاق)". تنهد: "هذا صحيح، صحيح إلى الأبد، على الرغم من أن أيامي قد ولّت، وعلى الرغم من أن هذه هي النتيجة. يا للفتى المسكين! إنه آسف جداً! قال إنه يعرف أن ذلك كان جنوناً حين أدخلتِ ابنة عم أمك إلى الغرفة، وأنه مهما كان شعورك فلم تكوني تعنين ما فعلته. ومع ذلك" ـ عاد صوته ليصبح أقوى. تكلم بصوت أعلى ليؤكد على ما سيقوله ـ "يا آنسة هنيتشيرتش، هل تتذكرين إيطاليا؟".

اختارت لوسي كتاباً، مجلّداً من مجلدات تفاسير "العهد القديم". وبينما رفعته إلى عينيها، قالت: "ليست لديّ أي رغبة في مناقشة إيطاليا أو أي موضوع يتعلق بابنك".

"ولكن هل تتذكرينها؟".

"لقد أساء التصرف منذ البداية".

"ولكن لم أعلم بأنه أحبك إلا في يوم الأحد الماضي. لم أستطع قط أن أحكم على السلوك. أنا ... أنا... أعتقد أنه يستطيع ذلك".

عندما شعرت أنها أكثر قدرة على التحكم بنفسها، أعادت الكتاب إلى مكانه والتفتت إليه. كان وجهه قانطاً ووارماً، إلا أن عينيه وعلى الرغم من أنهما كانتا غائرتين، إلا أنهما راحتا تلتمعان بشجاعة طفولية.

قالت: "عجباً، لقد تصرف على نحو كريه. أنا سعيدة أنه آسف. هل تعرف ما فعله؟".

"ليس (على نحو كريه)"، هكذا كان التصحيح المهذب. "لقد حاول فحسب حين لم يكن عليه أن يفعل. لديك كل ما تريدينه يا آنسة هنيتشريتش: ستتزوجين من الرجل الذي تحبين. لا تخرجي من حياة جورج وأنت تقولين إنه كريه".

قالت لوسي وقد شعرت بالخجل من ذكر سيسيل: "كلا، طبعاً". (كريه) مبالغ فيها جداً. آسفة لأني استخدمتها في حق ابنك. أعتقد أني سأذهب إلى الكنيسة على أي حال. لقد ذهبت أمي وابنة عمها. ليس عليّ أن أتأخر كثيراً..".

قال بهدوء: "خاصة وأنه في حالة معنوية سيئة".

"ما الذي تعنيه؟".

"إنه في حالة معنوية سيئة بالطبع". ثم ضرب كفيه الواحد بالآخر في صمت، وأدلى برأسه على صدره.

"لم أفهم".

"كما جرى لأمه".

"ولكن يا سيد إمرسون ـ **يا سيد إمرسون** ـ ما الذي تتحدث عنه؟".

قال: "حدث ذلك حين رفضتُ تعميد جورج".

شعرت لوسي بالخوف.

"وقد وافقت أمه على أن العماد ليس بالشيء الهام، ولكنه أصيب بتلك الحمى وهو في سن الثانية عشرة، فغيّرت رأيها. لقد ظنت أن مرضه كان قضاء إلهياً". ارتجف بدنه. "أوه، كان ذلك أمراً رهيباً، حين تخلينا عن ذلك النوع من الممارسات وكان خصاماً مع والديها. أوه،

كان ذلك أمراً رهيباً ـ وما كان أسوأ من كل شيء آخر ـ أسوأ من الموت، حين يتمكن المرء من صنع أرض مراح ضمن الدغل، ويزرع حديقته الصغيرة، ويتيح لنور الشمس خاصته بالتغلغل، ثم تتسلل الأعشاب الضارة في المكان مجدداً! قضاء إلهي! وقد أصيب ابننا بالتفوئيد لأنه لم يتم رشه بالماء من قبل رجل دين في الكنيسة!هل هذا ممكن يا آنسة هنيتشيرتش؟ هل نعود لننزلق في الظلام مرة أخرى؟".

شهقت لوسي قائلة: "لا أعرف. لا أفهم في مثل هذه الأمور. لم يسبق أن فهمت مثل هذه الأمور".

"ولكن السيد إيغر... لقد جاء إليها وأنا غائب عن المنزل، وتصرف حسب مبادئه. لا ألومه أو ألوم أي شخص... ولكن حين تعافى جورج مرضت هي. لقد جعلها السيد إيغر تفكر في الخطيئة، وقد انهارت معنوياتها وهي تفكر في ذلك".

إذاً، هكذا قتل السيد إمرسون زوجته تحت أنظار الرب.

قالت لوسي وهي تنسى همومها أخيراً: "أوه، لكم هذا رهيب"!

قال الرجل العجوز: "لم يتم تعميده. لقد تمسكت بموقفي". ثم نظر بعينين ثابتتين إلى صفوف الكتب، وكأنه قد كسب ـ بأي ثمن كان ـ نصراً عليهم. "سيعود ابني إلى التراب دون أن يُمس بماء العماد".

سألت إن كان السيد إمرسون الشاب مريضاً.

"أوه... يوم الأحد الماضي". بدأ بما يجري حالياً. "يوم الأحد الماضي كان جورج ... كلا، ليس مريضاً: بل كان مغلوباً على أمره. إنه لا يمرض أبداً. ولكنه ابن أمّه، وعيناه هما عيناها، وكان لها ذلك الجبين الذي أظن أنه جميل جداً، وهو لا يظن الآن أن الحياة تستحق أن تُعاش بعد الآن. لقد كان الأمر غير أكيد على الدوام. سيعيش؛

ولكنه لن يفكر في أن الحياة تستحق أن تُعاش. لن يظن أن أي شيء له أهمية. أتتذكرين تلك الكنيسة في فلورنسه؟".

إنها تتذكر جيداً، وكيف أنها اقترحت بأن على جورج أن يجمع الطوابع البريدية.

"بعد أن غادرتِ فلورنسه... كان الأمر رهيباً. ثم استأجرنا هذا المنزل هنا، وذهب هو ليستحم مع أخيك، وأصبح هو في حال أفضل. هل شاهدته وهو يستحم؟".

"أنا آسفة جداً، ولكن ليس هناك فائدة من مناقشة هذا الأمر. وأنا في الحقيقة آسفة جداً فيما يخص هذا الأمر".

"ثم حدث شيء يخص رواية ما. لم أتابع الموضوع كله؛ لقد كان عليّ أن أسمع الكثير، وهو قد رفض أن يخبرني؛ فهو يجدني مسناً جداً. آه، حسناً، على المرء أن يعاني من الإخفاقات. سيأتي جورج غداً إلى هنا، ويصطحبني إلى مكان سكنه في لندن. إنه لا يتحمل التواجد هنا، وعليّ أنا أن أتواجد حيث هو".

صرخت الفتاة: "يا سيد إمرسون، لا تغادرْ... على الأقل ليس بسببي. أنا ذاهبة إلى اليونان. لا تغادر مسكنك المريح".

كان صوتها لطيفاً لأول مرة، فابتسم. "لكم هم الجميع طيبون! وانظري إلى السيد بيب كيف أسكنني في منزله... لقد جاء في هذا الصباح وسمع أني سأرحل! وهاأنذا مرتاح جداً مع نار موقدة"!

"اجل، ولكنك لن تعود إلى لندن. هذا أمر مناف للعقل".

"عليّ أن أتواجد مع جورج؛ عليّ أن أجعله يهتم بالاستمرار بالعيش، وهنا لا يستطيع ذلك. يقول هو إن فكرة رؤيتك والاستماع إلى أخبارك... أنا لا أبرر موقفه: أنا أروي ما حدث فحسب".

"أوه يا سيد إمرسون" ـ أمسكت بيده ـ "ليس عليك أن تفعل ذلك. لقد تسبّبتُ في الكثير من الإزعاج حتى الآن. لا أستطيع أن أراك تترك منزلك وأنت تحبه، وربما تفقد المال بسبب ذلك... كل ذلك بسببي أنا. عليك أن تتوقف عن ذلك! أنا ذاهبة إلى اليونان قريباً".

"كل نلك المسافة حتى اليونان؟".

تغير أسلوبها.

"حتى اليونان؟".

"لذلك عليك ألا تذهب. لا أريدك أن تتحدث عن هذا الموضوع، أعرف. استطيع أن أثق بكما كليكما".

"تستطيعين بكل تأكيد. إما أن تكوني في حياتنا، أو نتركك للحياة التي اخترتِها".

"ليس عليّ أن أرغب...".

"أفترض أن السيد ڤايز غاضب جداً من جورج؟ كلا، لقد أخطأ جورج في محاولته. لقد دفعنا بمعتقداتنا إلى الحد الأقصى. أتخيل أننا نستحق الأسى".

نظرت إلى الكتب مرة أخرى... سوداء وبنية وذلك الأزرق اللاهوتي الحاد الزرقة. كانت تحيط بالزائرين من كل جانب؛ وكانت مكومة فوق المناضد وتتزاحم حتى مع السقف. بالنسبة إلى لوسي ـ من يستطيع أن يرى أن السيد إمرسون كان متديناً بعمق، ويختلف عن السيد بيب على نحو رئيسي بإقراره بالعاطفة الحارة ـ لقد بدا أن اضطرار الرجل العجوز إلى اللجوء إلى مثل هذا المعتزل أمر كريه، وهو غير سعيد بذلك ومتكل على كرم رجل دين.

ولما كان أكثر ثقة من أي وقت مضى بأنها مرهقة، فقد عرض عليها كرسيه.

"كلا من فضلك ابق في مكانك. أظن أني سأجلس في العربة".

"يا آنسة هنيتشيرتش، أنت تبدين متعبة حقاً".

قالت لوسي بشفتين راجفتين: "ليس إطلاقاً".

"ولكنك تعبة. هناك نظرة أشبه بنظرة جورج على وجهك. وما الذي كنت تقولينه عن السفر إلى خارج البلاد؟"

صمتت.

"اليونان "ـ ولاحظت أنه كان يتأمل في الكلمة ـ "اليونان، ولكنك كنت ستتزوجين في هذا العام، كما كنت أظنّ".

"ليس قبل حلول شهر كانون الثاني (يناير)"، هذا ما قالته لوسي وهي تشبّك يديها. هل عليها أن تنطق بكذبة فعلية حين يصل الأمر إلى لبّ المسألة؟

"أفترض أن السيد ڤايز سيذهب معك. آمل ... هل يكون السبب في ذهابكما ما قاله جورج لك؟".

"كلا".

"آمل أن تستمتعي بزيارة اليونان مع السيد ڤايز".

"شكراً".

في تلك اللحظة، عاد السيد بيب من الكنيسة. كانت غفارته مبللة بماء المطر. قال بلطف: "هذا جيد. لقد اعتمدت على أن يسلّي واحدكما الآخر خلال غيابي. عاد المطر ليهطل مجدداً. إن جماعة المصلين كلها، وهي تتألف من ابنة عم أمك وأمك وأمي، تقف في الانتظار في الكنيسة حتى تصل العربة. هل التفّ باوِل من حول المكان؟".

"أظن ذلك. سأرى".

"كلا، طبعاً، أنا الذي سيرى. كيف هما الآنستان آلان؟".

"إنهما بخير. شكراً".

"هل أخبرت السيد إمرسون بأمر اليونان؟".

"لقد... لقد فعلت".

"ألا تظن أنها شجاعة جداً، يا سيد إمرسون، حتى تتحمل مسؤولية الآنستين آلان؟ والآن، يا آنسة هنيتشيرتش، عودي إلى الخلف وابقي دافئة. أعتقد أن ثلاثة رقم جريء للسفر". وأسرع خارجاً باتجاه الإسطبل.

قالت بصوت أبحّ: "لن يذهب معي. لقد أخطأت. السيد ڤايز سيبقى في إنكلترا". كان من المستحيل نوعاً ما أن تغشّ هذا الرجل العجوز. كان يمكن لها أن تكذب مجدداً على جورج أو سيسيل، ولكن بدا وكأنه في نهاية الأمور، كما بدا مبجلاً جداً في مقاربته للهاوية، والتي قدّم عنها بياناً واحداً، وقدمت الكتب التي كانت تحيط به بياناً آخر، وكان بياناً رقيقاً جداً بالمقارنة مع المجازات الصعبة التي عبرها، حتى أن الفروسية الحقة ـ ليس الفروسية المهترئة للجنس، إنما الفروسية الحقة الني قد يبديها جميع من هم في سن الشباب نحو كبار السن ـ قد استيقظت فيها. ومهما كان الخطر، فقد قالت له إن سيسيل لن يرافقها إلى اليونان. وقد تكلمت بلهجة جادة جداً حتى أن الخطر أصبح أمراً مؤكداً. فقال وهو يرفع عينيه: "هل ستتخلّين عنه؟ هل ستتخلّين عن الرجل الذي تحبين؟".

"أنا... لقد اضطررتُ إلى ذلك".

"لماذا يا آنسة هنيتشيرتش، لماذا؟".

انتابها الرعب فكذبت مرة أخرى، فطرحت الخطاب الطويل المقْنع الذي سبق أن طرحته على السيد بيب، وكانت تنوي تقديمه إلى العالم حين ستعلن أن خطوبتها قد فُسخت. استمع إليها في صمت، ثم قال: "يا عزيزتي، أنا قلق من أجلك. يبدو لي..". ـ كان في مزاج حالم، ولكنها لم تكن منزعجة ـ "أنك في حالة تشوش".

هزّت رأسها.

"صدِّقي كلام رجل عجوز: ليس هناك شيء أسوأ من التشوش في هذا العالمِ كله. من السهل مواجهة الموت والقدر، والأمور التي تبدو رهيبة جداً. أنا أنظر إلى حالات التشوش التي مررت بها برعب... الأشياء التي كان يمكن لي أن أتجنّبها. يمكننا أن نساعد واحدنا الآخر ولكن ليس إلى حد كبير. اعتدت أن أظن أني أستطيع تعليم صغار السن بشأن الحياة كلها، ولكني أعرف الآن أني لم أكن على صواب تماماً، وأن تعليمي كله لجورج قد أوصلنا إلى هذا: إياك والتشوّش. هل تتذكرين في تلك الكنيسة حين تظاهرت بأنك قد انزعجت مني بينما لم يحدث ذلك؟ هل تتذكرين قبل ذلك كيف رفضتِ الغرفة ذات الإطلالة؟ تلك كانت تشوشات ـ صغيرة إنما مشؤومة ـ وأنا أخشى أنك في حالة تشوش الآن". بقيت هي صامتة. "ثقي بي يا آنسة هنيتشيرتش. على الرغم من أن الحياة رائعة جداً، إلا أنها شاقة". كانت هي ما تزال صامتة. "(الحياة)، كما كتب لي أحد الأصدقاء، (عزف على الكمان أمام جمهور، حيث يكون عليك أن تتعلمي أسرار الآلة مع تقدمك في مسيرة الحياة). أعتقد أن صديقي قد صاغ فكرته جيداً. على الإنسان أن يتعلّم استخدام وظائفه وهو يتقدم في مسيرة الحياة ... وخاصة وظيفة الحب". ثم انفجر وهو يقول مستثاراً: "هذا هو الأمر. هذا ما أعنيه. أنت تحبين جورج"! بعد التمهيد الطويل، انفجرت هذه الكلمات الثلاث على لوسي كموجات من البحر المكشوف.

تابع كلامه دون أن ينتظر منها الإنكار. "أنت تحبين ذلك الفتى جسداً وروحاً، على نحو صريح ومباشر، كما يحبك هو، ولا توجد كلمة أخرى تعبّر عن ذلك. لقد رفضت الزواج من الرجل الآخر من أجل جورج".

شهقت لوسي وهدير المياه في أذنيها: "كيف تجرؤ على مثل الكلام! أوه، لكم تتصرف كرجل!... أعني أن تفترض أن المرأة تفكّر دائماً برجل ما".

"ولكنك تفعلين هذا".

تظاهرت بأنها مشمئزة جسدياً.

"أنت مصدومة، ولكني تعمدت أن أصدمك. إنه الأمل الوحيد الآن. لا يمكنني أن أُفهمك قصدي بطريقة أخرى. عليك أن تتزوجي وإلا فإن حياتك ستذهب هدراً. لقد فات الوقت على تراجعك. ليس لديّ وقت للحنان والرفقة والشعر وأمور التي تهمّ فعلاً، والتي من أجلها يتزوج المرء. أعرف أنك ستجدينها مع جورج، وأنك تحبّينه. وعلى الرغم من هروبك إلى اليونان، وأنك لن تريه مرة أخرى، أو سوف تنسين حتى اسمه، فإن جورج سيبقى في فكرك حتى تموتين. ليس من الممكن أن نحبّ ونفترق. سوف تتمنّين لو لم يحدث ذلك. يمكنك أن تحوّلي الحب إلى شيء آخر، أن تتجاهليه، أو تشوّشيه، ولكنك لن تستطيعي أبداً أن تتخلصي منه. أعرف بالتجربة أن الشعراء على حق: "الحب خالد"

بدأت لوسي تبكي غضباً، وعلى الرغم من أن غضبها زال سريعاً، إلا أن دموعها بقيت تنهمر.

"أتمنى فحسب لو أن الشعراء يقولون هذا أيضاَ: إن الحب يخص

الجسد؛ هو ليس الجسد، ولكنه يخص الجسد. آه! كم من البؤس سيتم التخلص منه لو اعترفنا بذلك! آه، لو أن هناك القليل من الصراحة لتحرير الروح! روحك أنت يا لوسي العزيزة! أكره الكلمة الآن، بسبب كل النفاق الذي يتم به تغليف الخرافة. ولكن لدينا أرواح. لا أستطيع القول كيف جاءت ولا إلى أين ستذهب، ولكننا نملكها. أنا أراك تدمّرين روحك. لا أستطيع احتمال ذلك. إنه مجدداً الظلام وقد راح يتسلل. إنه الجحيم". توقف عن الكلام. "يا لهذا الهذر الذي تفوهت به ـ لكم هو مجرّدٌ وبعيد! ولقد جعلتك تبكين! يا فتاتي العزيزة، سامحيني على إملالي لك. تزوجي بابني. حين أفكر فيما هي الحياة، وكم من النادر أن يُردّ على الحب بالحب... تزوجي به. هذه واحدة من اللحظات التي صُنع العالم من أجلها".

لم تكن قادرة على فهمه. كانت الكلمات بعيدة بالفعل. ولكن، وبينما كان يتكلم راح الظلام ينجلي، ستاراً خلف ستار، ورأت بوضوح قرار روحها.

"إذاً يا لوسي..".

أنّت قائلة: "لقد روّعتني... سيسيل... السيد بيب... بطاقة السفر التي اشتُريتْ... كل شيء". جلست على الكرسي وهي تبكي منهارة. "لو وقعت في الورطة. عليّ أن أعاني وأشيخ بعيداً عنه. لا يمكنني أن أحطم كل الحياة من أجله. لقد وثقوا بي".

وصلت عربة وتوقفت عند الباب الأمامي.

"بلّغ حبي إلى جورج... مرة واحدة فقط. قل له: (تشوش)". ثم رتبت خمارها، بينما كانت الدموع تنهمر على وجنتيها من تحته.

"لوسي..".

"كلا، إنهم في البهو. أوه، أرجوك، كلا يا سيد إمرسون... إنهم يثقون بي".

"ولكن لمَ عليهم أن يثقوا بك وأنت التي خدعتهم؟".

فتح السيد بيب الباب وقال: "هاهي أمي".

"أنتِ لا تستحقين ثقتهم".

قال السيد بيب بحدّة: "ما هذا؟".

"أقول لم عليك أن تثق بها وهي التي خدعتكَ؟".

"دقيقة يا أمي". ثم دخل وأغلق الباب.

"لا أفهمك يا سيد إمرسون. إلى من تشير؟ أثق بمن؟".

"أعني أنها ادعت أمامك بأنها لا تحب جورج. ولكنهما أحبا واحدهما الآخر منذ البداية".

نظر السيد بيب إلى الفتاة المنتحبة. كان شديد الهدوء، ووجهه الأبيض، وفوداه الأحمران، يبدوان لا بشريين فجأة. كان عموداً أسود طويلاً، إذ وقف وراح ينتظر جوابها.

قالت لوسي بصوت متهدج: "لن أتزوجه أبداً".

طغت عليه نظرة احتقار، فقال: "ولم لا؟".

"يا سيد بيب ـ لقد خدعتُك ـ لقد خدعتُ نفسي..".

"أوه، هراء يا آنسة هنيتشرتش".

قال الرجل العجوز بحرارة: "ليس هراء. إنه ذلك الجزء من الناس الذي لا تفهمونه".

"لوسي! لوسي"! هكذا نادت أصوات من العربة.

"يا سيد بيب، هل لك أن تساعدني؟".

بدا منذهلاً من الطلب، فقال بصوت خفيض وحازم: "أنا أكثر حزناً مما أستطيع التعبير عنه. هذا أمر مؤسف ولا يمكن تصديقه".

قال الرجل الآخر بقوة: "وما هو العيب في الفتى؟".

"لا شيء يا سيد إمرسون، باستثناء أنه لم يعد يثير اهتمامي. تزوجي بجورج يا آنسة هنيتشيرتش. سيكون زوجاً مثيراً للإعجاب".

خرج وتركهما. سمعاه يقود أمه نحو الطابق العلوي.

نادت الأصوات: "لوسي"!

التفتت إلى السيد إمرسون بيأس، ولكن صوته أحياها. كان له وجه قديس يفهم كل شيء.

"الآن كل شيء مظلم. الآن يبدو الجمال والعاطفة وكأنهما لم يسبق لهما أن وُجدا. أعرف ذاك. ولكن تذكري الجبال المشرفة على فلورنسه والمنظر الطبيعي هناك. آه يا عزيزتي، لو كنتُ أنا جورج، ومنحتك قبلة واحدة، فتلك كانت ستجعلك شجاعة. عليك أن تكوني باردة الأعصاب حين تخوضين معركة تحتاج إلى دفء، لتنخرطي في التشوش الذي وضعت نفسك في شراكه. كما أن أمك وكل أصدقائك سوف يحتقرونك ـ أوه يا حبيبتي ـ وعن حق، هذا إن كان هناك حق في الازدراء. ما يزال جورج في الظلام، كل ذلك الصراع والبؤس ولم يتلفظ بكلمة واحدة. هل كلامي مبرّر؟" وآنذاك بدت الدموع في عينيه. "أجل، فنحن نقاتل في سبيل ما هو أكثر من الحب أو السرور: هناك الحقيقة. الحقيقة تهمنا. الحقيقة تهمنا إلى حد كبير".

قالت الفتاة: "قبّلْني. قبّلني. سأحاول".

منحها إحساساً بأن هناك آلهة قد تم الصلح فيما بينها، شعوراً بأنها إن كسبت الرجل الذي أحبته، فسوف تكسب شيئاً ما من أجل العالم كله. خلال بؤس الرحلة بالعربة إلى البيت ـ تكلمت مرة واحدة ـ وبقيت تحياته. لقد سلب هو من الجسد إثمه وسلب من سخرية العالم وخزتها. أراها قداسة الرغبة المباشرة. ستقول في سنوات لاحقة: "إنها لم تفهم بالضبط كيف استطاع أن يشدّ من عزيمتها. كأنه جعلها ترى مجموع كل شيء مرة واحدة".

* * *

الفصل [20]

# نهاية العصور الوسطى

مضت الآنستان آلان فعلاً إلى اليونان، إلا أنهما مضتا وحدهما. وهما وحدهما ضمن هذه المجموعة الصغيرة من سيزور "ماليا" مرتين ويحرث مياه "الخليج الساورنيكي". هما وحدهما من سيزور أثينا ودلفي، وأي من المزارين المقدسين للأغنية الفكرية ... على الأكروبولوس ـ محاط ببحار زرقاء. وتحت "برناسوس"، حيث تبني النسور أعشاشها، يقود سائق العربة البرونزي عربته دون خوف نحو الأبدية. وقد تابعتا السفر، وهما ترتجفان وتشعران بالقلق، ومثقلتان بالكثير من الخبز السهل على الهضم، إلى القسطنطينية، ودارتا من حول العالم. أما بقيتنا فكنا قانعين بهدف جميل وإن يكن أقل مشقة. السعي إلى المعرفة. نعود إلى بنسيون برتوليني.

قال جورج إنها غرفته القديمة.

قالت لوسي: "كلا، ليست كذلك، لأنها الغرفة التي نزلت فيها أنا وكانت غرفة أبيك. لقد نسيت السبب. جعلتني شارلوت أنزل فيها لسبب ما".

• ركع على الأرضية المبلّطة، ووضع رأسه على حجرها.

"جورج، يا أيها الطفل، إنهض".

همهم جورج: "ولم لا أكون طفلاً".

وبما أنها لم تكن قادرة على الردّ على هذا السؤال، فقد وضعت جانباً جوربه الذي كانت تحاول رتقه، وحدقت عبر النافذة. كان الوقت مساء، وهاهو الربيع قد عاد ثانية.

قالت بتأمل: "اللعنة على شارلوت. ما الذي صُنع مثل هؤلاء الأشخاص منه؟".

"المادة نفسها التي يُصنع منها القساوسة".

"هراء"!

"صحيح تماماً. إنه الهراء".

والآن، هيا انهض عن هذه الأرضية الباردة، أو سيبدأ الروماتيزم لديك بعد ذلك، وتوقفْ عن اللهو والبلاهة".

"ولمَ لا أضحك؟" سألها وهو يثبتها بمرفقيه، ويقرّب وجهه من وجهها. "ماذا هناك لنبكي عليه؟ قبّليني هنا". وأشار إلى بقعة تكون القبلة مرحباً بها.

لقد كان مجرد صبي على أي حال. وعندما يحين الجدّ كانت هي من يتذكر الماضي، وهي التي تألمت روحها، وهي التي عرفت غرفة من كانت هذه في العام الماضي. وكانت تصبح أكثر حباً له وعلى نحو غريب لأنه كان يخطئ أحياناً.

سألها: "هل هناك رسائل؟".

"مجرد سطر واحد من فريدي".

"والآن قبّليني هنا. ثم هنا".

ثم، وبعد تهديده مجدداً بالروماتيزم، سار نحو النافذة، وفتحها (كما من شأن الإنكليز أن يفعلوا) وأطلّ منها. كان هناك الحاجز ما يزال وكذلك النهر، وإلى اليسار بدايات الجبال. قد يكون الحوذي الذي حياه ذات مرة بهسهسة أفعى، هو ذاك "الفايثون" نفسه الذي أطلق مسار هذه السعادة قبل اثني عشر شهراً. طغى شعور بالامتنان ـ وكل المشاعر تتطور لتصبح عواطف حارة في الجنوب ـ طغت على

الزوج، فبارك الناس والأمور التي بذلت كل ذلك العناء من أجل شاب أحمق. لقد قدّم العون لنفسه، وهذا صحيح، ولكن لكم حدث ذلك بغباء! وكل القتال الذي كان مثمراً قام به الآخرون: قامت به إيطاليا وقام به والده وقامت به زوجته.

"يا لوسي، تعالي وانظري إلى أشجار السرو والكنيسة التي لا أعرف اسمها ما تزال مرئية".

"اسمها سان مانياتو. أكاد أنتهي من رتق جوربك".

قال الحوذي بيقين جذاب وبالإيطالية: "يا سيدي غداً سنقوم بجولة".

قال له جورج إنه على خطأ، وإنه ليس معهما من النقود ما يكفي لإنفاقه على رحلات بالعربة".

والأشخاص الذين لم يكونوا ينوون تقديم المساعدة... من أمثال الآنسة لافيش وسيسيل والآنسة بارتلت! إنهم ميالون دائماً إلى تضخيم "القدّر"، وكان جورج قد أحصى كل القوى التي دفعته ليصل إلى هذا الرضا.

"هل من أخبار طيبة في رسالة فريدي؟".

"ليس بعد".

كان رضاه مطلقاً، أما رضاها هي فكان مشبعاً بمرارة: لم يسامحها آل هنيتشيرتش. لقد اشمأزت أسرتها من نفاقها في الماضي. وهي قد أغضبت ويندي كورنر، وربما إلى الأبد.

"ما الذي يقوله؟".

"صبي أحمق! يظن أنه مبجل. كان يعرف أننا سننطلق في الربيع ـ لقد عرف ذلك منذ ستة أشهر ـ وأنه لو لم تمنح أمها موافقتها على

زواجهما، كنا نحن سنتصرف باستقلال عنها. لقد جرى تحذيرهما بعدل، والآن، هو يسمي الأمر فراراً من بيت الأهل. صبي سخيف..".

(بالإيطالية): "يا سيدي غداً سنقوم بجولة".

"ولكن الخاتمة ستكون جيدة جداً على كل حال. لقد كان عليه أن يعيد صياغتنا نحن الاثنين منذ البداية مرة أخرى. أتمنى، على الرغم من كل شيء، أن سيسيل لم يصبح شديد السخرية من النساء. لقد تغير تماماً وللمرة الثانية. لماذا يكون للرجال نظريات حول النساء؟ ليست لديّ أي نظريات حول الرجال. وأتمنى أيضاً أن السيد بيب..".

"يمكنك أن تتمني ذلك عن طيب خاطر".

"لن يسامحنا هو أبداً... أعني أنه لن يكون مهتماً بأمرنا مرة أخرى. أتمنى لو لم يكن له ذلك التأثير عليهم في ويندي كورنر. أتمنى لو أنه لم... ولكن لو أردنا الحقيقة، فإن الأشخاص الذين يحبوننا فعلاً سيعودون إلينا بلا شك في النهاية".

"ربما". ثم قال على نحو أكثر لطفاً: "حسناً، لقد تصرفتُ كما تقتضي الحقيقة ـ هذا ما فعلتُه ـ وقد عدتِ أنتِ إليّ. إذاً ربما تعرفين". التفت إلى الغرفة مجدداً. "هراء ما تفعلينه بذلك الجورب". حملها إلى النافذة، حتى تستطيع هي أيضاً أن ترى الإطلالة بكاملها. ركعا على ركبهما حتى لا يكون ممكناً رؤيتهما من الطريق، كما أملا، وبدأا يتهامسان: "كل منهما يهمس باسمه للآخر. آه، كان الأمر يستحق كل ذلك العناء. كانت تلك هي المتعة الكبرى التي توقعاها، مع متع صغيرة أخرى.

(بالإيطالية): "يا سيدي غداً سنقوم بجولة".

"أوه، اللعنة على ذلك الرجل"!

ولكن لوسي تذكرت بائع الصور وقالت: "لا تكن فظاً معه". ثم همهمت وهي تلتقط أنفاسها: "السيد إيغر وشارلوت، يا لشارلوت الجليدية الرهيبة! لكم كانت ستتصرف بقسوة مع رجل كهذا"!

"انظري إلى الأنوار وهي تطغى على الجسر".

"ولكن هذه الغرفة تذكرني بشارلوت. لكم هو أمر رهيب أن يشيخ المرء بأسلوب شارلوت! مجرد تفكيري في ذلك المساء في منزل القسيس بأنها لم تسمع بأن أباك كان في المنزل نفسه! لقد كانت ستمنعني من الدخول، وكان هو الشخص الوحيد على قيد الحياة الذي يستطيع أن يجعلني أرى ما هو الصواب. لم تكن أنت قادراً على فعل ذلك. حين أكون سعيدة جداً" ـ قبّلتْه ـ "أتذكر كم كان الأمر معلقاً على شيء صغير جداً. لو عرفتْ شارلوت لكانت ستمنعني من الدخول إلى المنزل، وكنت سأذهب إلى اليونان، وأصبح شخصاً مختلفاً إلى الأبد".

قال جورج: "ولكنها كانت تعرف. لقد رأت أبي، بكل تأكيد. هو قال لي ذلك".

"أوه، كلا لم تره. كانت في الطابق العلوي مع السيدة بيب العجوز، ألا تتذكر؛ ثم ذهبت مباشرة إلى الكنيسة. لقد قالت لي ذلك".

أصبح جورج عنيداً مرة أخرى. قال: "رآها أبي، وأنا أصدق كلامه. كان ينام نوماً خفيفاً قرب نار المكتب، وفتح عينيه فشاهد الآنسة بارتلت. وحدث ذلك قبل دقائق من دخولك. كانت هي تلتفت لتخرج حين استيقظ هو. لم يكلّمها".

"إذاً، فقد تحدثا في أمور أخرى... الكلام العابر لأولئك الذين كانوا يناضلون ليصل الواحد منهم إلى الآخر، وكانت مكافأته أن ينتهي إلى عناق مع الشخص الآخر. مرت فترة طويلة قبل أن يعودا ليذكرا الآنسة بارتلت، ولكن حين عادا إلى ذكرها، بدا سلوكها أكثر

إثارة للاهتمام. قال جورج الذي يكره أي غموض: "من الواضح أنها كانت تعرف. ثم، لم خاطرت هي باللقاء بينك وبين أبي؟ كانت تعرف أنه هناك، ومع ذلك ذهبت هي إلى الكنيسة".

حاولا فهم ما جرى بالضبط.

وبينما كانا يتحدثان، وجد حلّ لا يُصدق طريقه إلى ذهن لوسي. رفضته، ثم قالت: "لكم هو من دأب شارلوت أن تبطل عملها بتشوش ذهني ضعيف في اللحظة الأخيرة". ولكن شيئاً ما في المساء الآخذ بالاحتضار، في خرير النهر، في عناقهما بالذات، حذّرهما من أن كلماتها لم تكن صحيحة تماماً. فهمس جورج: "أو هل تقصّدت ذلك؟".

"ما الذي تقصّدته هي؟".

(بالإيطالية): "يا سيدي غداً سنقوم بجولة".

انحنت لوسي نحو الأمام وقالت بلطف بالإيطالية: "اسمح لنا من فضلك، اسمح لنا أن نكون وحدنا".

أجاب بلهجة لطيفة بالقدر نفسه: "اعذريني كثيراً يا سينيوره". ثم ساط حصنه.

"مساؤك سعيد، وشكراً".

قاد الحوذي عربته مبتعداً وهو يغني.

"ما الذي تقصّدته هي يا جورج؟".

همس: "هل هذا هو الأمر؟ هل هو ممكن؟" سأجعلك تدهشين. إن ابنة عم أمك كانت تأمل على الدوام؛ أنها منذ اللحظة الأولى التي تقابلنا فيها، كانت تأمل، في أعماق ذهنها، أن نكون على هذا النحو... طبعاً في أعماقه السحيقة. لقد حاربتنا من على السطح، ومع ذلك فقد كانت تأمل. لا أستطيع شرح تصرفاتها بأي طريقة

أخرى، هل تستطيعين أنت؟ انظري كيف أصبحت شهراً بعد شهر أكثر غرابة في تصرفاتها وغير موثوقة. كان مشهدنا معاً، يسكنها... وإلا لما استطاعت أن تصفنا لصديقتها كما فعلت. هناك تفاصيل... كانت تلذعها. لقد قرأتُ الرواية لاحقاً. الآنسة بارتلت ليست متجلّدة. يا لوسي، إنها ليست ذابلة بالكامل. لقد أبعدتنا الواحد عن الآخر مرتين، ولكن في منزل القسيس، في ذلك المساء، مُنحتنا هي فرصة أخرى لتمنحنا السعادة. لا يمكننا أن نصادقها أو نشكرها. ولكني أعتقد أنها في أعماق قلبها سعيدة، بغض النظر عن كل الكلام والسلوك.

همهمت لوسي: "هذا مستحيل". ثم تذكرت تجربة قلبها هي، فقالت: "كلا، بل هذا ممكن تماماً".

كان الشباب يغمرهما؛ وأغنية فايثون أعلنت أن العاطفة قد كوفئت والحب قد تحقق. ولكنهما كانا واعيين بحب أكثر غموضاً من هذا. تلاشى صوت الغناء؛ سمعا صوت النهر وهو يحمل ثلوج الشتاء إلى البحر الأبيض المتوسط.

(انتهت)

مكتبة
t.me/soramnqraa

# الفهرس

إي. إم. فورستر

# غرفة ذات إطلالة

ألح الرجل العجوز: "ولكن لم لا؟ تحب النساء الإطلالة على منظر جميل. أما الرجال فلا". ثم ضرب المائدة بكلتا قبضتيه كما قد يفعل طفل صغير، والتفت إلى ابنه، وقال: "يا جورج، أقنِعْهما".

قال الابن: "من الواضح جداً أن عليهما أخذ الغرفتين. ليس هناك أي شيء آخر يمكن قوله".

...

قالت لوسي التي ورثت عن أمها كرهاً للقذارة: "هل هي رائحة طيبة؟".

كان الجواب: "لا يأتي المرء إلى إيطاليا من أجل الأشياء النيّقة، بل يأتي من أجل الحياة. "بوون جيورنو! [صباح الخير] بوون جيورنو"! وهي تنحني يميناً ويساراً. "انظري إلى عربة النبيذ الفاتنة تلك! كيف يحدق السائق إلينا يا عزيزتي، روح بسيطة"!

هكذا تقدمت الآنسة لاڤيش عبر شوارع مدينة فلورنسه، قصيرة ومتململة ولعوب كهُريرة، وإن فاتها التمتع برشاقة الهريرة. كانت تلك متعة للفتاة أن تحظى برفيقة شديدة الذكاء والمرح؛ وبعباءة عسكرية زرقاء، كالتي يرتديها الضباط الطليان، مما جعل جو الاحتفالية يزداد أكثر.

E. M. Forster

A Room with A View